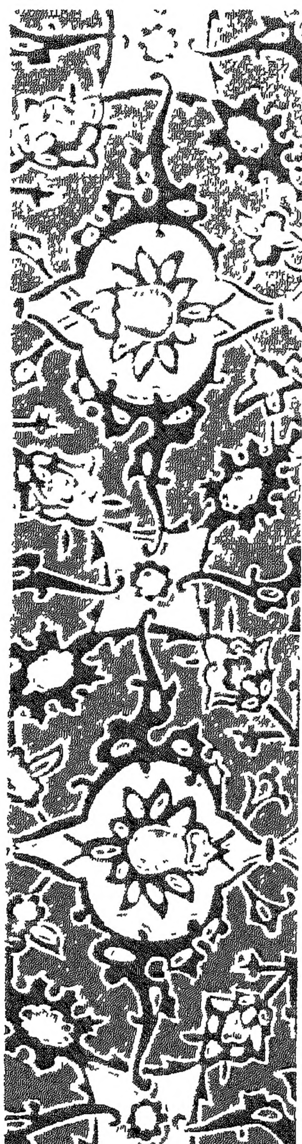
نبيل خوري



ثلاثية فلسطين



كل ليلة هي تبكيه . وكل ليلة ستبكيه . امطرت السماء أو لم تمطر هطل الغيث او لم يهطل .
بكاؤها مطر .
شديد بكاؤها . شديد كشدة الحزن الذي تشعر به . كشدة الفراغ الذي تمتلئ به . شديد كشدة المصيبة .

مصيبة ؟
ما أتفه هذه الكلمة بالنسبة إلى مما حدث .
ما أتفه أية كلمة امام موت من نحب .
ما أتفه أية تعزية ، أي رثاء ؟
أية كلمة تسد مكانه في السرير العريض ؟
أية كلمة تعيد ضحكته التي تملأ المنزل .
أية كلمة تعزي من فقدان دفء شفتيه .
أية كلمة تعيد لمسته ، قبلته ، حبه .
الله ؟ ...
حتى الله ، عجز أن يعزيها .
ألا تصلي هي له كل ليلة ؟ الا تدعو اليه ان يعيد إلى نفسها الطمأنينة كل صباح ؟ الا تبكي امام كل كنيسة وكل مسجد ؟ .

لكن ، والشهور الطويلة ، الثقيلة مرت .
لكن ، لم ، لم يستجب لها الله .
هل وقف عاجزاً أمام فداحة ما حدث لها ؟ .
كثيرون ماتوا مع حبيبها ، مع زوجها . ورأت في عيون حبيباتهم وزوجاتهم استر النسيان تسدل يوماً بعد يوم .

هل أحبته أكثر منهم ؟
هل كان اعز منهم ، عندها ؟



للاخراج الفني عصمت شنبور

© دار الشروق
بيروت : ص . ب : ٦٤ ٨ هاتف : ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني هاتف ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
جدة : شارع العمادية هاتف ٢٦٦١٠ - ص ب : ٤١٤٦

* حارة النصارى

* الرحيل

* القناع

حارة النصارى

المطر يغسل كل شيء إلا الحزن . المطر يزيد الحزن . تشعر وهو يتساقط على شباك نافذتك بشعور غامض يسحق قلبك . تود لو تبكي . تود لو تتساقط دموعك كحبات المطر . تود لو تمتزج دموعك مع المطر .

منذ طفولتها كان المطر يحرك فيها هذا الاحساس الغامض بالكآبة ، بالرغبة في البكاء .
وهي صغيرة ، عندما كانت تستيقظ في الليل على صوت المطر ، كانت تهرع إلى أمها تختبئ في حضنها الدافئ ، تمرغ وجهها في صدرها وتبكي . كلما أمطرت السماء كانت تبكي .

وعندما كبرت ، كبرت عن حضن امها وصدرها ، أصبحت تبلل بدموعها الوسادة .
وعندما تزوجت . وجدت في صدر زوجها مكاناً لدموعها في المطر .
لذلك لم تشعر بحاجة إلى أمها يومَ أمطرت لاول مرة بعد وفاتها . كان هناك زوجها ، حبيبها ، وهناك بكت . بكت مرتين . مرة عندما هطل الغيث ، وأخرى عندما تذكرت امها .

الليلة ، ليس هناك من تبكي على صدره .
هو أيضاً مات .
والليلة ، أمطرت السماء للمرة الأولى بعد رحيله .
هذه الليلة بكت مرتين .
بكت من المطر . وبكته .

سميرة مات زوجها وكانت تحبه . ليلى مات زوجها وكانت تعبده . رأتهما أمس تبتسمان !
لم لا تبتسم هي . لم لا تفعل مثلهما .
حتى لو حاولت . الابتسامة على شفتيها تموت . هي لا تريد ان تفعل أي شيء . لا تريد ان تأكل ، ان تشرب . أن تنام .

كل ما تريده أن تجلس أمام صورته ، وتبكي .
لولا طفلها ، طفلهما ، لما تحركت من أمام الصورة .
لولاه ، لماتت ، للحقت به .
من أجله عاشت . ومن أجله تتحرك ، ومن أجله تتنفس .
لو لم يكن هناك طفل لقتلت نفسها .
منذ أن احبت الحبيب الراحل ، عرفت أن حياتها هي حياته ، انها من دونه لا شيء . لكن هذا الصغير ، هذا الجزء منه ، فرض عليها الحياة . فرض عليها البقاء . انه هو ، انه قطعة منه ، هي لا تستطيع أن تستغني عن الجزء الغالي الذي بقي منه .

الطفل ، لا يعرف ان والده مات .
مسافر ، تقول له .
سيعود . سيكون هنا ليلة الميلاد . سيشتري لك الالعاب . سيزين لك الشجرة . سيرفعك على رأسه كالكرة الصغيرة . سيعلمك الملاكمة . سيقبلك الف مرة . سيدلعك .

هو عائد ، قالت له .
هذا فقط جعل الطفل لا يبكي . هو أيضاً يحبه حتى العبادة . كل الناس احبوه حتى العبادة . أهل الحي كلهم ، عندما يذكرونه يترحمون ، ويبكون .

نساء الحي شققن ثيابهن عندما مات .
رجال الحي لم يذهبوا إلى أعمالهم .
الفتيان ، الشبان ، تراكضوا لحمل نعشه ، للمسه .

عاش كبطل . ومات كبطل . وذكراه ذكرى بطل .
لذلك لا تستطيع أن تنساه ، أن تبتسم كما ابتسمت ليلى وسميرة .
البطل لا ينساه الناس . الشهيد لا تبتسم زوجته .

لكن ـ تناقش نفسها ـ زوجا سميرة وليلى ، ماتا ايضاً ميتة الأبطال . في المعركة ماتا . الرصاص نفسه الذي مزق جسد زوجها ، مزق جسدهما .

لكنه ـ تجيب نفسها ـ كان رائد بطولة . منذ طفولته وهو يقاتل . يناضل . منذ اول مرة قابلته ، كان يقاتل .

هي لم تعرفه الا مقاتلاً ، ومناضلاً .
أول كلمة سمعتها منه كانت : يجب أن نقاوم .
عاش ، ومات وهو يقاوم .

هل نفعت مقاومته ، هل كان قتاله مجدياً ، هل نجح قتاله ، الم تسقط المدينة التي أحب ، ألم يحتلها أولئك الذين حاربهم طول عمره ، الم يدخلوا إلى منزله ويهزأوا من صورته التي تظهره وهو يحمل الرشاش ، ألم يذلوا زوجته ، ألم يهينوا أمه ؟

هل قاتل وحارب وقاوم وناضل من أجل هذا ؟
أم كان مصير المدينة التي أحب مرتبطاً بحياته ، فلما سقط سقطت ؟
القدس ، كان يقول لها ، القدس ، لا حياة لنا بغير القدس . هذه حبيبتنا ، حبيبة العرب . فإذا ضاعت ، ضاع العرب .

ضاعت القدس يا يوسف !
سقطت حبيبتك يا يوسف !
هل رأيتها وهي تسقط ؟
لا ، لم تحتمل اعصابك الذي حدث . تمنيت الموت . طلبته ، طلبت من صديقك ، ورفيق

صباك ، وزميل طفولتك أن يقتلك .

أربعون عاماً يا يوسف ...
أربعون عاماً وأنت تحارب كي لا تضيع القدس ، كي لا تضيع الحارة ، حارتك ، كي لا تسقط وسقطت ، كالحلم سقطت ، في أربعين ساعة .
ناديت الموت ، فلباك .
وتركتني ، تركت صبيتك ، زوجتك اسمى وحدها ، تحتمل الفراق ، وتحتمل الذل ، ذل من علمتني منذ طفولتي أن أكرهه !

سخر اليهود من صورتك بالرشاش يا يوسف .
ضحكوا
سألوا عن بطولتك يا بطل .
قالوا ، أين هو هذا الذي يحارب في الصورة .
أين بطلك يا سيدة ؟
لو عرفوا من أنت ، لو عرفوا كم مرة أذقتهم الهزيمة لما سخروا .
لمَ ذهبت يا يوسف ، يا حبيبي .
كيف تتركني ...
لم لا تنهض من موتك لتدافع عني أمام ذلك الذي مد يده إلي يريد أن يتحسسني ؟
أين أنت لتدفع اليد التي أمسكت بي تحت تهديد المسدس ؟
أنا لم يمسني أحد إلا أنت ...
كيف مسني هذا القذر ؟
أين أنت لتدافع عني .
ألم تفكر فيّ وأنت تطلب الموت . ألم تعرف أن من احتل المدينة ، والحارة ، سيحاول أن يحتل منزلك ، ويضع يده مكان يدك .

كيف تتركنا يا يوسف ؟

ألم تعدني . ألم تقسم لي . ألم تؤكد لي يوم خرجت من المستشفى بعد زواجنا بأشهر قليلة أنك لن تموت ؟

كيف مت ؟
كيف ؟ ..
ألم تقل لي أنك أقوى من الموت ؟
لم طلبته ؟ لم أصررت عليه ؟ ألم تعش المعركة ؟ ألم تنته المعركة وأنت حي ؟ لم أردت أن تموت بعدها ؟

طفلك الذي لم يجئ إلى الدنيا إلا بعد أن كدنا نيأس من مجيئه ، على من تركته ؟
لتسقط ألف قدس ، وتبقى أنت . أنت قدسي . حجارة المدينة السوداء لا تهمني . بلاط الحارة الأملس لا يعنيني .

ألم تكن رفقتنا ، كما قلت ، رفقة حياة أو موت .
فكيف تموت وحدك . كيف ؟
للمرة الأولى تكذب علي . ما عرفتك إلا صادقاً .
أنا خائفة يا يوسف .
منذ عرفتك لم أعرف الخوف . ليلة عرفتك ، وأخذتني بين ذراعيك ، وقبلتني ، كنت خائفة . قبلتك طردت الخوف .

المطر الليلة يخيفني ...
أين صدرك أنام عليه ؟
أتذكر يايوسف ، أتذكر الليلة الأولى للقائنا ، وكيف حماني صدرك من الخوف .
أين صدرك يحميني الليلة ؟
المطر لا يريد أن يتوقف الليلة يا يوسف ...
في حياتي لم أر مطراً كهذا .

هل هي دموع ... الله .
هكذا كانت أمي تقول لي وأنا طفلة ، كانت تقول أن المطر هو بكاء الله حزناً على خطايا عباده .
هل ازدادت خطايانا يا يوسف ، حتى يكثر الله من بكائه . لا أستطيع أن احتمل المطر ...
أريد أن أعود إلى غرفة مكتبك ، إلى حيث علقنا صورتك الكبيرة .
أريد أن أجلس أمامها ، وأبكي .
لو ذهبت الآن ، وبكيت ، لشعرت أن بكائي هو بكاء المطر ، لا بكاء من أجلك .
حتى صورتك أحن إليها الآن .
لم أتركها إلا منذ ساعة يوم بدأ المطر ...
ظننته لن يستمر ساعة . انه يستمر كأنه لن يتوقف ابداً .
سأعود إلى صورتك . سأجلس امامها . وسأبكي . هناك لن أبكي من المطر . سأبكي من أجلك . سأبكيك .

سأغلق النافذة الآن . لن استمع إلى صوت المطر . سأذهب اليك . إلى صورتك . اعذرني إذا تأخرت . غريمك في بكائي هذا الماء المنسكب من السماء .

كلانا يبكي الليلة . أنا ... والله !

* * *

صورتك الليلة تبتسم !
لم تبتسم يا يوسف ؟
جبار أنت . كم مرة كنت تبتسم كي تخفف عني ، وفي أعماقك بكاء الثكالى .
ابتسامتك الآن ، تشبه ابتسامتك يوم قال لنا الطبيب أننا لن نرزق باطفال .
ابتسمت يومها . ابتسمت لي . مع أنني اعرف ماذا يعني الأطفال بالنسبة اليك .
الم تقل لي قبل عشرة أعوام عندما تزوجنا ، انك ستموت ان لم يرزقك الله بطفل .
لا دخل لله في الأطفال . المشكلة كانت فيّ انا . قال لك الطبيب ذلك . قال اني عاقر . أو شبه

عاقر . ومع ذلك ابتسمت . ابتسمت لي انا السبب في حرمانك من الأطفال .

طول مدة ترددنا على عيادات الأطباء ، في القدس ، ثم بيروت ، ثم القاهرة ، ثم باريس فلندن فنيويورك . كنت دائماً تبتسم عندما يقول لك الطبيب ، أكبر طبيب في المدينة ، انني عاقر او شبه عاقر .

لم تبتسم قط عندما اخبرتك انني حامل في بروكسل !

يومها لم تكن في حاجة إلى الابتسام . لم تكن في حاجة إلى التخفيف عني . ما قاله الطبيب كان كافياً .

لم تبتسم الليلة يا يوسف .

هل سمعت ندائي . هل سمعت ما قلته . هل اغضبك أنني غاضبة لأنك تركتنا ؟

يوسف . ابتسامتك ، هذه المرة فقط لن تخفف عني .

لا شيء يخفف عني .

توقف عن الابتسام .

سأهشم الصورة ان لم تتوقف عن الابتسام .

شكراً !

لقد ماتت الابتسامة .

عدت ، كما كنت ، عابساً .

لكن ، كيف استمعت الي .

هل يسمع الأموات ؟

يجوز ، إذا كان الذي يتحدث اليهم ميتاً مثلهم .

كلانا ميت ... يا يوسف !

انت ميت حيث انت ، وانا ميت حيث تركتني ...

هل نستطيع ، انا وانت ، ان نعبر الحدود .

ان نوحد ميتتنا ...

لكنني لا أحمل شهادة وفاة ...
تذكرت الآن ، أنت أيضاً لا تحمل شهادة وفاة .
أنت في عرف الدولة الجديدة لم تمت .
الطبيب الذي يوقع هذه الشهادة مات قبلك بساعة .
اطلق عليه اليهود الرصاص من الخلف وهو يحاول أن يسعف جريحاً في الشارع .
عندما يموت الناس بالعشرات والمئات ، لا أحد يسأل عن شهادة الوفاة .
قرأت مرة ، أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى كان مئات الموتى يُدفنون في قبر واحد ، كان الموتى يمتزجون ، كما يمتزج الأحياء في شارع مزدحم .

قبرك ... يقف وحده مع علامة بارزة .
دائماً ، كنت تكره الازدحام ، حتى وأنت تقود السيارة ، لذلك لم نشأ ان تهجع هجعتك الأخيرة مع غيرك من الهاجعين .

لمَ عدت إلى الابتسام ؟
تشكرني ؟ ...
تشكرني لأنني انقذتك من الازدحام .
وددت لو كنت مكانك في وحشتك .
لم تخبرني بعد .
كل ليلة أسألك .
كيف تقضي أوقاتك ؟
من يسليك في الليالي الطويلة ؟
كيف تمضي الليل حيث تركناك في العتمة ، وأنت الذي لا تحب الظلمة ؟
بمن
من الذي يستمع إلى ندائك حيث أنت عندما تطلب مزيداً من الأضواء ، مزيداً من النور ؟
يخيل إلي أنك تكاد تختنق

ليتني معك يا حبيبي لأضيئ لك النور ، لافتح لك النافذة ، لا ستجيب إلى صراخك .
أنا متعودة صراخك ...
لا أحد في الدنيا يستطيع أن يهدئ أعصابك عندما تثور إلا أنا .
أنا ، الوحيدة في الدنيا التي تفهمك .
تعلمت أن أفهمك من رفقتنا الطويلة .
رحلة العمر التي عشناها معاً .
هذه الرحلة الطويلة ، القصيرة في عمر حبنا .
كل ليلة أذكر هذه الرحلة .
كل نهار أذكر هذه الرحلة .
كل لحظة أذكر هذه الرحلة .
اتذكر بداية الرحلة ، اتذكر الليلة الأولى التي تقابلنا فيها .
اتذكر كيف هرعت اليك ساعة انهمر الرصاص تماماً كالمطر ، وكيف تلقفتني بين ذراعيك ، ثم احطتني بساعديك ، ثم ... ثم ... شددتني اليك ، وقبلتني .

قبلتي الأولى . أول رجل غريب في حياتي يمنحني بشفتيه الدفء والاطمئنان .
يومها احببتك ...
كنت اول حب في حياتي ... وكنت آخر حب .

في تلك الليلة أيضاً كانت السماء تمطر . كنت خائفة . ولم تكن امي في المنزل لتحميني بصدرها . ذهبت امي ذلك اليوم إلى عند شقيقتها في رام الله .

كانت الليلة الأولى في حياتي التي تمطر فيها السماء وامي بعيدة عني . اذهب معها . كنت مصابة بزكام وأصر والدي على أن لا أخرج من المنزل وأن أبقى معه كي « اسليه » كما قال ، في غياب والدتي .

وبقيت مع والدي « اسليه » حتى دب النعاس في عيني فذهبت إلى النوم .

ايقظني المطر . بكيت . بكيت طويلاً . لم تكن امي بجانبي كي أختبيْ في صدرها من المطر . لم تكن امي بجانبي لتقول لي : كبرت على هذا ياأسمى ُعليك أن تتعودي النوم وحدك في المطر . لقد اصبحت كبيرة يا اسمى .

لن أكبر يا أماه ، كبيرة على كل شيء الا المطر ، يا أماه .

والدي لن يأخذني إلى جانبه لو ذهبت إليه . منذ أن وعيت الدنيا لا اذكر انني نمت في حضن والدي . كنت احب والدي . واخافه . لست أدري لماذا كنت أخافه ، لم يضربني مرة واحدة ، لم يعنفني مرة واحدة كما يفعل مع اشقائي الثلاثة ، لم يصرخ في وجهي مرة واحدة . ومع ذلك كنت اخافه . وأحبه .

المطر لا يريد أن ينقطع هذه الليلة . وقررت أن أذهب إلى والدي . سأندس إلى جانبه في السرير سأتخيل أنه أمي . سأنام معه حتى ينقطع المطر .

لكن والدي لم يكن في سريره . لمحته فوراً يجلس في الصالون عندما فتحت باب غرفتي وكان يلف نفسه بعباءته الكبيرة . ولم يكن وحده ... كنت أنت معه .

أنا أعرفك من الحارة ، انت ابن جارنا الذي مات قبل عام . انت صاحب أكبر دكان في الحارة. ورثت الدكان عن والدك . تركت المدرسة ، كما قالت والدتي لوالدي لتدير الدكان . أنا أعرف دكانك . من هناك كنت اشتري الحلوى ، وكانت أمي تشتري كل شيء .

والدك المرحوم كان يدلعني كلما ذهبت لشراء الحلوى ، أما انت فلم تدلعني مرة واحدة ، كنت عابس الوجه . كنت دائماً مهموماً . كنت دائماً تفكر . كنت آخذ الحلوى وأضعها في جيبي الصغير ، ثم أضع النقود أمامك فتضعها أنت في الصندوق دون أن تنظر إليّ .

كرهتك . أنا لا أحب الناس الذين يدلعونني . كنت جميلة ، وكان أهل الحي كلهم يدلعونني . إلا أنت .

مرة طلبت من أمي أن لا تشتري من عندكم . قلت لها ان تشتري من الدكان الآخر . ضحكت

أمي يومها عندما اخبرتها عن السبب . قالت أنك عابس ومهموم لأنك فوجئت بمسؤولية الدكان ومسؤولية عائلتك وأنت صغير. مات والدك فجأة ، فورثت المسؤولية فجأة . قالت أنك كنت تريد أن تكمل دراستك ، ان تصبح طبيباً مثل عمي فؤاد لكن موت والدك قضى على كل هذا .

مع ذلك ، مع كل ما قالته والدتي بقيت أكرهك .
الليلة كرهتك أكثر .
ها أنت تجلس مع والدي فتحرمني من النوم بجانبه في المطر .
ما الذي جاء بك في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟
جميع أهل الحارة نائمون .
لم لا تذهب لتنام ، وتدع والدي ينام .
وقفت اراقبك من باب غرفتي . دموعي جفت وأنا أنظر اليك . لم أشعر بالبرد وهو يلسع قدمي العاريتين ، نسيت المطر ، نسيت النعاس ، ووقفت انظر اليك .
الا تشعر بالبرد ؟ قميصك مفتوح . صدرك عار . ثم ، لماذا تدخن هكذا ، تولع سيجارة من سيجارة . والدي لا يدخن إلا سيجارة في اليوم بعد العشاء .

ولم لا تتوقف عن الحديث .
منذ أن فتحت باب غرفتي وأنت تتحدث . لم تتوقف مرة واحدة . .
والدي لم يفعل أكثر من هز رأسه وهو يستمع اليك .
وكنت تقول كلاماً غريباً عجيباً . لم تريد من والدي أن يقفل مطعمه ؟ ألا تعرف أن هذا المطعم الذي نملك هو الذي نعتاش منه ؟ هو الذي يدفع اقساط الجامعة عن شقيقيّ في بيروت . ويدفع أقساط المدرسة عني وعن شقيقيّ هنا . كيف نعيش إذا اقفل والدي المطعم ؟ أقفل دكانك الكبير إذا شئت . ولكن دع والدي وشأنه .
كنت تقول له : علينا جميعاً أن نضحي من أجل القضية ؟
أية قضية هذه التي تستأهل قطع أرزاق الناس ؟
وتابعت حديثك .

كلام كثير قلته لم أفهمه . كنت صغيرة يومها على فهم كل ما تقول .
سمعتك تذكر الحكومة والانكليز واليهود والعرب وفلسطين .
لم أجد يومها في رأسي الصغير رابطاً يربط بين هذه الكلمات .
وسمعتك أيضاً تذكر كلمة سلاح . توقفت كثيراً عند كلمة السلاح . تحدثت كثيراً ووالدي يصغي اليك كالمشدوه .

ارتفع صوتك وأنت تتحدث ، كنت غاضباً ، وانتقل الغضب من صوتك إلى عيني والدي .
نادراً ما كان يغضب والدي . لكنه عندما يغضب يتركز جميع غضبه في عينيه .
للمرة الأولى تحدث والدي ، سألك : هل تحدثت إلى جورج . وحنا . ومصطفى . وتابع يسمي جميع الذين يملكون متاجر ومحلات في الحي .
هززت له برأسك .
عاد يسأل : وبقية الأحياء ؟
قلت له : البلاد كلها ستغلق بعد أيام .
تغلق البلاد ؟
كيف تغلق ، أهي دكان حتى تغلق أبوابها ؟
ظننت ، بل ايقنت أنك مجنون .
كيف يصغي والدي إلى كلام مجنون ؟
تعبت من الوقوف . جلست على الأرض اتابع الاستماع ، قربت اذني من فتحة الباب حتى أسمع جيداً .

آه ... اخيراً قلت كلمة حلوة .
« والمدارس أيضاً ستغلق » . « كل شيء سيغلق » .
لا يهمني كل شيء ، تهمني المدارس .
اتعني أننا لن نذهب إلى المدرسة بعد أيام ؟
اجازة ؟

لكن موعد الاجازة بعد أسابيع . مستحيل ، لن تغلق المدارس . الدكاكين ، يجوز .
صاحب الدكان يقفل الباب بالمفتاح ، ويضعه في جيبه ، وانتهى الأمر .
أما المدارس ؟
المعلمات والمعلمون ، والمديرات والمديرون ، ومئات التلاميذ أين يذهبون ؟ من يغلق المدارس ؟
مفاتيح المدارس ليست بيد أحد .
غداً سيكتشف والدي إلى أي مجنون كان يتحدث .
غداً عندما تفتح المدارس والدكاكين سيضحك والدي لأنه أضاع ساعات نومه بالاستماع إليه .
الحمد لله . تثاءب والدي . بدأ النعاس يدب في جفونه . والدي لا يقوى كثيراً على السهر .
انه يتعب كثيراً في أثناء النهار .

لكنك لم تلاحظ ذلك . لم ترحمه ، كان ما تقوله أهم من نومه . تابعت حديثك . صوتك يعلو ويهبط ، خيل إلي للحظات أنك لم تعد انساناً ، انساناً ، لقد تحولت إلى راديو يتحدث باستمرار راديو أعمى وأطرش ، لكن لسانه طويل .

تباً لك ، لم لا تذهب إلى منزلك وترجئ حديثك إلى الغد .
أنت تمنعني أيضاً من النوم . لا يهمني المطر . أريد أن أعود إلى فراشي . لقد كبرت على المطر .
على الخوف من المطر . لا حاجة بي إلى صدر أمي . لكنك تمنعني من العودة إلى الفراش . أريد أنا أيضاً ان استمع إلى حديثك .

اكرهك . ألم أخبرك أنني أكرهك منذ زمن طويل . حتى قبل أن تستلم دكان والدك . عندما كنت أنا طفلة كنت أكرهك .

كنت صغيرة جداً . وكنت طويلاً جداً . كنت وما زلت عملاقاً . حتى اليوم وقد مرت على طفولتي أعوام طويلة ما زلت اطول مني بكثير .

لا أحب الذين يشعرونني بأنهم أكبر مني بكثير . أنت تشعر جميع الناس بأنك أطول منهم بكثير .
لم لا تحني ظهرك عندما تمشي .

لماذا تنفخ صدرك كالديك ، أتريد أن تزيد طولك طولا .
وصوتك ، لماذا يبدو كأنه ثلاثة أصوات معاً . حتى صوتك يشبه طولك . انه كبير مثلك .
نشكر الله على أننا نعيش في منزلنا القديم وحدنا وإلا كنت الآن قد أيقظت الجيران حتى ولو كان صوتك همساً .

ثم ، لماذا تقطب جبينك دائماً . لمَ هذا الوقار . أنت لم تزل صغيراً على ذلك . أتظن أن العبوس الدائم يعطيك مظهر رجولة . كلنا نعرف ، كل أهل الحارة يعرفون أنك لم تبلغ العشرين من عمرك الا قبل أيام . أنت لا تكبرني إلا بستة أعوام وهل هذا يعطيك الحق في أن تعبس في وجهي كلما ذهبت لشراء الحلوى من عندك .

اسمع يا هذا أتعرف أن غيرك من شبان الحي ، بل كلهم بلا استثناء ، يسمعونني عبارات الاعجاب كلما مررت من أمامهم . أنا أجمل فتاة في الحي ، أتسمع ، أنا أجملهم . ابتسم على الأقل عندما تراني . لا أريد أن تسمعني عبارة اعجاب كما يفعل غيرك . ابتسم . ابتسم فقط . يوماً من الأيام سأجبرك على الابتسام . سأدير لك رأسك غصباً عنك .

ماذا تقول ؟
لو لم ينجح الاضراب اضطررنا إلى اعلان الثورة ...
الذي يسمعك تتحدث هكذا يظن أنك زعيم خطير .
قبل سنوات قليلة فقط كنت تلبس البنطلون القصير . وكان منظرك بالبنطلون القصير مضحكاً .
كنت طويلاً جداً على بنطلونك القصير ، كان يجب أن تلبس البنطلون الطويل منذ أن ولدت .

أوتظن ، الآن لأنك لبست البنطلون الطويل ، وطلع لك شارب قصير قصير يدعو أيضاً إلى الضحك ، ان في استطاعتك الدعوة إلى الاضراب والثورة .

دع ذلك للرجال .
قم الآن ، قم واذهب للنوم ، ودعنا نم .
إذا لم تقم الآن . فوراً . نهضت من مكاني لأطردك .

حتى ولو غضب والدي ، سأطردك . سأنتظر حتى تنتهي السيجارة التي أشعلتها الآن . فإذا لم تنهض طردتك .

يجوز أن تدعو إلى اغلاق الدكاكين كي تسهر طول الليل وتنام طول النهار ...
كل هذا الكلام الفارغ الذي قلته الليلة ما هو إلا لايجاد العذر لك لتنام طول النهار .
أؤكد أن عقلك كمنظرك غير طبيعي .
كل الناس يقولون أن « الطويل هبيل » .
وأنت أطول من في الحي لذلك أنت « أهبلهم » .
لم ابتسم . يجب أن لا ابتسم . أنا غاضبة .
أعجبتني كلمة « هبيل » .
ترى هل ينطبق ما يقال عن طوال القامة ، عليك .
ولكن ما لي ، ولك ، إذا كنت « هبيلاً » أم لا ؟ ..
هل أنت شقيقي ، ابن عمي ، قريب لي ؟
كل ما أريده منك أن تذهب وتتركنا لننام .
لا أستطيع أن أنتظر أكثر من هذا .
لم يعد يهمني حديثك .
أريد أن أنام .
ان النعاس يزحف إلى عيني .
انني افتحهما بالرغم مني .
ان جفوني تسقط ، اني تعبة . ولكن لم لا أذهب لأنام . لم لا أدع الرجلين وحدهما يتناقشان حتى الصباح .
المطر قد توقف
وأنا لست خائفة . حتى لو هطل المطر من جديد فلن أخاف . .
ولكن هناك كثيراً من الأشياء أريد أن أفكر فيها ، بعدما سمعت حديثك مع والدي .

اغلاق الدكاكين . المدارس . الاضراب ، أشعر الليلة بأنني كبرت سنوات كثيرة .حديثك بالرغم من كرهي لك يجعلني أفكر فيه .

سأنام . سأنام . ليذهب إلى الجحيم . ليسهر مع والدي ما شاء له السهر ، أما أنا فسأنام .

استيقظتُ مذعورة .
صرخت :
هل أنا في حلم . لا .
انني أسمع ضجة في الشارع ، أصوات أناس يتراكضون . ثم ... ثم ... صوت رصاص . صراخ . وصرخت ... وهربت من فراشي وأنا أصرخ . وفتحت باب غرفتي . وكنت واقفاً هناك في الصالون تطل مع والدي من النافذة لترى ما حدث .

ودون أن أشعر لم أتجه إلى والدي . ركضت إليك ، إلى العملاق الطويل الواقف هناك كالمارد . وأخذتني بين ذراعيك . ضممتني إلى صدرك .
وابتسمت .
نعم ، ابتسمت لي .
لأول مرة أراك تبتسم . ابتسامة واثقة أعادت إلى قلبي بعض الطمأنينة . ومسحت دمعي بيدك الكبيرة .

ثم قربت شفتيك وقبلتني . قبلتني في جبيني .
وكانت أول قبلة في حياتي من رجل غريب .
كم بقيت بين ذراعيك ، لا أدري .
أحببت البقاء بين ذراعيك . صدرك العريض كان يحميني . لم يعد يخيفني صوت الرصاص .
كنت أقوى من الخوف . وأقوى من الرصاص .

غفوت على صدرك ... ولم أستيقظ إلا وأنت تضعني على السرير ، ووالدي يضع الغطاء فوقي . رأيت وجهك من خلال الظلام . في عينيك كان حنان لم أره من قبل . وجهك لم يكن عابساً

لم يكن مهموماً . وقبل أن تسحب وجهك من أمامي ، فوجئت بي أرفع رأسي وأرد لك قبلتك .

أنا أيضاً قبلتك تلك الليلة . دافع غريب جعلني أفعل ذلك . قوة أكبر مني . أردت أن تلمس شفتي وجهك . أردت أن أشكرك . أردت أن أعبر لك عن شعور لم أفهمه .

ولم أنتظر حتى أرى وقع المفاجأة عليك ، وعلى والدي ، بل اغلقت عيني ، ورحت في سبات عميق ، لاحلم بك .

نعم ، حلمت بك تلك الليلة .
حلمت أننا ذهبنا كعادتنا كل صيف لنقضي الاجازة على شاطئ البحر في يافا . وكنت أنت معنا . استغربت وجودك معنا . سألت والدتي . لم تجبني . ابتسمت . عدت أسألها . عادت تبتسم . سألتها بالحاح . أجابت : عندما تكبرين تفهمين .

لم أكن غاضبة لأنك كنت معنا . كنت فرحة . شعرت أن هذه احلى اجازة صيف سأقضيها في يافا .

وذهبت معنا إلى شاطئ البحر . وجلست معنا على الشاطئ . ولم تنظر إلى الماء الأزرق كما كنا ننظر . كنت تنظر إلي طول الوقت . كنت تبتسم لي . سعيدة كنت أنا بابتسامتك . نسيت كل شيء إلا ابتسامتك . لم تأكل عندما أعدت أمي الغداء . بقيت تبتسم لي . طول النهار وأنت تبتسم لي .

وفجأة . غابت الشمس . وأظلمت الدنيا . ونظرت إليك فلم أجدك . ونظرت حولي فلم أجد عائلتي . كنت وحدي . شعرت بخوف . اجتاحني ذعر . حاولت أن أنهض من مكاني فلم أستطع حاولت أن أركض فوجدتني مسمرة في الأرض . نظرت إلى البحر فإذا بالموج يعلو وكأنه الجبال . ثم بدأ الموج يقترب مني . صرخت ناديتك . ناديت : يا يوسف . يا يوسف . ماما . ماما . لم تجبني . لم تجب والدتي . لم يجب أحد . واغرقني الموج . حاولت الخلاص ... يداي أيضاً لم تتحركا صليت : يا رب .. يا رب .. صرخت . ناديتك من جديد . لم أستطع أن أتنفس . المياه تغرقني . تغرقني . سأموت . سأموت . نعم سأموت .

ناديتك ، قلت : يا يوسف لا أريد أن أموت .
وفجأة رأيتك أمامي . يدك الكبيرة امتدت لتأخذني من خلال الموج . كنت تبتسم وأنت تنقذني . وارتميت على صدرك أبكي . ولم أهدأ إلا عندما مسحت بيدك الكبيرة دمعي . وقبلتني . تماماً كما حدث في الليل .

وقلت لي : لا تخافي لا تبكي ، ما دمت موجوداً فلن تعرفي الخوف ولا البكاء .

أين أنت الآن يا يوسف ؟
أين أنت الآن يا حبيبي ؟
لم تخبرني ماذا أفعل عندما لا تكون « موجوداً » ؟ .
اليوم ، الليلة ، كل يوم ، وكل ليلة ، أعرف البكاء والخوف .
أين أنت لتحميني ؟
يا رجلي .
أيها الماسح بيدك الكبيرة كل خوفي .
من بعدك سيمسح عني الخوف يا يوسف ؟
ان صورتك لا تبعث في الشجاعة . انها تبعث في الحنين . الحنين اليك .
من هذا ... من هذا ؟
ـ هذا أنا يا ماما . لم تركتني أنام لوحدي . أنت تعرفين أنني أخاف من المطر . ألا تسمعين صوت المطر ؟

ـ طبعاً . اسمع يا حبيبي . لكنني . كنت أجلس هنا مع والدك .
ـ مع والدي ، أين هو . هل عاد من السفر ؟
هذا ابنك يا يوسف .
انه يسأل عنك .
كيف تتركه . يا يوسف .

ـ لا ياصغيري ، لم يعد والدك من السفر . كنت أجلس مع صورته .
ـ لماذا تضعون قماشاً أسود حول صورته يا ماما ؟
يوسف . لا أستطيع أن اتحمل . أجب . أجب هذا السؤال . كل يوم لطفلك سؤال جديد .
ابنك يكاد يكذبني يا يوسف . يكاد يقول لي : أنت تكذبين علي . أبي ليس مسافراً . أبي ذهب ولن يعود .
أجب . أجبه يا حبيبي . في حياتك عندما كنت أعجز عن اجابته كنت ارسله اليك . إلى من ارسله الآن .
لا تنظر إلي هكذا يا يوسف . أجب . تكلم . تكلم .
رحمتك يا أرحم الراحمين .
رحمتك يارب .
ـ تعال .. تعال يا حبيبي ، سأنام بجانبك كي لا تخاف من المطر ، غداً سنزيل السواد من حول صورة والدك . وضعته الخادمة بالغلط .

غداً سنزيله يا يوسف . يجب أن لا يلف السواد وجهك . الناس كل الناس في القدس يقولون أنك لم تمت . انك حي . انك استشهدت.انك بطل . والأبطال لا يموتون .

آه .. لو عرفوا أن كل بطولتك لا تعوض علي لمسة كفك الآن .

ـ تعال يا حبيبي .
قدمي باردة يايوسف .
جسدي بارد يايوسف .
في حياتك لم أشعر بالبرد . نفسك كان يبعث في جسدي الدفء . كنت أضع قدمي الصغيرتين على قدميك فأشعر بالنار تدب فيهما .

كل ليلة لا أستطيع أن أنام يا يوسف . فراشي صقيع يا أجمل الرجال . نهاري عذاب . ليلي عذاب .

لم جعلتني أحبك حتى العبادة ؟ ألم تكن تعرف أنك ستذهب ؟ لم جعلت حياتي سلسلة متصلة من السعادة ؟ حتى وأنت تحارب كنت تعرف كيف تجعلني سعيدة بحربك . كنت عندما تغيب في معركة ، وتعود منتصراً ، تجعلني سيدة نساء الحي ، أنا . سلمى زوجة البطل . زوجة بطلكم يا أهل الحي . ذهب وعاد منتصراً . كنت عندما تعود من معركة وتخبرني بما فعلتم ، وكيف قاتلتم وانتصرتم ، ثم تخلع ثيابك لتنام بجانبي ، أشعر أنني بجانب بطل من أبطال الرومان الذين كنت أقرأ عنهم في المدرسة .

اتحول ، وأنت تحبني في الليل ، إلى امرأة كتلك اللواتي كن يهبن السعادة لأبطال روما العائدين . كنت أعطيك نفسي ، كما يجب أن يكون العطاء ، لبطل ، لا لرجل عادي .
لكن ما نفعتنا بطولتك ؟

الجبناء ينامون الآن بجانب زوجاتهم وأطفالهم .
ليتك كنت جباناً .
ليتك لم تحب القدس .
ليتك لم تحب حارة النصارى .

ليتك كنت كأولئك الذين ذهبوا ليسلموا على ضباط الاحتلال « ويهنئوهم » بسلامة ...الوصول
انني أراهم ، كل يوم يمشون في الشارع بلا خوف .
حياتك ذهبت فداء ... لخونة يا يوسف .
انهم ، لا يستأهلون .
لا أحد يستأهل .

القدس لا تستأهل ، ولا حتى حارة النصارى .
لا ... لا تغضب مني . لو عشت حتى الآن لعذرتني . لفكرت كما أفكر .
الأحياء هنا لا يستأهلون موتكم . دمك ، ودم رفاقك ذهب رخيصاً .
الألوف الذين ماتوا من أجل فلسطين منذ نصف قرن كان يجب ألا يموتوا .

خسارة كانت أرواحهم . دماؤهم ذهبت هدراً يا يوسف .
الذي دفع الثمن نحن ، الأرامل ، وأطفالنا الأيتام .
بعت دكانك أمس يا يوسف ، لأعيش ، لاطعم طفلك .
غداً سأبيع البيت .
غيري ، من نساء رفاقك ، بعن ما هو أغلى من ذلك بكثير .
كل ما قلته لي عن الأرض ، والوطن ، والفداء ، والتضحية ، كلام فارغ يا يوسف .
شعرة منك تساوي كل أوطان الدنيا .
كن بجانبي الآن ولتذهب القدس إلى الجحيم .
انها تمطر في الخارج يا يوسف . المطر يبلل قبرك . أين أنت لأشدك إلي في المطر . سأشد ابنك . سأشد . سأشد رجلي الصغير . وعندما يكبر سأخبره أن لا يموت مثلك . سأعلمه أن يعيش . ويكبر ، ويشيخ ، ويموت على فراشه ، كأولئك الذين تسميهم : جبناء .

تعال ، تعال يا يوسف الصغير . تعال أنم على صدرك .

- اسمك ؟
- سلمى ...
- سلمى ماذا ؟
- سلمى راشد ...
- أنت تعيشين وحدك هنا ؟
- نعم ، مع طفلي ...
- ما اسمه ؟
- رجاء ...
- وزوجك ؟
- مات ...
- متى ؟

ـ في الحرب الأخيرة ...
ـ آه ... في أي يوم ؟
ـ لماذا تريد أن تعرف أي يوم . ألا يكفي أن تعرف أنه مات .
ـ تعليمات مدام . تعليمات الحكومة .
ـ لتذهب أنت وحكومتك إلى الجحيم .
ـ لا . لا تتكلمي هكذا مدام . نحن هنا نساعدكم .
ـ لا نريد مساعدتكم ، نريدكم أن ترحلوا .
ـ ها . ها . منذ ألفي سنة ونحن نحلم بأورشليم ، وبعد أن نأخذها ، نرحل .. ها .. ها ..
ـ أرجوك أن تكتب معلوماتك ، وتذهب .
ـ عليك أن تساعديني .
ـ ماذا تريد ؟
ـ في أي يوم مات زوجك ؟
ـ في الثامن من حزيران .
ـ ما اسمه ؟
ـ اسمه يوسف . يوسف راشد .
ـ آه ، أنا أعرف زوجك .
ـ تعرف زوجي ، زوجي لم يكن يعرف أحداً منكم .
ـ أعني كنت أسمع به ، نحن اليهود كنا نخاف من اسمه سنة ٣٦ وسنة ٤٨ . زوجك كان شجاعاً يا مدام ، أنا أحترم الشجعان . خذي هذه ورقة احصاء من حكومة اسرائيل .
ـ لا أريد ورقة من حكومة اسرائيل ، سأمزقها .
ـ أنت حرة !

فخورة أنا بك يا حبيبي . حتى اعداؤك يعترفون بشجاعتك . حتى جنود الاحتلال يذكرون اسمك . انهم يحصوننا يا يوسف . سمعت يا يوسف . لن يرحلوا عن القدس . سيبقون هنا . كما

كنت تقول لي دائماً أن هدفهم الأكبر القدس . لقد نالوا هدفهم ، لكن على جثتك .

المدارس فتحت أمس فقط يا يوسف . كانت مضربة . أجبروها على أن تفتح . ابنك لا يريد أن يذهب إلى المدرسة . انه مثلك عنيد . انه يشعر بان شيئاً ما قد تغير في القدس . في الحارة . انه يرى الجنود يملأون الشوارع ، جنوداً غرباء،لغتهم غريبة على اذنيه . قال لي أمس أنه يكرههم . لا يريد أن يراهم . بالفطرة يكرههم . بالغريزة . منذ الصباح وأنا أحاول اقناعه،لكن عبثاً . سأكذب عليه . سأقول له أنك اتصلت بالهاتف وقلت أن عليه أن يذهب إلى المدرسة . أنت الوحيد الذي لا يعصى لك كلمة . سأكذب عليه . يجب أن يذهب إلى المدرسة .

ـ ماذا تريد ، لا يوجد رجال في المنزل ؟ .

ـ اعرف أنه لا يوجد رجال ، لكن يجب أن نفتش المنزل .

ـ تفتشون المنزل ؟

ـ نعم ...

ـ بحثاً عن ماذا ؟

ـ ها . لا تعرفين بحثاً عن ماذا ؟ بحثاً عن الأسلحة .

ـ لاأسلحة هنا .

ـ أنت تكذبين ، من الأفضل أن توفري على نفسك وعلينا العذاب وتدلينا على مكان الأسلحة .

ـ قلت لك لا أسلحة هنا .

ـ بيت يوسف راشد ، ولا توجد أسلحة ، ها ؟

ودفعني الضابط الاسرائيلي جانباً ودخل .

وفي خلال دقائق كان المنزل كله قد انقلب رأساً على عقب . هم يفتشون . وأنا أصرخ بهم أن يتوقفوا. لا أسلحة هنا ، قلت لكم . لا أسلحة .

ودون فائدة .

بح صوتي وأنا أصرخ . لكن لا من مجيب .

ـ قلت لكم ،أنني أعرف ماذا يوجد في منزلي . لا توجد اسلحة هنا ...

لكنهم وجدوا أسلحة يا يوسف .
يا يوسف . اقسم لك أنني لم أكن أعرف أن في المنزل سلاحاً .

رشاشك اختفى يوم قتلت . كان معك عندما خرجت ولم تعد إلا جثة هامدة . ولم يعد هو معك . سرقه من قتلك .

من أين كل هذه الأسلحة التي وجدوها في الحديقة ؟ لم أرك منذ زواجنا تدخلها إلى المنزل . لم تخبرني عنها أي شيء .

عندما اكدت للضابط والجنود عدم وجود أسلحة في المنزل لم أكن كاذبة . لكنني كنت في نظرهم كاذبة . وأرادوا أخذي.كادوا يسوقونني أمامهم إلى السجن يا يوسف . ولولا تدخل بعض « العقلاء » من أهل الحي ، « العقلاء » الذين أنشأوا صداقات مع جيش الاحتلال لكنت الآن أخاطبك من السجن يا حبيبي .

ابنك لم يخف من الجنود . غريب أمره . لقد وقف يمسك بيدي وهو ينظر إليهم بتحد غريب في اثناء التفتيش . شعرت في لحظة من اللحظات أن هذا الطفل الصغير الواقف بجانبي ليس بطفل . شعرت بأن قامته قد كبرت ، شعرت فجأة أنه قد أصبح رجلاً . وانه سيحميني من أي اعتداء . انه صورة منك يا يوسف . اشعر احياناً بأنك لم ترحل . وان الذي حدث هو أنك صغرت في الحجم . وأنك فجأة ستكبر من جديد .

لو اختصر الله السنوات بلحظات ، وكبر ابنك رجاء فجأة . لقلت انه أنت عاد من رحلة الموت . أتذكر . أتذكر كم شقينا حتى أنعم الله علينا به . أتذكر فرحتك يومها . أتذكر أنك وزعت نصف ما في دكانك على الفقراء مجاناً عندما أخبروك أنك رزقت « بولد » .
الحارة كلها عيدت تلك الليلة .

شهر كامل ، بأيامه ، ولياليه ، لم ينقطع سيل المهنئين ، من الحارة ، من الحارات الأخريات ،

من المدن الأخرى . وجوه كثيرة غريبة لم أرها في حياتي . كلما سألتك عن أحد تبتسم وتقول . انهم رفاق سلاح .

أي سلاح ؟

لم تجبني .

أي سلاح هذا وقد ألقيناه منذ سنوات طويلة .

أنت لم تحمل سلاحاً منذ عام ٩٤٨ .

لا أنت ولا أحد من رفاقك حمل سلاحاً منذ أن ضاع نصف فلسطين .

كدت تنتحر عندما فرض عليك أن ترمي السلاح .

كدت تنتحر عندما قيل لك ، لا ثورة ، ولا حرب بعد اليوم . هدنة ، قالوا لك يا يوسف . لا حرب .

جميع ما فعلت يومها ذهب هباء .

ضاعت اللد والرملة ويافا وعكا وحيفا و .. و ..

على صدري بكيت دمعاً ودماً عندما ألقيت السلاح .

الآن ، بعد عشرة أعوام ، تقول لي : رفاق سلاح .

ألم تنس السلاح .

ألم تنس المعارك .

دع كل ذلك كذكريات ترويها لابنك الوليد عندما يكبر .

قصصك أحلى من قصص عنترة ، وروبن هود .

ابنك لن يحتاج إلى قراءة قصص بطولات .

في جعبتك العشرات منها . المئات .

ابنك لن يقتله الملل . ستسليه قصصك .

أما آن لك أن تعترف ، بينك وبين نفسك ، أن ما ضاع من فلسطين قد ضاع ؟ .

كفاك تعذيباً لنفسك .

كفاك حديثاً لا يجلب إلا القهر والذل .

نحن ، شعب فلسطين انتصرنا . الذين خسروا المعركة هم العرب ، وجيوش العرب .
ما هذا الكلام الفارغ . المهم النتيجة . أين فلسطين الآن على الخريطة . أين يافا . أين حيفا . أين صفد . أين عكا . أين .. أين .. أين ؟

انها اليوم اسرائيل . تقبع على صدرك كالحقيقة .

كفاك كلاماً عن بطولات خضتها ، وخاضها شعب فلسطين . بطالات عام ١٩٢١ و ٢٧ و ٢٨ و ٣٣ ثم الثورة الكبيرة عام ١٩٣٦ .

بطولة شعب . ثورة شعب . نضال شعب . كنت تقول حين يكون الوقت ملائماً وحين لا يكون ما نفع كل هذا ؟

ان نصف شعبك يعيش تحت الخيام الان يستجدي لقمة . ليته لم يحارب ما دامت هذه هي النتيجة لن أدعك تحمل سلاحاً في حياتك . كفى أنني احتملت جنونك عام ١٩٣٦ ، وجنونك عام ١٩٤٨ . كفى .

أنت اليوم أب . أب لطفل عمره أقل من شهر . من أجله هو يجب أن تعيش . ومن أجله هو يجب أن تكافح .

وأنت أيضاً لم تعد صغيراً في السن . أيام رعونتك وطيشك ولت . ابنك أيضاً لن يحمل السلاح لن أريه سلاحاً طول عمره .

أنا الذي سيربي الطفل . وليس أنت .
ما أقنعتني به في فترة من الفترات لن أدع لك المجال لتقنعه به . لكني فشلت منذ أولى محاولاتي . لقد أحبك الطفل كما أحببتك أنا . لقد عبدك . أصبح بعد عامه الأول لعبتك المفضلة . وأصبحت أنت لعبته المفضلة . أتذكر كم تجادلنا لأمنعك من أخذه معك إلى الدكان كل يوم . أصبحت تأخذه وتجلسه على ركبتك أمام الدكان تتباهى به وتفخر أمام أهل الحارة .

كم مرة كنت أضطر إلى النزول إلى الدكان كي أطعمه عندما كنت تنسى ارجاعه . وكنت

أجدك قد اطعمته نصف « الشوكولاتة » الموجودة في الدكان .

تريده رجلاً قوياً ، كنت تقول ، تريده أن يكثر من الطعام كي يصبح عملاقاً مثلك .
وهو مثلك . ولد مثلك ، ولد أطول وأسمن من بقية الأطفال . أنه نسخة عنك . وهذا ما كان يزيد في تباهيك وتفاخرك . كنت أرى في عينيك أنك كنت تود لو تغمض عينيك وتفتحهما لتجده شاباً كبيراً .

لكن لم تنتظره . لم تره شاباً . ذهبت وهو لم يزل طفلاً في حاجة اليك . في أمس الحاجة اليك .
هل كانت القدس أعز منه ؟
هل كانت حارة النصارى أعز منه ؟
أي وطن وأية حارة أعز من ابنك . عشت معك أكثر من ربع قرن ومع ذلك اكتشفت بعد رحيلك أنني لم أفهمك . كان تفكيرك غريباً عني .

أنا أفهم أن يحب الانسان وطنه ، أن يقدسه ، لكن ليس إلى درجة الموت .
حتى عندما جرحت عام ١٩٤٨ ، لم أتخيل للحظة واحدة أنك ستموت .
لم أخف عندما قالوا لي أنك جرحت في باب الدار ، وانهم نقلوك إلى المستشفى .
ذهبت إليك يومها كأنني نازلة إلى الدكان .
هل زاد خوفي عليك ، ولهفتي اليك بعد ولادة الطفل ؟
هل أصبحت حياتك أغلى عندي بعد مجيئه ؟
أم هل فقدت شجاعتي التي كانت مدعاة اعتزازك ، بعد قدومه ؟ لست أدري .
كل ما أعرفه ، أنني أصبحت امرأة أخرى منذ اللحظة التي رأيت فيها وليدي بعد ساعات من ولادته .

أردت الاحتفاظ بك من أجله .
ونجحت ، منذ ولادته ، حتى قبل أشهر قليلة ، نجحت في أن أنسيك السلاح ، والمعارك ، والحرب ، وفلسطين والعرب واليهود .

نجحت ، أو ظننت أنني نجحت .
لم أكن أعرف أن تحت ذلك الرماد ناراً تشتعل في الداخل .
لم أكن أعرف أن صوت الطلقة الأولى أثار حواسك كما لا تثيرها أحب قطعة موسيقية إلى قلبك . الفرحة كانت تفور من وجهك . عدت شاباً في العشرين . وجهك ذكرني بالليلة الأولى التي رأيتك فيها تتحدث مع والدي .

كنت تقف أمام النافذة ، تستمع إلى دوي المدافع والنشوة تهزك هزاً .
كنت تلتفت إلي وأنا أحتضن طفلك المذعور من الدوي وتقول :
ـ أتسمعينني يا اسمى . المعركة . المعركة التي انتظرتها تسعة عشر عاماً . معركتنا . معركة الثأر . معركة تحرير فلسطين . شكراً لك يا رب . شكراً لك .

لم اكلمك يومها ، كان من العبث محاولة اقناعك . أنا اعرفك عندما تكون هكذا . انك تصم أذنيك عن سماع أي شيء إلا ما تريد أن تسمعه .

ـ يجب أن نجتمع يا .. يجب أن نذهب كلنا ، كل شباب الحارة ونطلب السلاح من الحكومة . يجب أن نشترك مع الجيش في المعركة . هذه معركتنا كما هي معركته .

وتركتني لتنزل إلى الحارة . في لحظات كان شباب الحي كلهم يجتمعون حولك في الدكان . كنت الزعيم . ولم تزل الزعيم . كنت البطل ، وإلى من سوى البطل يذهب الناس في المعارك .

* * *

كنت حزيناً عندما عدت بعد ساعات . كنت مهموماً . حتى ابنك لم تقبله كعادتك .
لم يعطوك سلاحاً . لا يريدونك ـ كما ظننت ـ أن تشترك في المعركة . أنت تفضل أن تموت على أن لا تشترك في المعركة . المعركة التي ظننتك ـ ويا لبلاهتي ـ قد نسيتها.فإذا بها في دمك . فإذا هي دمك نفسه .

يومها لم أفهم عندما قلت : لكننا سنحارب ، لدينا سلاح .

من أين أتيت بالسلاح ؟ لا أدري . وكيف أدخلته خلسة إلى المنزل ؟ لا أدري .
كل ما أعرفه ، وأذكره . أنني استيقظت صباح اليوم التالي لأجدك تجلس في الصالون وبيدك رشاش .

شعور غامض بالخوف اجتاح قلبي عندما رأيتك وبيدك الرشاش . مئات المرات رأيتك من قبل وأنت تداعب سلاحك كما يداعب العازف أوتار قيثارة .
لم أخف .
يومها فقط ، خفت .
يومها فقط ركعت على قدمي أقبل يديك أن لا تخرج للمعركة .
يومها فقط رجوتك ، استحلفتك بحبنا . بطفلنا . أن تبقى في المنزل كما يبقى الآخرون .
قلت لك أن هذه المعركة تختلف عن معارك عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٨ .
تلك المعارك كانت بين ثوار وحكومة ، وهذه المعركة بين جيش وجيش .
قلت لك ، لا مكان لك في هذه المعركة .
أنت غريب عنها ، قلت لك .
ماذا ينفع رشاشك أمام مئات الطائرات التي كانت تلقي الجحيم والموت ليلة أمس .
لم تسمعني يومها . كنت تنظر إلي بذهول ، وتنظر إلى دموعي بصمت .
بعد ساعة ، وأكثر من ساعة من البكاء والرجاء والتوسل قلت لي بهدوء :
ـ وما نفع حياتي إذا خسرنا هذه المعركة ؟
حتى صوتك تغير . لم أعرف صوتك عندما تكلمت . كان صوتك كأنه مقبل من عالم آخر . من عالم بعيد . من عالم غريب .

طول ساعات الصباح ، لم تهدأ . انقلب المنزل إلى خلية نحل . حضر شبان الحارة كلهم حاملين أسلحتهم إلى المنزل .

وجلستم في الصالون تتحدثون . حديثكم كان عن المعركة . والاشتراك في المعركة . والفداء . والتضحية . والوطن . وفلسطين .

لم أسمع من حديثكم إلا أقله . كنت مشغولة في المطبخ وكان رجاء يجلس معي . فقد منعته من الاصغاء اليكم . فأنا كما قلت لك لا أريده أن يحارب .

ومع ذلك مر النهار كله ، وأنتم تجلسون في الصالون ، تخوضون المعركة منه .
لم تتفقوا على طريقة تدخلون فيها الحرب .
هذه المعركة كما قلت لك ، كانت معركة مدافع وطائرات . لم يكن هناك أي عدو أمامكم لتواجهوه بالرشاشات والبنادق والمسدسات التي تحملون .

معركة غريبة عنكم .
معركة جيوش . لا معركة ثوار .
وأنت ، ورفاقك ثوار لا جنود .
كنتم تتعذبون . اقرأ في وجوهكم العذاب . تتحرقون إلى معركة ، لكن لا معركة هناك .
وفي الليل تفرق رفاق السلاح . ذهب كل إلى منزله على موعد لقاء معك في الصباح .
لم نتم تلك الليلة .

جهنم كانت تنصب علينا من السماء . كل ساعة غارة جوية . كل نصف ساعة . كل دقيقة . ومنعتنا أنت من أن نهرب إلى الملجأ . بقيت جالساً في منزلك تتحدى القنابل ، تتحدى الموت أو ترحب به .

لحظة واحدة لم تنم .
كنت تجلس بجانب الراديو ، رشاشك في حضنك . وأذنك ملتصقة بالراديو تسمع الأخبار .
أخبارنا . وأخبارهم .
تصدق أخبارنا ... وتكذب أخبارهم .
« سننتصر خلال أيام . قبل نهاية الأسبوع ستسبحين في يافا يا سلمى . قبل نهاية الأسبوع سنذهب إلى شواطئنا . لن تذهبي إلى بيروت لرؤية البحر يا أم رجاء . عاد بحرنا الينا يا حبيبة » .

صدقتك يا يوسف ليلتها . صدقت اذاعات العرب . لم أنم . جلست ورجاء نائم في حضني إلى

جانبك ننتظر أخبار النصر . حتى أنا لم تخفني القنابل . هزئت بها . هزئت باسرائيل . أنا شخصياً ليلتها كدت أطلب منك رشاشاً كي اشارك في النصر . كلما أعددت لك ابريق قهوة وصببت الفنجان انظر اليك وأقول : فنجانك التالي سيكون في تل أبيب يا حبيبي .

مع الفجر نمت ساعة .
أنا لم أنم . جلست احلم بيافا وحيفا ، والشاطئ الذي لم أره منذ أعوام طويلة .
دقائق معدودة سهوت على مقعدي . ثم استيقظت مذعورة . خائفة . بلا سبب . شعور قوي كان يضج في أعماقي بالخوف .

شيء ما كان يدفعني إلى أن أفتح الراديو ، يدي تحركت وحدها نحوه ، فتحته ، القاهرة : أم كلثوم تغني : راجعين بقوة السلاح .

دمشق : نشيد الله أكبر .
عمان : موسيقى القرب .
بيروت : فيروز تغني العودة .
اسرائيل : نشرة أخبار .
وتكلم المذيع ...
بعد دقيقة كنت اصرخ وأولول : يوسف ، يا يوسف ... يوسف ... سقطت القدس ! ..

* * *

ركضت إلي من فراشك . لم تسمع ما قلت . سمعت صراخي فقط . اعدت عليك ما قلت ، كنت أبكي ، القدس يا يوسف .

فتحت عينيك في ذعر . نظرت إلي في ذهول . هززتني لأعيد ما قلت . قلته مرة ثانية . سقطت القدس يا يوسف .

لم تصدقني . لم تصدق ما قلته لك . أنت لا تصدق اذاعة العدو . ركضت إلى سطح المنزل معك الرشاش . بعد دقائق كان رفاقك يلحقون بك . هم أيضاً سمعوا الخبر . أتوا اليك . ومن غيرك يأتون إليه ؟ من السطح كنتم تراقبون . تريدون الخبر اليقين من السطح لا من اذاعة العدو . ارعبكم أن دوي المدافع قد توقف . ان أزيز الطائرات هدأ . حاولت أن تعرف الحقيقة أنت ورفاقك ففشلتم . عدت إلى الصالون . فتحت الراديو . اذاعات العرب لم تبث الخبر . إذاً هو كاذب . مع ذلك أرسلت من يستطلع . أرسلته خارج أسوار المدينة القديمة . أرسلته بلا سلاح .

جلست مع باقي الرفاق تنتظرون . كل دقيقة تمر كأنها الدهر . ذهول يسيطر عليكم . مستحيل أن تسقط القدس . المعركة لم تبدأ بعد . المعركة في بدايتها . يجوز أن مذيع اسرائيل قد أخطأ فأذاع عن سقوط القدس العربية وهو يريد أن يقول القدس اليهودية . والدليل على ذلك أن العدو ما زال خارج الأسوار . لم يصل إلى القدس القديمة . لم تطأ أقدامه حارة النصارى .

صديقكم تأخر . تحرقون السجائر . تحرقون أعصابكم . تحترقون مع كل نفس سيجارة .

لم تأخر ؟ هل قبض عليه جنود اسرائيل ؟ ولكن أين نحن وأين جنود اسرائيل ؟

تنظرون إلى ساعاتكم . تنظرون إلى الباب . أنا أغلي القهوة . أصبها . تشربونها . أغلي من جديد . لا أحد يتكلم . الصمت أيضاً يمزق أعصابكم . صوت الراديو يمزق أعصابكم . تغلقون الراديو . تفتحون الراديو . الأناشيد تمزق أعصابكم .

نصف ساعة ولم يعد رفيقكم . أرسلت رفيقاً آخر . قلت له أن يعود بسرعة . لا تستطيعون الاحتمال أكثر من هذا . مرة ثانية يذيع راديو اسرائيل أن القدس سقطت . لم تسقط يا عدو الله . هو يصر أنها سقطت .

خيل إلي أنك ستنهار في أية لحظة . خفت عليك . ناولتك حبة من الحبوب المهدئة للأعصاب . لم تنفع . حبة أخرى . لم تنفع .

وددت لو أنك تبكي . الدموع تريحك . وددت لو أنك بكيت كما بكيت عام ١٩٤٨ عندما أعلنت الهدنة الثانية بين العرب واليهود وعرفت أن نصف الوطن قد ضاع .

أنت لا تبكي لأنك لا تصدق . لو صدقت أن القدس ضاعت لبكيت .
الدموع أحسن حبوب للأعصاب . انها تغسل الغضب ، والثورة ، واليأس ، وكل شيء .
حتى طفلك لم تهتم به . لم تنظر إليه عندما جاء إليك . عندما أرسلته اليك . أعدته قائلاً : دعيه ينم .

كيف ينام يا يوسف ، وهو يرى هذا الحشد الصامت من البشر ؟ كيف ينام وهو يرى كل ما اخترع الناس من أنواع الأسلحة في يد هؤلاء الغرباء عنه ؟

كيف ينام . كيف ؟
فجأة ، عاد أزيز الطائرات . ركضتم جميعاً إلى السطح . صرخت بك : عد ، فلم تجبني . ركضت في المقدمة .

وفجأة ، في أقل من دقائق سمعت صوت الرصاص . كان صوته قريباً . قريباً جداً . كان الرصاص

من سطح المنزل . أردت أن أركض لاستطلع الخبر . لكنني عرفته قبل أن أصعد إلى السطح . فجأة انفتح باب المنزل ورأيت الرفيق الأول الذي أرسلته يعود . كان في وجهه قبل أن يتكلم كل الخبر . سأل عنك . عنكم جميعاً . لم أجبه . سألته أنا عما رأى . ببساطة . بذهول قال : رأيت دبابات العدو أمام الفندق الوطني .

الفندق الوطني . هذا قريب منا . قريب جداً . هذا على بعد دقائق منا .
تابع رفيقك : خارج الأسوار حميع الناس رفعوا الرايات البيض . على جميع البيوت رأيت رايات الهزيمة .

بكى صديقك . بكى كالطفل الصغير . لم ينتظر مني مزيداً من الاسئلة . سمع صوت الرصاص على السطح . فحمل بندقيته وصعد اليكم .

بحركة لا شعورية فتحت الراديو . كانت الابرة لا تزال على راديو اسرائيل . صوت كأنه الموت كان يقول : اتبعوا تعليمات جيش الدفاع الاسرائيلي . الزموا منازلكم . ارفعوا اعلاماً بيضاً ..

لم أسمع أكثر من ذلك . أنا أيضاً كنت أبكي .
انتهت المعركة انتهى كل شيء . مستحيل .
مستحيل .
كنت أتكلم مع نفسي وأقول : مستحيل . رصاصكم من السطح لم ينقطع . عاد الأمل إلى نفسي . انتم ستردون اليهود . أنتم ستصدون اليهود . أنتم لن تسمحوا لهم باحتلال القدس القديمة . الصخرة . الحرام . القيامة . حارتنا . حارة النصارى .

أنتم ، ستردونهم ، كما فعلتم دائماً .
أردت أن أهرع إلى المطبخ لأغلي القهوة من جديد .
أردت أن أشارك في المعركة . أن أفعل أي شيء .
أنتم أملنا . أملنا الأخير . أنتم لا تدافعون فقط عن القدس . أو الحارة . أو الدكاكين . أنتم تدافعون عنا ، نحن نساؤكم . أطفالكم . أعراضكم .

وددت لو أنني أستطيع حمل بندقية لأنضم إليكم ، وددت لو أن الله لم يخلقني امرأة . فجأة أحببت القدس كما لم احبها من قبل . أحببت حارة النصارى . أحببت كل حجر فيها . كل رجل فيها . كل امرأة . كل شيخ كل طفل .

حننت إلى رائحة الفلافل . إلى طقطقة النرجيلة في المقهى تحت منزلنا . إلى بائع الكعك مع السمسم والبيض . منذ أن وعيت الدنيا لم أعرف أن أنام وأحيا وأحب وأتنفس إلا في هذه الحارة .

أنتم ، وصوت رصاصكم يلعلع لن تدعوا اليهود يأتون . أنتم أبطال . حتى ذلك الفتى الصغير الذي يحمل مسدساً صغيراً مثله والذي كان يجلس معكم بطل .

يوسف . كن بطلاً كما عرفتك . حارب يا رجلي . يا سندي . يا أسطورتي ، كما عودتهم أن تحارب ، أثبت لهم أن صدرك أقوى من طائراتهم ومن مدافعهم . أثبت لهم أن من يدافع عن وطنه ليس كمن يغزو وطناً آخر . هم يعرفونك يا يوسف منذ ثلاثين عاماً . يعرفون طعم رصاصك يعرفون طعم موتك عندما تذيقهم اياه . حتى ابنك توقف عن البكاء عندما اخبرته أن هذا رصاصك يهدر من السطح . أن والده يحارب الأعداء .

هو يعرف من هم الأعداء . لقنته الدرس جيداً يا يوسف . ابن الثانية عشرة يعرف ماذا تعني هذه المعركة بالنسبة اليك وبالنسبة الينا جميعاً . جلس كالرجال معي في الغرفة يسمع وينتظر . ينتظر . يتوقع . يعرف مثلي تماماً أنكم ستنتصرون .

صليت لكم يا يوسف . ركعت على بلاط المنزل وصليت . صليت كما لم أصل في حياتي . ركع ابنك رجاء بجانبي على الأرض ومثلي أيضاً . رفعنا أعيننا إلى السماء . إلى الله . وابتهلنا إليه أن ينصركم .

في شفتي الطفل الصغير رأيت الله . لا يمكن أن يصم الله سمعه عن ابتهال طفل صغير . طفلك قال لله ليلتها ، أن أنصر البابا على أعدائه .

رصاصكم ، بعد صلاتنا ، توقف .
أزيز الطائرات أيضاً توقف .

أحد رفاقك نزل عن السطح . هرعت إليه . سألته . قال : اليهود يحاولون احتلال القدس القديمة عن طريق المظليين . أبدناهم جميعاً . كلما أنزلت طائرة فريقاً منهم أبدناه .

سألته :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

أجاب وهو يركض نحو الباب :

ـ لأوفر مزيداً من الذخيرة . سيعود اليهود مرة ثانية . وثالثة . ورابعة ...

صعدت اليكم وطفلي في يميني . لم ينتبه أحدكم إلي وأنا أتسلل إلى السطح . اقتربت منك . وضعت يدي على كتفك . التفت إلي ، استغربت وجودي على السطح مع رجاء ، سألتني بلهفة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ أردت أن اطمئن عليكم ، وأسألكم إذا كنتم في حاجة إلى شيء .

ـ عودي إلى المنزل . مكانك ليس هنا .

ـ مكاني بجانبك أينما كنت .

ـ سيعود اليهود بعد دقائق . عودي إلى المنزل .

هل احضر لكم القهوة ؟

راقت لك الفكرة . وافقت . نزلت مع الطفل لأغلي القهوة . لم تنس أن تنادي علي قبل أن اختفي .

ـ سلمى ، لا تصعدي إلى هنا . عندما تحضر القهوة سأرسل من يصعد بها الينا .

لم أصعد مرة ثانية . غليت القهوة وناديتك . فنزلت أنت وتناولت « الصينية » من يدي . قبل أن تصعد التفت إلي وقبلتني . ثم قبلت رجاء .

لم تنتظر حتى نعيد إليك قبلتين . بدأت بالمشي نحو السلم . ناديتك . توقفت ، أخذتك بين ذراعي . قبلتك في جبينك . تمتمت :

ـ الله معك ...

لم تجب . قبلتني مرة ثانية . نظرت إلي طويلاً . في عينيك كان حب . أحببتك كما لم أحبك من

قبل تلك اللحظة . أردت أن أرتمي طويلاً بين ذراعيك . لم يكن هناك وقت لعناق طويل . ينتظرك على السطح رفاق . لا وقت للعناق . لا وقت للحب . لا وقت لأي عاطفة إلا عاطفة واحدة : القدس . تركتني فارغة اليدين وصعدت تحمل « صينية » القهوة .

لم تشربوا القهوة ، وعادت الطائرات . وعاد الرصاص يلعلع من السطح . وعدت أنا ورجاء إلى الصلاة .

رفيقك عاد يحمل الذخيرة . عشرة شبان كانوا يحملون الذخيرة . الصناديق تدل على أن المعركة طويلة .

أنا عاجزة عن الحركة . عاجزة عن التصرف . عدت إلى الراديو . بلاغات العدو ما زالت تطلب من الناس الاستسلام . بلاغات العرب تطلب من الناس المقاومة . أنتم تقاومون . هل هناك غيرك يقاوم ؟ تساءلت .

فجأة اجتاحني الخوف يا يوسف .
فجأة شعرت أنكم لن تستطيعوا الصمود طويلاً . أزيزالطائرات يختفي ويعود . وأزيز الرصاص يختفي ويعود .

هل تستطيعون المقاومة ؟ هل تستطيعون التصدي للعدو ؟ رفيقك قال أنهم على بعد دقائق من هنا . أنتم وحدكم في المعركة . خفت من الرجال أمام جيش كامل .

قلت لي مرة أن كل فلسطيني مقاتل يساوي مئة يهودي .
صدقتك ، لكن العدو يأتي اليك اليوم بالمئات . بالألوف . هل تستطيعون الصمود ؟
صلي يا سلمى . عودي إلى الصلاة . اركعي يا سلمى . ابتهلي . لك الله . لهم الله . الله لا ينسى عباده . لا ينسى المقاتلين من أجل الحق .

الراديو والصلاة . هذه سلواك يا سلمى .
الصلاة لا أحد يستجيب لها على الفور . نتيجة الصلاة سنعرفها بعد حين .

الراديو ، راديو اسرائيل ما زال يصر على أقواله . انه يهدد . يتوعد . ينذر أولئك الذين يقاومون بأقصى العقاب . الرجل الذي يتكلم سيهدد زوجك يا سلمى . ينذر يوسف . يتوعد رفاق زوجك يا سلمى . انه يخاطبهم مباشرة . انه يقول : ان جنود جيش الدفاع الاسرائيلي يتعرضون في القدس للرصاص ، ان هناك من يطلق عليهم الرصاص من الخلف لذلك ...

ان رجالنا بانتظاركم فوق السطوح . انهم لا يطلقون الرصاص من الخلف . انهم يتحدونكم من الأمام . ليجرؤ أحدكم على الاقتراب . تموتون كالفئران حتى لو حرستكم كل دبابات الأرض وكل طائرات السماء .

بعد قليل ستتغير لهجة مذيع اسرائيل . بعد قليل سيتحول كلامه من التهديد إلى الرجاء . اصبر . اصبر قليلاً أيها المتبجح . ساعة واحدة لا أكثر . طائراتنا ستدك الأرض من تحتكم . نحن نعرفكم . نعرفكم جيداً . لا أحد يعرفكم مثلنا . أنتم جبناء . أنتم أجبن من الجبناء ... نعرف كيف نجبركم على التراجع . بعض الوقت . بعض الوقت ... فقط .

بعض الوقت ؟
مر كثير من الوقت .
ساعات مرت ...

مر الصباح . نسيت أن أطبخ شيئاً للرجال . نزل الرجال كل بمفرده ليتناول قطعة من الخبز مع الزيتون أو الجبن . تناولوا الخبز ويدهم على الزناد ثم عادوا إلى السطح . إلى المعركة .

العرب في كل مكان يحاربون يا يوسف . هكذا تقول اذاعات العرب . أنتم لستم وحدكم في المعركة . كل العرب معكم في المعركة يا أبطال .

انكم تطبقون عليهم كالكماشة . لا خلاص لهم . غداً سننتصر . ستعود الينا القدس كلها ، وفلسطين كلها . سنذهب مع رجاء إلى يافا . ستعلمه السباحة على الشاطئ هناك . لن يكبر رجاء ونصف وطنه ضائع . سيعيش شبابه كما عشت أنت في كل ربوع فلسطين .

اضرب يا يوسف . اضرب . اصمدوا حتى ينتصر العرب . ادفعوا العدو عن أسوار مدينتكم . اطردوه من القدس . انه يريد القدس . منذ ألفي سنة وهو يريد القدس . ليذكر التاريخ انكم أنتم يا أبطال حارة النصارى . أنك أنت يا يوسف منعت اليهود من تحقيق حلمهم الأكبر . ستدخل التاريخ من بابه الواسع . وأنت وصلاح الدين دافعتما عن القدس. أنت تخوض أشرف معركة في تاريخ العرب . مصير العرب معلق بسقوط هذه الأسوار . شرف العرب في هذه الأسوار مقدساتكم وراء هذه الأسوار . لماذا توقفتم عن الضرب ؟ لماذا صمتم فجأة ؟ هل دمرتم العدو ؟ ان أزيز طائراته ما زال في الجو .

يوسف ... ماذا حدث . يوسف ... ناديت . يوسف .

فجأة رأيتك أمامي . كنت تحمل رشاشك وكنت مكفهر الوجه . وجهك أسود . غضب يلمع في عينيك .

- ماذا حدث يا يوسف .

توجهت نحو الباب .

صرخت :

- إلى أين ذاهب يا يوسف . ماذا حدث ؟

أجبت :

- انتهت الذخيرة . سأحاول أن أبحث عن المزيد .

وتركتني مشدوهة . صوتك يدوي في المنزل .

انتهت الذخيرة .

انتهت الذخيرة .

صوتك الهادئ دوى في المنزل كالرعد . انتهت الذخيرة .

كأن تقول لتائه في صحراء : فقد الماء .

أو كأن تقول لمحاصر في قلعة : انتهى الخبز .

أو كأن تقول لعامل في منجم : لا هواء .

نفذت الذخيرة . واليهود على أبواب القدس القديمة . والمقاومة في الخارج انتهت .
إذاً سقطت القدس القديمة ، إذن سقطت كنيسة القيامة ، والمسجد الأقصى . إذاً ... سقطت حارة النصارى .

وماذا تفعل البندقية الفارغة أمام جندي مسلح ؟
وماذا يفعل الرشاش الأخرس أمام العدو الهابط من الفضاء ؟ .
جلست على الأريكة في الصالون . وأمامي جلس رجاء . واجتاحني شعور بالاستسلام . لم أكن خائفة لم أكن مذعورة . لم أكن أفكر . شل كل شيء فيّ حتى تفكيري .

للمرة الأولى أنت تحارب طائرة يا يوسف .
أنت لا تعرف كيف تحارب الطائرة .
لو واجهك جيش كامل من الجند ، لافنيته .
أما هذه المعركة فهي غريبة عنك .

في لحظات اليأس والاستسلام يغمض المرء عينيه . إنه يحاول أن يهرب من واقعه بأن يرخي الظلام على عينيه . أنت تعيش في عالم آخر عندما يلفك الظلام . أو عندما تطوف بعينيك لمعات النور .

هربت من واقعي . عاد إلي تفكيري مع الظلام . وعدت اليك لا كما رأيتك قبل لحظات . إنما كما رأيتك للمرة الثانية .

كم غيرتك الأيام .
كم هدتك .
كبرت قبل لحظات ثلاثين عاماً دفعة واحدة .
قبل ثلاثين عاماً وعام .
قبلتك الأولى كانت لا تزال توشوش جبيني عندما استيقظت صباح اليوم التالي .
مددت يدي إلى وجهي اتحسسه . تحسست جسدي الصغير الذي ضممت بيديك القويتين .

وجهك الذي انحنى فوقي وأنت تضعني في الفراش كان لا يزال هناك يبتسم لي .

لم يكن في المنزل أحد عندما استيقظت إلا شقيقي سمير . والدتي لم تعد من رام الله . ووالدي نزل ليفتح الدكان .

مرت دقائق طويلة وأنا لا أريد النهوض من فراشي ، كنت خلالها اذكر حوادث الليلة الماضية . المطر . خوفي . نهوضي من الفراش . رؤيتك تتحدث مع والدي . الاضراب . الثورة ... الرصاص ثم قبلتك .

كان طعمهـا غريباً .
كان طعماً جديداً .
دافئة كانت قبلتك . أدفأ من قبلات والدي ووالدتي وأشقائي . .
أغمضت عيني استعيدها . استعيد ذكراها . تنهدت . تذكرت حلمي . كيف غرقت وانقذتني . وقبلتني . أردت أن أعود إلى النوم لأحلم بك من جديد . لتضمني من جديد ولو في حلم .

أعادني إلى واقعي صوت أخي ينادي :
– سلمى . ستتأخرين عن المدرسة . الافطار جاهز .

تظاهرت بالنوم . سمعت وقع أقدامه تقترب من غرفتي . اقترب من فراشي وهزني . عندما فتحت عيني قبلني وهو يكرر أنني سأتأخر عن المدرسة . قبلته لم تكن كقبلتك . كانت كأنه يؤدي واجباً حبيباً إليه . لم أرد له قبلته كما اعتدت . ضننت عليه بشفتي . لم أرد أن أقبل أحداً بعدك .

عاد يستحثني على النهوض . استجبت له منزعجة .
غسلت . ولبست ثيابي . ثم بدأت تناول طعام الافطار . جلس معي . هكذا أوصته والدتي . فجأة سألته :
– سمير ، معك نقود ؟
استغرب سؤالي ، أجاب :
– نعم ... لماذا ؟

كذبت . قلت له أنني نسيت أن أطلب نقوداً من أبي لشراء دفاتر ضرورية للمدرسة . صدقني .
انه يحبني . كلهم يحبونني لأنني صغيرتهم المدللة . أعطاني ما طلبت . وضعت النقود بحرص في
جيب « مريول » المدرسة .

لو يعرف أخي مدى حرصي على أن لا تضيع هذه النقود مني . فقد كانت ، هذه القطع الفضية
الصغيرة ، طريقي إلى رؤيتك من جديد هذا الصباح . أردت أن أشتري بها أي شيء من دكانك
كي أراك . كي تبتسم لي من جديد .

نزلت من المنزل واتجهت فوراً إلى دكانك . دخلت فلم تلحظني . كنت لهياناً عني بسيدة . كم
كرهت هذه السيدة التي وقفت مدة وهي تختار ما تريد أن تشتري . كنت خائفة أن أتأخر عن
المدرسة . ثم قررت أن أتأخر وأن أختلق أي عذر . فجأة لمحتني . كانت السيدة في طريقها إلى
خارج الدكان هرعت إلي ، اقتربت :

ـ سلمى ؟
لم أسمع أي شيء آخر . غاب صوتك فجأة بعد أن نطق باسمي . لمحت شفتين تتحركان . لكنني
لم أسمع . كل ما سمعته اسمي يخرج من بين شفتيك .

ـ سلمى ...
ارتفع صوتك ...
ـ ماذا تريدين ؟
بانت الحيرة على وجهي . أشرقت ابتسامتك فجأة . تلعثمت . طلبت شيئاً ، شوكولا . ملبساً .
كنت لا تزال تبتسم وأنت تناولني ما طلبت . ناولتني أكثر بكثير مما طلبت . وعندما وضعت
النقود أمامك كما كنت أفعل في الماضي ، تناولتها أنت وأعدتها إلى جيبي قائلاً :

ـ الحلوى اليوم على حسابي أنا .
رفضت . أعدت الحلوى . ضربت الأرض برجلي . مددت يدك ورفعت رأسي اليك وقلت :
ـ ألم نصبح أصدقاء أمس . اقبلي هذه من صديقك يوسف .

ـ شكراً . يا عمو يوسف .

ثقيلة « عمو » هذه ...

تعودت أن أناديك بها في الماضي . أما الآن فقد بدت سمجة ثقيلة . .

يوسف . كنت أريد أن أناديك يوسف فقط . اسمك أصبح له رنين حلو في أذني .

حملت حقيبة كتبي وتوجهت نحو الباب ثم توقفت . والتفتت اليك متسائلة :

ـ عمو يوسف ... متى تغلق المدينة ؟

رفعت حاجبيك مستغرباً ، مندهشاً ، سألتني :

ـ ومن قال لك أن المدينة ستغلق ؟

سمعت حديثك مع والدي أمس .

ـ أنت صغيرة على مثل هذه الأشياء يا سلمى .

صغيرة ؟

كاد كرهي لك يعود .

أنا لست صغيرة يا ... عمو يوسف . تباً لهذه « العمو » .

لم أقتنع بجوابه . عدت أسأله .

ـ هل ستغلقون المدينة غداً ؟

ـ يجوز . لكن عليك أنت أن تهتمي بدروسك وتتركي هذه الأشياء للكبار .

ـ لكنكم ستغلقون المدارس أيضاً .

رأيت الحيرة تكسو وجهك . لم تنتظر من هذه « الطفلة » ان تمطرك بهذا السيل من الأجوبة .

هذه المرة أجبتني بجدية . أردت أن تتخلص من أسئلتي . قلت :

ـ المدينة ستغلق غداً يا سلمى .

ـ والمدارس ؟

ـ لا أعرف .

وتركتك والحيرة لا تزال على وجهك . ومشيت نحو مدرستي . .

لم تغلق المدينة غداً . لكنها اغلقت بعد غد .

عرفت هذا عندما استيقظت لأجد والدي جالساً في المنزل يطالع صحيفة .
نظرت من النافذة لأجد كل الدكاكين مغلقة والناس متجمهرون في الحارة يتحدثون.
والدي أيضاً قابلني بدهشة واستغراب عندما سألته .
ــ هل اعلن الاضراب ؟
لكنه ، كعادته كلما كان يطالع صحيفة أجابني باقتضاب :
ــ نعم ... اعلن .
ــ والمدارس ؟
ــ اذهبي إلى مدرستك اليوم ، وسنرى غداً .
وذهبت إلى مدرستي . ذهبت برغمي . أنا أيضاً أردت أن أشارك في الاضراب . من أجلك أنت أردت أن أشارك في الاضراب .

فوجئت بك عندنا في المنزل عندما عدت من المدرسة مع العصر . كنت تجلس مع والدي في الصالون تماماً كما رأيتك في المرة الأولى .

هذه المرة لم أستطع أن استرق السمع إلى حديثكما ، فلقد انضممت إلى والدتي في المطبخ وبدأت كعادتي مساعدتها في العمل . لكنني قدرت أن حديثكما ، كحديث كل أهل الحارة . كان عن الاضراب .
على العشاء تحدثت والدتي مع والدي عن الاضراب . تحدثت عن الاضراب من زاويتها هي : الطعام .
ــ إذا استمر الاضراب ، من أين يأتي بالطعام ؟
ــ سنحضر الطعام من القرى القريبة . علينا أن نذهب لنخزن طعاماً لأسابيع طويلة . فالاضراب سيطول .

حلت مشكلة والدتي .
ثم بدأت مشكلة أخي سمير . أراد سمير أن يعرف من والدي قصة الاضراب . لماذا نضرب ؟ لماذا نغلق المدينة ؟

سمير . كان في السابعة عشرة ، انه يكبرني بثلاثة أعوام ، وكان والدي حريصاً على معاملته كأخ صغير له . تماماً كما كان يعامل شقيقي اللذين يدرسان في الجامعة الأميركية في بيروت عندما كانا في مثل عمره .

لذلك . ولع والدي السيجارة الوحيدة التي يدخنها في النهار ، ثم بدأ يتكلم ، لكنه انتبه لوجودي فطلب مني أن أغادر الغرفة .

رفضت . قلت له أنني أيضاً أريد أن استمع إلى القصة . قلت أنني لم أعد صغيرة . تجمعت الدموع في عيني . ابتسم لي والدي وسمح لي بالجلوس .

روى والدي لشقيقي حكاية طويلة . بدأت الحكاية عام ١٩١٧ عندما صدر وعد بلفور الذي تعهدت بموجبه الحكومة البريطانية بمنح اليهود في فلسطين وطناً قومياً . قابل الفلسطينيون الوعد بالاستنكار والتظاهرات . لم ينفع الاستنكار ولا نفعت التظاهرات . كان اليهود يومها أقلية ضئيلة جداً في فلسطين وكانوا لا يشكلون خطراً بالمعنى الصحيح . بعد أعوام بدأت هجرة اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين . يأتون إليها بجميع الوسائل . بالتهريب ، بالرشوة تحت سمع الحكومة وبصرها . بدأ الفلسطينيون العرب يشعرون بخطر هذه الحركة ، قاوموها . حاربوها . قاموا بثورة سنة ١٩٢١ . أخمدتها الحكومة بالحديد والنار واستمر تدفق اليهود . وقاموا بثورة أخرى عام ١٩٢٧ ، ثورة أكبر من ثورة عام ١٩٢١ . أخمدت الحكومة الثورة الجديدة ، بالحديد والنار أيضاً . واستمر تدفق اليهود ، وكانوا قد بدأوا شراء الأراضي ومحاولة البقاء بشكل ثابت . قامت ثورة ثالثة عام ١٩٢٨ ، ثورة كبيرة أثبت فيها الشعب الفلسطيني رجولة وبطولة . نهاية هذه الثورة لم تكن أحسن من سابقتيها . حديد ونار واعتقالات . وظنت الحكومة أن العرب قد هدأوا ، لكنها فوجئت بثورة جديدة عام ١٩٣٢ . تلك أيضاً أخمدت بمزيد من الدم ومزيد من العنف ومزيد من النار . بدأت الناس ييأسون من اطلالة عام ١٩٣٤ . وازدادت حركة شراء الأراضي بأسعار خيالية من قبل اليهود . ومع كل محاولات الصحافة الفلسطينية لتحريك مشاعر الناس فقد وصلت حالتها النفسية إلى درجة كبيرة من التدهور .

إلى أن كان العام الماضي ، وتوقف والدي ليطفئ عقب سيجارته ، عندما اكتشف العرب أن القضية

لم تتوقف على ادخال آلاف المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وعلى شراء الأراضي ، بل تعدتها إلى تهريب الأسلحة .

فبينما كان أحد الحمالين يحمل صندوقاً كتب عليه « اسمنت » سقط الصندوق وانكسر وظهر أن الاسمنت لم يكن سوى أسلحة مهربة من أوروبا إلى اليهود .

وكأن هذا الصندوق كان الشرارة التي ألهبت مشاعر الناس من جديد . لقد شعروا أن هؤلاء الدخلاء لم يأتوا إلى هنا ليهددوا أرزاقهم وأرضهم فقط ، بل ليهددوا أرواحهم أيضاً . كل ذلك بمعرفة حكومة الانكليز .

وانطلقت الصحافة تكتب وتلهب المشاعر . تلك المشاعر التي لم تكن في حاجة إلا إلى عود كبريت لتشتعل . واجتاحت التظاهرات المدن . وقدمت عرائض الاستنكار إلى المندوب السامي . وعندما شعر الشعب أن الحكومة لا تريد أن تصغي إلى صوته بدأت الدعوة إلى الاضراب . فاستجاب لها الجميع . اليوم لم تغلق القدس فقط بل أغلقت كل مدينة من مدن فلسطين .

وقاطعه سمير :

ـ وإلى متى يستمر الاضراب ؟

ـ إلى أن تتحقق مطالبنا بوقف الهجرة ، ومنع تهريب السلاح ، ووقف عمليات شراء الأراضي ..

ـ وإذا لم تتحقق هذه المطالب ؟

ـ يومها لكل حادث حديث ، فالشعور الشعبي الآن ، وحالة التعبئة النفسية التي يعيشها الناس لا يمكن أن تقف قبل تحقيق هذه المطالب . انها كالسيل الهادر . أن كل فلسطيني يشعر الآن أن هده المعركة هي معركتنا الفاصلة مع اليهود والانكليز . معركة حياة أو موت . إذا لم ينفع الاضراب ، فستنفع التورة . سنحارب . سنسيل الدماء كالأنهر . سنقاوم . سنقاتل العنف بالعنف . الدخلاء اليهود والانكليز لا يفهمون إلا بهذه اللغة . سنموت كلنا إذا احتاج الأمر لكننا لن نسمح باستمرار هذا التحدي لنا .

لأول مرة في حياته ولع والدي سيجارة ثانية وهو يتحدث ، كان يروي الحكاية بأعصابه . طول

عمري لم أر والدي منفعلاً هكذا ... كان يتحدث إلى شقيقي كأنه يتحدث إلى كل شاب فلسطيني ، قال له :

سنغلق الدكاكين . الموانئ . المدارس . سنشل البلاد . هذه بلادنا ونحن الذين نقرر مستقبلها . يكفي أننا قبلنا استعمار الانكليز حتى الآن . ولكننا لن نقبل في أية حال من الأحوال أن نصبح غرباء في وطننا ووطن أجدادنا . اسمع يا سمير . يا بني . أنا انسان بسيط . مواطن عادي . لم أتعاط السياسة طول حياتي . كل همي في الدنيا كان أن أعمل ليل نهار كي أؤمن عيشاً كريماً لكم جميعاً . كي أرسلكم إلى المدارس والجامعات . أنا لا أفهم السياسة . أقصى ما كنت أتمناه هو العودة إلى المنزل مساء لأجلس معكم جميعاً وأضمكم إلى صدري قبل أن تناموا . في علاقاتي مع الناس لم أكن افرق بين يهودي وانكليزي وعربي . لي أصدقاء من اليهود ولي أصدقاء من الانكليز . لكنني اشعر الآن أن هؤلاء سيهددونني شخصياً . سيهددون مستقبلكم . سيهددون حياتكم . من أجل ذلك قبلت أن أشترك في الاضراب . ومن أجل ذلك . من أجلكم أنتم فاني على استعداد برغم مني لحمل هذه البندقية لأحارب . القضية يا ولدي ، بسيطة ، أنا وقريبي وجاري وكل فلسطيني اليوم يدافع عن أرضه وكرامته ومستقبله و ...

وتوقف والدي عن الكلام . ثم التفت إلى سمير الذي كان يلتقط الكلام من بين شفتيه حتى قبل أن يتكلم . التفت إليه قائلاً :

ـ هل فهمت الحكاية الآن ؟

ـ فهمت ...

ـ أنا لم أرو لك إلا رؤوس الأقلام . لوسمعت التفاصيل لعرفت بالفعل لماذا أنا على استعداد لأن احمل البندقية وأحارب .

ـ لكن الانكليز واليهود أقوى منكم يا أبي ..

هدر صوت والدي . أجابه بغضب . قال :

ـ لا شيء أقوى من الحق يا بني . هذا وطننا . وهذه أرضنا . ولن ينتزعها منا أحد .

ـ هل عندكم سلاح لتحاربوا به ؟
تضايق والدي لأول مرة من أخي . أجابه :
ـ عندنا سلاح وسنشتري السلاح . سنفدي هذا الوطن بأرواحنا .
ـ وأنا يا والدي . أنا شاب . سأبلغ الثامنة عشرة بعد أشهر قليلة . وأنا ماذا يجب أن أفعل . ما هو دوري في المعركة ؟

أشعل والدي سيجارة ثالثة ، وقبل أن يفتح فمه للاجابة فوجئنا بطرق شديد على الباب .
كان القارع أنت .
قبل أن يفتح والدي الباب عرفت أنك أنت . دقات قلبي كانت عنيفة كدقات الباب . قلبي قال لي أن القارع أنت .

كنت تدق الباب كأنه طريقك إلى النجاة من الموت . كنت تلح في دق الباب . وعندما دخلت . وقادك والدي بسرعة إلى حيث كنا نجلس في غرفة الطعام ، تناولت سيجارة من علبته قبل أن تتكلم وأشعلتها بعصبية ثم جلست .

والدي تحدث اليك قبل أن تقول أي شيء ، سألك :
ـ في وجهك خبر ؟
قلت :
ـ اخبار ...
تابع والدي :
ـ أنت مضطرب ...
ـ قليلاً ...
ـ هل تعشيت ؟
ـ لا ...
ـ هل نحضر لك ما تأكله ؟
ـ ...

ـ هل تريد شراباً ؟

ـ لا ...

ـ طمني ..

ـ كل خير ...

ـ لم تقل شيئاً ...

ـ ليس هناك ما يقال ...

أجبت ، ونظرت الينا كأنك تطلب منا أن نغادر الغرفة قبل أن تتكلم .

ـ تكلم أمام الأولاد ... أريدهم أن يعرفوا القصة كاملة ...

وتكلمت . اختصرت اضطرابك بجملة ، قلت :

ـ صدر أمر من الحكومة باعتقالي .

ـ اعتقالك أنت ؟

ـ نعم ...

ـ بأية تهمة ؟

ـ بتهمة التحريض على الاضراب ..

أشعل والدي سيجارته الرابعة . القصة أخطر مما كان يتصور . انها تستأهل سيجارة رابعة وخامسة . ومرت دقائق طويلة من الصمت . لم يجرؤ أحد منا خلالها على الحديث . أخيراً تحدث والدي . سأل بصوت كله تفكير :

وماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ لن اسلم نفسي ...

ـ طبعاً ، لكن هذا لن يحل المشكل ...

ـ أعرف ... لذلك سأختبئ عدة أيام ريثما ينجلي الموقف ...

ـ أين ستختبئ ؟

سأله والدي ...

ـ لا أعرف .. كانت المفاجأة أسرع من توقعاتي . لذلك جئت اليك .

ـ حسناً فعلت ...

عاد الصمت يلف الغرفة .

استمر الصمت طويلاً أطول من سيجارة والدي الرابعة . أشعل الخامسة ، وسحب منها نفساً طويلاً ثم نظر إلى يوسف وقال :

ـ ستبقى هنا ...

انتفضت وأجبته بسرعة .

ـ مستحيل . سأعرضك للخطر .

ـ هذا وقت الخطر . لن تبرح هذا المكان .

ـ لكنهم سيفتشون الحارة . وسيجدونني هنا . وستتحمل أنت المسؤولية .

ـ عندما أغلقت دكاني قررت أن أتحمل المسؤولية .

ـ أعذرني ، لكنني أرفض ضيافتك .

ـ هذه ليست ضيافة ، انها واجب .

ـ أرجوك ...

ـ لا تناقشني ... أنا مثل والدك .

هدر صوت والدي وهو ينهي المناقشة ، ثم هدر من جديد وهو ينادي أمي لتعد لك فراشاً للنوم . أمي ، كعادتها ، لم تناقش والدي . لم تسأله لماذا يستضيفك وبيتك لا يبعد عن بيتنا أكثر من مئة خطوة . أسرعت ترحب بك ، و « مريولها » المزركش حول خصرها ، وشدت على يدك بحرارة وترحاب . ودون أن تسألك عادت إلى المطبخ لتعد لك العشاء .

كانت ، وهي تضع الأطباق على المائدة ، تعتذر لك في كل لحظة مرتين . تصر على الاعتذار لك لأنها لم تعرف بأنك ستحضر في موعد العشاء ، وإلا لكانت أعدت لك عشاء يليق بك ، و بمحبتنا لك ، ولوالدك المرحوم ، ولوالدتك صديقتها . وكنت أنت ترد الاعتذار بأنك لست غريباً عن المنزل ، وان « حواضر البيت » تكفي وتزيد .

وجلست تأكل . كنت جائعاً ، يبدو عليك التعب والارهاق ، والشعور بالطمأنينة بعد طول مطاردة .

وجلسنا جميعاً نراقبك . ممتع أن يراك الانسان تأكل . انك تحب الأكل . وتحب الطعام . حتى الشبعان يشعر بحاجته إلى الأكل إذا شاهدك تأكل .

كم حقدت على والدي عندما نظر إلى ساعته ، ثم غمزني بعينيه .
فهمت معنى الغمزة . معناها أن وقت النوم قد حان .
حاولت أن أعترض ، لكن بلا فائدة .
حاولت أن أطلب البقاء ولو لدقائق ، أملأ عيني بالنظر اليك . لكن أيضاً بلا فائدة .
نهضت وفي عيني دموع لم يفهم أحد سرها . أنت الوحيد الذي فهم ، أو خيل إلي أنه فهم . قلت لي وأنت تبتسم ابتسامة حنوناً :
– تصبحين على خير .. يا سلمى ...
– تصبح على خير ...
وقبل أن أكمل ، كنت أركض إلى غرفتي ، لأغرق وسادتي بالدمع .
تعزيتي الوحيدة كانت هي أني سأراك في الصباح . وكل صباح . حتى ...
وارتعدت .
حتى ، قد تعني أن تقبض عليك الحكومة .
حتى ...
قد تعني السجن .
حتى ....
قد تعني أن لا أراك مدة طويلة ...
في الصباح عجزت عن تفسير سر الهالات السوداء التي كانت تحيط بعيني عندما سألتني أمي .
أنا وحدي كنت أعرف السر .
طلع الفجر علي وأنا أبكي وأفكر فيك .

حتى أنت قلقت علي عندما رأيتني في الصباح . سألتني عن سر التعب البادي على وجهي .
تأخرت سنوات يا يوسف حتى عرفت سر هذا التعب .
لو عرفت يومها ، لو حزرت ، لما سألت .
لكن كيف لك أن تعرف وأنا يومها ، بالنسبة اليك لا أعدو كوني طفلة صغيرة . كأن الأطفال ، يا يوسف ، لا حق لهم في الحب .

بعد الافطار جلست مع والدي تقرأ الصحيفة وتحللان الأخبار . كان اسمك يومها في الصحيفة . كان اسمك بين قائمة طويلة من الأسماء المطلوب القبض عليها بتهمة التحريض على الاضراب . كنت فخوراً باسمك وبالقائمة . كدت ترقص طرباً وأنت تقرأ القائمة . وأنت تقرأ اسمك . هززت والدي من كتفه وأنت تقول :

ـ لقد نجحنا . لقد نجح الاضراب . هذه القائمة تضم أسماء من يافا وحيفا واللد والرملة ومن كل مدينة فلسطينية .

كاد والدي ، لولا العمر ، والوقار الذي يفترضه العمر ، يرقص معك طرباً .
بعد قليل جاءت أمك . لم تخبر أحداً في الحارة عندنا إلا أمك . كنت تعبد أمك . تقدسها . حياتك لها . جاءت تطمئن عليك وتخبرك أن العسكر جاؤوا مع المختار يسألون عنك منذ الصباح . أخبرتك بأنهم حققوا معها طويلاً . سألوها عشرات الأسئلة ، لكنهم عادوا كما أتوا بلا فائدة ...

أخبرتك أن اجابتها الوحيدة عن جميع الأسئلة كانت أنها لا تعرف أين أنت ، ولا تعرف أي شيء عن نشاطك سوى أنك منذ وفاة والدك ترعى شؤون دكانه .

وجلست أمك مع أمي تدردشان . دار الحديث حولك وحول شقيقي في بيروت وحول شقيقي سمير وأنا .

أمك في أثناء الحديث ذكرتني ألف مرة . وقبلتني ، وكنت أجلس بجانبها ، ألف مرة . وأطرت جمالي ألف مرة .
قالت مرة في أثناء الحديث ، أنها تتمنى قبل وفاتها أن تراني زوجة ليوسف .

أمي ابتسمت ، أعجبها الاطراء . كل فتاة في الحارة تتمنى أن تكون زوجة لك ، وأجابت بتواضع لكنها ما زالت صغيرة يا أم يوسف .

ـ ليست صغيرة بالنسبة إلى يوسف ، الفرق بينهما ستة أعوام فقط .

عادت أمي تبتسم بافتخار ، وهي تنظر إلي ، وتجيب :

ـ الله يجيب اللي فيه الخير ...

تركتهما ، وذهبت إلى غرفتي . فجأة شعرت بحاجتي إلى الهروب إلى غرفتي لأفكر فيك وفي كوني زوجة لك .

حلم جميل بدأت أرعاه وأدلله منذ أن سمعت أمك تتفوه به .

كل ما يمكن أن تحلم به فتاة مراهقة حلمت فيه وأنا أجلس وحدي في الغرفة .

ثوب الزفاف الأبيض . الزهر . الموسيقى . رائحة العطر . أنت . أنا متكئة على ذراعك . المهنئون . المهنئات . ثم ... أنا وأنت وحدنا بعد أن يذهب الجميع .

بعد ذلك توقف الحلم ، لسبب بسيط هو أنني لا أعرف ماذا يحدث بعد ذلك .

جلست طويلاً أفكر في ماذا يحدث « بعد ذلك » !

عدت استعيد الحلم من ثوب الزفاف حتى ذهاب الجميع ، ثم عدت لأتوقف عند « بعد ذلك » .

تعبت من التفكير في « بعد ذلك ... » وهذا ما جعلني أترك غرفتي لأعود فأنضم إلى أمي وأمك .

كانت أمي تصر على أمك أن تبقى للغداء . كانت تقول لها : ما دام يوسف هنا ، ولا أحد في المنزل فيجب أن تبقي هنا .

التجأت أمي اليك في النهاية لتقنع أمك . اقنعتها أنت بكلمة . حتى أمك لم تستطع أن ترفض لك طلباً . كانت أيضاً تحبك حتى العبادة . .

وددت لو استمر طعام الغداء نهاراً بأكمله . أجمل غداء مر في حياتي كان ذلك الغداء . أبي وأمي وأمك وشقيقي وأنت ... وأنا .

أنت تجلس بجانبي .

أشعر بك . أسمع أنفاسك . أرقبك تأكل . تتحدث . تضحك تسيطر على الجو . تأكل الغرفة بوجودك .

ولم تغادرنا أمك حتى المساء ، بالرغم من الحاح أمي أن تبيت الليلة عندنا .

بعد الغداء وحتى المساء جلست مع والدي تتحدثان .

والدي بوجودك ، وبسبب ما حدث أصبح مدمناً على التدخين . انتهى عهد سيجارته اليتيمة . أصبح يدخن مثلك . بكثرة ونهم .

والحديث هو هو : فلسطين ، الحكومة ، اليهود ، الاضراب . وشقيقي سمير يجلس معكما طول الوقت يستمع بانتباه شديد كأنه يستمع إلى كلام مقدس .

وأنا أروح . أغيب ثم أعود . أجلس دقائق وأغيب . همي في الحديث كله أنت .

وأنت كلما رأيتني تبتسم لي ثم تتابع حديثك .

ما حدث في أثناء الغداء حدث في أثناء العشاء مع تغيير بسيط . أصبحت بعد العشاء جزءاً لا يتجزأ من العائلة . أصبح وجودك معنا في كل لحظة شيئاً عادياً . لو اضطررت إلى الذهاب فجأة لشعرنا جميعاً بأن أحد أفراد العائلة قد ذهب .

اليوم الثاني مر كاليوم الأول .

واليوم الثالث ...

أسعد انسانة في العالم كنت أنا . يكفيني من الدنيا أنك كنت معي طول النهار والليل .

كم مرة أردت أن أتسلل في الليل لألقي نظرة عليك وأنت نائم .

كم مرة هزني الشوق اليك والكل نيام . فمنعت نفسي بالقوة من أن أتوجه إلى حيث تنام لأمرر يدي الصغيرة في شعرك .

كم مرة قضيت الليل بطوله ساهرة أنتظر بزوغ الفجر ، كي تستيقظ ، وكي أسمع صوتك ، وكي أقفز من الفراش لأراك .

لكنني مع كل سعادتي كنت خائفة ...

شيء ما كان يعصر قلبي ...
خائفة أن تهرب مني هذه السعادة فجأة ، كما أتت فجأة .
كنت أصلي طول الليل كي تدوم ، وأنا أعرف في قرارة نفسي أنها لن تدوم . وأن صلاتي لن يستجاب لها .

عمر السعادة قصير . دائماً كانت تقول ذلك والدتي . الآن صدقت والدتي .
في أيام سعادتي ، وأنت معنا ، شعرت بأن النهار كله أصبح يمر كالثانية ، كالحلم القصير .
كان الوقت يهرب مني . أشعر به يهرب كما يهرب الماء من بين أصابعي . أتمسك به . أضم أصابعي . أشد عليها . لكنه مع ذلك يهرب .

وأغالط نفسي . أقول أن الاضراب سيطول . وأنك ستبقى معنا . وأن الحكومة لن تعرف مكانك .
وأنك قد تبقى مختبئاً هنا لسنوات حتى أكبر ، وتتزوجني ، وأبقى معك العمر كله .

ومع الأيام كدت أقتنع بأن هذا ما سيحدث .
ونسيت خوفي ، وقلقي ..
وبدأت أنتظر الأيام ، والأسابيع ، والأشهر ، والسنوات أن تمر .. كي أكبر ، وتتزوجني .
إلى أن كانت ذات ليلة . وكنا جميعاً نياماً ، وفجأة سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب .
نهضنا مذعورين ، وفتح والدي الباب ليجد مختار الحارة يقول له بصوت مذعور : العسكر يبحثون عن يوسف . لقد طوقوا الحارة . انهم سيفتشونها منزلاً منزلاً . انهم يطلبونني كي أفتش معهم .

لم يكن ما قاله المختار مفاجأة . كنا نتوقع أن تبقى الحكومة في أثرك حتى تجدك .
المفاجأة ، كانت في أننا لم نكن مستعدين لها .
جلسنا جميعاً نفكر .
حتى والدتي تركت كل شيء وجاءت تشترك معنا في ايجاد حل .

قلت أنت فوراً : سأسلم نفسي . سأذهب إلى السجن .

رفض والدي ، اقترح ، أن تلبس ثياب امرأة وتتسلل من الحارة عن طريق السطوح المتلاصقة التي لا يعرفها الجنود ، ولا يتقن التسلل منها إلا من كان من أهل الحارة .

غضبت أنت . هذه حارتك . لن تتسلل منها في ثياب امرأة تحت جنح الظلام . ستذهب إلى السجن . يجب أن تذهب إلى السجن . يجب أن تفهم الحكومة انك ، والمئات غيرك ، على استعداد للذهاب إلى السجن .

سجنك سيثير النقمة في صفوف الناس .
النقمة ، وقود جديد لاستمرار الاضراب .
النقمة ، عندما تحين الساعة ستكون شرارة للثورة .
رفضت أن تناقش الموضوع . نهضت لتلبس ثيابك . ثم عدت لتقول للمختار : أنا جاهز .
وعندما أغلق الباب خلفك ، لم استطع أن اغالب دمعي .

* * *

حدث ما توقعت . مع الفجر كنت حديث أهل الحارة . وبعد ساعات كنت حديث المدينة . وبعد يومين كنت حديث البلاد .

ما زلت حتى اليوم احتفظ بالصحيفة التي نشرت صورتك في صفحتها الأولى وكتبت تحتها : يوسف راشد أول سجين فلسطيني عقب الاضراب .

ولم يسمحوا لأحد بزيارتك إلا بعد اسبوع .
ذهبت مع والدك وأمك وأبي .
استغربوا اصراري على المجيء .
آه لو عرفوا كم كان حبك يملأ قلبي .
آه لو عرفوا سبب الدموع على وسادتي كل ليلة .
ولكن كيف لهم أن يعرفوا .
كيف لهم أن يفكروا لحظة ، أن فتاة الرابعة عشرة ، الطفلة الصغيرة ، عاشقة .

في السجن كنت أقوى منك خارج السجن .
سألت عن كل شيء . عن الاضراب . عن الأصدقاء . عن الحارة . كنت تسمي كل واحد من أهل الحارة باسمه . تسأل عنهم فرداً فرداً . احوالهم . أعصابهم . معنوياتهم . قلت لأبي أن يبلغهم رسالة منك . رسالة مختصرة . الصمود . قلت له أن يبلغهم أن المعركة لن تربح إلا بالصمود حتى النهاية .

عندما ودعناك كنت تبتسم . الابتسامة نفسها التي رافقتك طول حياتك . حتى ساعة موتك . الابتسامة التي كنت تواجه بها مواقف البطولة .

قبلت يد والدتك وطلبت منها أن تدعو لك .
أما أنا فقد وضعت راحتك الكبيرة واحتضنت يدي ثم قلت : شكراً على زيارتك يا سلمى .
وزاد اتساع ابتسامك ، وأنت تغرق عينيك في عيني .
شكراً ؟
أنت أيضاً غبي لا تفهم .
امنيتي . حلمي الأكبر في الحياة أن أقضي العمر كله في زيارتك . في زيارة متصلة لك .
لم أكن أعرف يومها أنني خلال حياتنا معاً سأزورك في السجن عشرات المرات .
لم أكن أعرف أنك ستصبح مع الأيام مدمناً للسجن .
لم أكن أعرف أن زيارتي لك في السجن ستصبح مع الأيام شيئاً عادياً في حياتي ، تماماً كزيارة اية صديقة من صديقاتي .

ظننت أن رحلتك هذه إلى السجن ستكون الرحلة الأخيرة .
لم أعرف أنها ستكون بداية سلسلة من الرحلات .
في حياتك جعلتني أزور جميع سجون ومعتقلات فلسطين .
مرة ، فكرت في أن أكتب كتاباً صغيراً عن سجون ومعتقلات فلسطين .
حتى الضباط العرب المسؤولون عن هذه السجون أصبحوا يعرفونني جيداً من كثرة ما ترددت على السجون .

مرات كثيرة كنت أذهب لزيارتك دون اذن . ويسمحون لي .
مرات كنت اجلس معك أطول بكثير من الوقت المحدد .
كنت أنا رسولتك إلى الخارج ورسولتك من الخارج . معظم الجنود المكلفين بالاستماع إلى حديثنا ومراقبتنا كانوا يغضون النظر والسمع معاً . هم أيضاً بالرغم من كونهم جنوداً كانوا معجبين بك يا يوسف .

معجبين ، كانوا بهذا الشاب المصمم على الكفاح من أجل وطنه وكرامته .
كثيرون غيرك توقفوا عن الكفاح بعد أول سجن ، وأول محاكمة .
أنت وهبت عمرك وحياتك من أجله ، ولم تلن لك عزيمة .
ليت عزيمتك لانت .
ليتك تراجعت .
ليتك جبنت ، كما فعل غيرك .
ليتك وفرت عليّ الترمل وعلى طفلك اليتم .
أو ليت عادة دفن المرأة مع زوجها ما زالت سارية . ليتهم وضعوني بجانبك عندما أهالوا عليك التراب ، لكننا الآن معاً ، كما عشنا معاً هذه السنين الطويلة ـ القصيرة في عمر السعادة .

أو ليت ...
ماذا تنفع « الليت » الآن .
كلمة ليت ، كان يمكن أن لا تقتلك .
ليت العرب ... حاربوا .
ليت العرب ... هيأوا أنفسهم للمعركة .
ليت العرب ... لم يقضوا السنوات في خلاف .
ليت العرب ... فهموا حقيقة الخطر على حدودهم .
ليتهم لم يتدخلوا في حرب ١٩٤٨ .
ليتهم ...
ليت ...

هباء هذا الكلام .
لقد مت . ذهبت . أنت لست هنا . لن تعود . أرض الحارة امتصت دمك عندما مزقت جسدك القنبلة .

أنت ذكرى فقط !

استقبلتك النساء بالزغاريد عندما خرجت من السجن بعد شهرين .
على قدميك بعثرن الورود والرياحين .
حملت على الأعناق من باب السجن حتى باب منزلك .
أصبحت ، وأنت في سجنك ، رمزاً لبطولة الحارة .
رمزاً لكفاحها .
رمزاً لاصرارها وصمودها .
رمزاً لاستمرارها في تحدي الحكومة واليهود .
ودخل الاضراب شهره الثالث .
تماماً كأول يوم .
الحارة ، المدينة ، كل المدن والقرى مغلقة .
صمود أشبه بالاسطورة .
اصرار على ايقاف هجرة اليهود .
اصرار على أن فلسطين عربية وستبقى عربية .
الشعب كله يد واحدة .
كلمة واحدة .
يذهبون إلى السجن بالمئات وعلى وجههم ابتسامة .
لم يصدق الانكليز واليهود في البدء ما حدث .
ظنوا أن الاضراب سينتهي خلال اسبوع على الأكثر
لم يروا في حياتهم مثل هذا التحدي .

ومع ذلك لم يتغير موقفهم .
لم يتحركوا .
وذات ليلة سمعتك تتحدث إلى والدي .
اخافني كلامك .
لم يعد الاضراب كافياً ، كنت تقول :
الثورة .
الثورة المسلحة !
العصيان المدني . الاضراب . لغة لم يفهمها الانكليز .
علينا أن نشعل النار .
والسلاح ؟ سأل والدي .
نشتري السلاح ... أجبت .
ندفع كل ما نملك ثمناً لمسدس .
نبيع كل ما نملك ثمناً لبندقية .
في اليوم التالي تحول اجتماعكما إلى اجتماع أكبر .
ضم الاجتماع عدداً كبيراً من أهل الحارة .

* * *

تقرر شراء السلاح .
الرجال دفعوا المال .
بعد يومين كانت النساء يدفعن المصاغ .
تسلمت أنت المال والمصاغ .
طلب منك أن تشتري السلاح بأي ثمن .
من أي مكان .
ومنذ ذلك اليوم أصبح غيابك عنا يطول . وأصبح كلامك يقصر . وكبرت فجأة عشرة أعوام .
وعلمت أنك قد بدأت تشتري السلاح ، عندما شاهدتك تحضر مسدساً لوالدي أخفاه تحت بلاط المطبخ .

ولم أعلم أن الثورة بدأت إلا عندما قرأت ذلك في الصحيفة .
وإلا عندما عدت إلينا ذات ليلة ووجهك مصفر ، وثيابك ممزقة ، والجراح تملأ راحتيك ، وفي عينيك بريق جديد لم اعهده من قبل .

وبدأت تهمس في أذن والدي ، وحاولت أن اسمع من بعيد حيث كنت أختبئ ففشلت . الشيء الوحيد الذي سمعته هو أنكم تمكنتم من قطع الطريق .

أي طريق ؟ لم أعرف .

وبدأت زيارات الجنود الانكليز للحارة وللحارات المجاورة تتكرر .
واتسعت عمليات الاعتقال .
واتسعت عمليات البحث عن السلاح .

لم نعد نستغرب أن يطرق باب أي منزل في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ليبدأ البحث عن السلاح .

من وجدوا في منزله سلاحاً مهما صغر سيق فوراً إلى السجن .
أصبح منظر الجنود وهم يقودون الناس إلى الاعتقال منظراً عادياً جداً بالنسبة إلينا .
فتش الجنود منزلك عشرات المرات ، وعجزوا عن العثور على أية قطعة سلاح .
حققوا معك طويلاً لكن بلا فائدة .
أين كنت تخفي السلاح ؟ لم أعرف إلا منذ أيام عندما عثر عليه جنود إسرائيل .
طول أعوامي معك لم أكن أعرف أين تضع السلاح .
أنت لم تقل لي وأنا لم أسألك .
عودتني في مسائل كثيرة أن لا أسأل .
ولم أسأل ما دمت أنت لم تخبرني .
فترة وحيدة لم تهتم باخفاء السلاح . كان ذلك عام ١٩٤٨ ، عندما خرج الانكليز ، وأصبحت الحرب مع اليهود علانية ، ولم تعد في البلاد حكومة غريبة .
وعاد السلاح إلى الاختفاء فور انتهاء الحرب .
ولم يظهر إلا مرة واحدة .
٥ حزيران عام ١٩٦٧ .
ظهر فجأة كما اختفى .
انه مرتبط بالمعركة .
كلما اشتعلت معركة ظهر السلاح في يدك كأنه جزء منك .
لكنك عندما سقطت قتيلاً ، لم يكن في يدك سلاح ، لانك لم تكن في معركة . كانت المعركة

قد انتهت وسقطت القدس . وسقطت حارة النصارى . وسقطت البلاد كلها .

قد يكون هذا هو السبب في موتك .

لوكان في يدك سلاح لما قتلت .

سلاحك في يدك كان أقوى من جميع اعدائك .

إلى اليوم لا أصدق أنك قتلت بسلاح صديقك .

صديقك ، ورفيقك ، وزميلك يقتلك ؟

مهما كانت الظروف والأسباب فأنا لا اصدق .

برغم انه مات بعدك بدقيقة فأنا لا اصدق .

قيل أنك انت الذي دفعته إلى قتلك .

طلبت منه أن يقتلك ، وانت ترى نفسك محاطاً بجنود اسرائيل ، وبلا سلاح .

أنا لا أصدق . انا ارفض أن اصدق .

اتعرف متى شعرت لأول مرة بأنك تحبني ؟

ليلة رفضت أن تأخذ شقيقي الأصغر معك إلى احدى معاركك . ويوم أصر على الذهاب فقلت له أن عليه أن يبقى في المنزل ليتولى السهر علي .

لم تقل له أن يبقى ليتولى السهر على والدي أو والدتي .

قلت له أن يبقى ليحرسني في غيابك .

وأصر أخي على الذهاب . ناقشك طويلاً . قال أنه سيبلغ الثامنة عشرة من العمر قريباً وواجبه أن يدافع عن وطنه لا أن يحرس النساء في المنازل ، خصوصاً أن لا احد يعتدي على الفتيات والنساء في المنازل .

وأخذته معك رغماً منك . لم تستطع أن تمنع شاباً من الكفاح وأنت الذي تضرب مثلاً لكل الشبان في الكفاح .

أتذكر كيف وقفت والدتي على باب المنزل توصي ابنها وتوصيك بأن تحرصا على نفسيكما . هي أيضاً لم تستطع أن تمنع ابنها من الذهاب ، مع أنها في قرارة نفسها تود لو بقي نائماً في فراشه .

أية أم في الدنيا تريد أن يموت ابنها ، أو أن يعرض حياته للخطر .

والدي بقي صامتاً . لم يدخل في الموضوع . لكنني شعرت بأنه سعيد بقرار ابنه . سعيد لأن ابنه سينضم إلى قافلة الشبان . سعيد لأن شاباً من لحمه ودمه سيقف الليلة يحتمي بالعتمة ، يده على زناد سلاحه ... يقاتل .

في تلك الليلة لم تنم أمي .
سمعتها مراراً من غرفتي وهي تتحرك في المنزل .
كنت أنا أيضاً عاجزة عن النوم .
كانت هي تفكر في ابنها .
وكنت أنا أفكر فيك .
غريب أن أهتم بك ، وبسلامتك ، أكثر من اهتمامي بشقيقي وبسلامته .
أحب شقيقي . لا أريده أن يصاب بأذى . لكنني عندما ذهبتما معاً إلى المعركة نفسها ، وإلى المصير نفسه ، لم أفكر إلا فيك .

أصبحت أنت ، أنت وحدك محور حياتي . فيك أفكر ، ومن أجلك لا أنام الليل .
وأكثر ما آلمني ، وأرق لياليّ ، أنني لم أكن استطيع التحدث مع أحد عنك .
ماذا أقول لهم ؟
عاشقة ؟
من كان في عمري يجب أن لا يفكر إلا في لعبه ... ومدرسته ... ومشاكل الصغار .

كم من مرة كنت اصحو في الليل لاخرج عدد الصحيفة التي نشرت صورتك يوم اعتقالك ولاعيش مع الصورة طوال الليل .

لم يتغير شيء ...
بعد هذه الأعوام الطويلة عدت أعيش مع صورة .
الليلة أعيش مع صورة .

من الآن حتى موتي سأعيش مع صورة .
لم يتغير إلا شيء واحد ...
تلك الليلة ، وكل ليلة بعدها ، كنت تعود فاخفي الصورة لاعيش مع الأصل .
أما الليلة ، وكل ليلة أخرى ... فلن تعود .
أكاد أجن كلما فكرت في أنني لن اسمع وقع خطواتك تقترب من الباب ، ومفتاحك يدور في الاكرة ، ثم صوتك ينطلق فجأة وأنت ترى نور غرفة النوم ما زال مضاء :

ـ سلمى ... أما زلت مستيقظة ؟
ـ بانتظارك ... يا يوسف .
ـ ألم أقل لك أنني سأتأخر الليلة ؟
ـ لا استطيع النوم قبل عودتك مهما تأخرت .

وتسكتني شفتاك عن متابعة الحديث .
ثم اهدأ في حضنك ... وأنام .
انتهى هذا . لن تعود . لن تعود .
رباه . ساعدني على احتمال هذا .
تلك الليلة تأخرت انت وشقيقي .
كاد الفجر يطلع وانتما لا تزالان في الخارج .
ازداد قلق أمي .
أيقظت والدي .
انضممت إليهما ، وجلسنا ننتظر .
وفجأة سمعنا وقع اقدامكما .
هرعت أمي إلى الباب . فتحته . اضاءت النور . وصرخت . ثم تهاوت على الأرض .
ركض والدي . ركضت .
صرخت .

تعالى صراخ أمي من جديد :

ـ اغلقا الباب خلفكما .

تكلمت أنت . قلت لوالدي :

ـ بسرعة ، احضر بعض القطن واليود والماء الساخن ... أنه جريح .

كان الجريح ... أخي .

وهرعنا نحضر ما طلبت .

وبدأت تنظف الجرح ..

كانت أعصابك هادئة وأنت تنظف جرح أخي ، وتشد عليه الرباط .

اصابته لم تكن بالغة . رصاصة في ذراعه ، لم تمس العظم ، وإنما كانت دماؤه تملأ صدره ووجهه.

عندما انتهيت ، بين دعاء أمي ، وقلق أبي ، ودموعي الصامتة . التفت إلى أبي لتطلب منه أن يذهب ويستدعي أحد الأطباء العرب ، من أصدقائنا .

قلت له :

ـ علينا أن ننقل سمير من هنا بسرعة إلى احدى القرى . لو وجدوه هنا في أثناء حملات التفتيش لاعتقلنا جميعاً . لكننا لا نستطيع نقله قبل أن يعالجه الطبيب .

وذهب أبي . وبقيت أمي إلى جانب شقيقي . أما أنا وأنت فجلسنا في الصالون . على الأصح جلست أنا أرقبك وأنت تزرع الغرفة ، تحرق السيجارة تلو الأخرى ، وتنظر إلى ساعتك كل دقيقة .

لم أكن قلقة من أجل أخي . لم أفكر فيه . وفي جرحه . كنت أملأ عيني منك . أشبع من كل لحظة أنت فيها معي لوحدك .

لم أحاول أن أقطع عليك قلقك وتفكيرك .

اكتفيت منك بأنك معي .

هذا يكفيني .

العمر كله كنت على استعداد لأن أقضيه ، أنظر إليك فقط . .
فجأة توقفت عن المشي . توقفت أمامي كأنك تكتشف لأول مرة أنني في الغرفة .
ورفعت عيني إليك . كنت تحدق فيّ . تأكلني بعينيك . الحنان كان يلمع في عينيك . كنت تهرب من واقعك بالنظر إلي . كنت تسبح في عالم آخر وأنت تنظر إلي . لم تكن في عينيك قسوة . لم تكن في عينيك ثورة . كان في عينيك هدوء .

وخفضت نظري . لم استطع أن اتابع النظر في عينيك . خفت أن تفضحني عيناي .
لكنني وجدت نفسي أقول لك فجأة ، وبلا وعي :
ـ خفت عليك أمس ...
ولم تجب . اردتني أن استمر في الحديث . وتابعت :
ـ لم أنم طوال الليل . كدت أجن وأنا في انتظارك .
وتكلمت . تحول الحنان من عينيك إلى صوتك . قلت هامساً :
ـ بانتظاري ... أم بانتظار سمير ؟
ـ بانتظارك .. وانتظار سمير . لكنني تركت القلق على سمير لأمي .
ـ ولماذا تخافين علي ؟...
ـ أخاف أن لا تعود ...
وإن لم أعد ؟ ..
وصرخت مذعورة :
ـ لا تقل هذا ... لا سمح الله .
وضحكت . ومددت يدك إلى شعري تداعبه ، وأنت تقول :
ـ لا تخافي يا سلمى ... سأعود دائماً .
وتركت يدك تعبث بشعري . ثم مددت يدي ووضعتها في يدك الأخرى ، وأنا أشعر بأن الدنيا قد أصبحت بين يدي .

كان هذا هو الحديث الوحيد الذي دار بيننا عدة أشهر .

عاد والدي فجأة ومعه الطبيب . وبعدما ضمد الطبيب جرح أخي تم نقله فوراً إلى قرية الطيبه حيث تقيم عمتي .

أما أنت فاستمر غيابك كل ليلة .
أصبحت تغيب أحياناً عدة أيام .
وبدأت أخبار المعارك التي تخوضها أنت ورفاقك تملأ الدنيا . .
قطعتم الطريق بين القدس ويافا .
وقطعتم كل طريق يمر فيها يهودي .
اغلقتم ميناء يافا لتمنعوا الهجرة .
قمتم بعشرات الغارات على قوافل الجنود الانكليز .
ارعبتم الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس .
أصبحتم القلق الدائم لها .
بقيت البلاد مضربة . وبقيت الثورة مشتعلة .. وارتفع عدد المعتقلين إلى الآلاف .
فتحوا لكم معسكرات خاصة للاعتقال .
الشعب كله اشترك في الثورة . قاطع اليهود . قاطع الانكليز . الصحف كانت تلهب نار الثورة كل صباح .

ثم تحولتم إلى الاغارة على مدن ومستعمرات اليهود .
كان كافياً أن يدخل خمسة منكم إلى أي حي من أحياء اليهود ، ليهرب أهله من منازلهم كالأرانب .

بعض قصصكم كان كالاسطورة .
أو هو في الحقيقة اسطورة .
قصة سائق سيارة الشحن الذي أجبره فريق من الجنود الانكليز على نقلهم من القدس إلى يافا تحت تهديد السلاح . ولما وصلت بهم السيارة إلى باب الواد ، والمسدس ما زال مصوباً إلى رأس السائق ، أدار مقود الشاحنة نحو الوادي لتتدهور السيارة .

هذا الرجل . هذا السائق . هذا الشهيد بقي مجهول الاسم . انه أحد العشرات من الجنود المجهولين الذين أعطوا حياتهم ، ويعطون بصمت .

خميس .. نسيت بقية اسمه .
خميس .. بطل يافا ، الذي كان اسمه كافياً لالقاء الرعب في يهود تل أبيب ، وكل المنطقة .
خميس .. الذي كان يصلي كل ليلة أن لا يموت إلا في معركة . أن لا يموت على فراشه . وردتنا اخباره وكيف أصبح يبكي كالمرأة الثكلى عندما لم يسمع الله دعاءه .. فمات على فراشه .

عشرات الأسماء . وعشرات بلا اسماء .
شموع كثيرة أضاءت طريق الثورة .
لم تبك أم عندما كان يأتيها نبأ استشهاد ابنها . كانت تزغرد . كانت تقيم الأفراح . كانت تخرج وراء النعش مرفوعة الرأس . شامخة القامة . انها تزف ابنها إلى الجنة .

لم تكن في منازلهم مآتم . كانت فيها أفراح دائمة .
لم يهرب الناس من الموت . كانوا يذهبون لملاقاته ، بفرح ، كأنهم في طريقهم إلى حفلة راقصة .

الأطفال كانوا يعدون الأيام كي ينمو الشعر على ذقونهم ، ليحملوا السلاح وينضموا إلى القافلة .

كل فرد حمل السلاح .
كل طبقات الشعب اشتركت في المعركة .
المحامي حمل السلاح إلى جانب المزارع .
والطبيب كان يموت إلى جانب السائق .
والصحافي استشهد مع الموظف .
الأيام لم تخمد المعركة . زادتها استعاراً ولهيباً .
وأصبحت اسطورة . اسطورة الحارة والمدينة والبلاد .
وأصبحت مطارداً من قبل الحكومة . لذلك أصبحت زياراتك نادرة ، وسريعة ... ولا تحدث إلا في الليل .

وعشت معك ومع أخبارك .
عشت من أجلك .
عشت من أجل اللحظات النادرة التي أراك فيها عندما تحضر .
وعندما تحتضن يدي الصغيرة بيدك الكبيرة وتضغط عليها بحنان .
مرة ، همست في أذني ، عندما خلوت بي للحظات :
ـ ألم أقل لك بأنني سأعود ... سأعود دائماً .
وكنت تعود .
دائماً تعود .
كعودة الأطفال تعود .
إلا هذه المرة ...

بعد أكثر من ثلاثين عاماً اخلفت وعدك معي ولم تعد . ذهبت إلى الأبد .
كذبت علي . عندما خرجت من المنزل يحيط بك جنود إسرائيل برشاشاتهم ، قلت لي أنك ستعود .

ولكنك كنت تكذب .
كنت تعرف أنك لن تعود .

انك لن تتحمل القدس في ظل الاحتلال .
إن أعصابك ستخونك .
انك ستموت وأنت ترى إسرائيلياً يقبل إسرائيلية في المسجد الأقصى أو على قبر المسيح .
ولم تعد ...
ولن تعود ...
كانت رحلتك الأخيرة .
القدس ، بعد رحيلك ، اظلمت . أصبحت مدينة للأشباح .
كل يوم يقبل إسرائيلي إسرائيلية في المسجد الأقصى وفي كنيسة القيامة .

انهم يتصورون هناك .
انهم يرفعون علمهم هناك .
انهم يتحدوننا . يتحدون شعورنا . يحتقروننا .
يعاملوننا كمنتصرين .
أنا لا ألومهم . لقد انتصروا يا يوسف . قتلوك . قتلوا اخوانك . شردوا شعبك . احتلوا كل وطنك . كل شبر من وطنك تحت رحمتهم . نحن تحت رحمتهم . أنا تحت رحمتهم . طفلك تحت رحمتهم .

أصغر جندي منهم يبصق في وجوهنا إذا شاء .
يغلقون علينا أبواب المنازل كالأرانب .
يقطعون عنا الماء . الغذاء . الكهرباء .
يسمحون لنا بالتجول يوماً ، ويمنعوننا أياماً .
إذا أردت الخروج إلى القدس ، عليّ أن أقف في باب الحاكم العسكري الإسرائيلي عدة ساعات مع مئات الناس .

قد يقبل . قد يرفض .
قد يطردني .
لا استطيع أن احتج . لا استطيع أن أعارض . حارسه سيضربني . سيركلني . سيبصق في وجهي . سيلقي بي في الشارع . الست امرأة من الشعب المنهزم . الست واحدة من الشعب الذي خسر وطنه في ساعات . الست واحدة من الشعب الذي حارب وكافح وناضل خمسين عاماً ، ثم قضي عليه في خمس ساعات .

لو كنت رجلاً مثلك يا يوسف ، لمت من القهر . والذل .
حتى لو لم أكن رجلاً ، لو كنت امرأة بلا طفل .. لمت من القهر والذل .
أنت حاربت معركة ، وخسرت . ومت .
لم تذق مرارة الهزيمة .

لم يجلس على صدرك شبح الاحتلال أكثر من ساعات .
هذا الشبح يجلس على صدورنا منذ أشهر .
انه يخنقنا . يخنق انفاسنا .

أمس كان يوم السبت . يوم عطلتهم . عيدهم . مئات منهم حضروا إلى هنا . إلى القدس . حضروا لزيارة حائط المبكى . لكنهم لم يبكوا . لم يذرفوا دمعة واحدة . منذ مئات السنين وهم يزورون الحائط يبكون ، أما اليوم وقد أصبحت لهم القدس ، فلماذا يبكون .

انهم يتزوجون بجانب الحائط . يفرقعون زجاجات الشمبانيا . يرقصون ، يغنون .
ونحن ... نبكي .
نحن نبحث عن حائط مبكى .
نبكي على جداره الوطن الضائع . الكرامة الضائعة . التاريخ الضائع .
غداً عيد الميلاد .
منذ أن وعيت الدنيا ، ليلة الميلاد في القدس وبيت لحم كانت أحلى ليلة .
انها أظلم ليلة .. يا يوسف .
في المدينة كلها لم ترتفع شجرة ميلاد واحدة .
لم يزين منزل . لم تزين واجهة دكان .
أجراس الكنائس تدق دقات الحزن .
الناس لا يصلون . الناس يختبئون في منازلهم . يختبئون وهم يحضنون أطفالهم . يخبرونهم قصصاً عن الوطن .

ابنك سألني عن شجرة العيد .
ـ هل يحضرها بابا معه عندما يعود ؟
قال لي : لم يتأخر بابا عن عيد واحد في الماضي . كان يشتري شجرة العيد ، يزينها ، يضع لي تحتها هدية . هدايا .

أخبرته بأننا لن نشتري شجرة عيد هذا العام لأن بابا غائب . مضطر أن يغيب . لن يحضر معنا هذا العيد .

ـ والعيد المقبل ؟

سأل باصرار .

لم أجبه يا يوسف . بكيت أمامه .

بماذا أجيبه يا حبيبي .

ماذا أقول .

انه يكبر كل يوم . يسأل عنك كل يوم . يناديك كل يوم . الطفل في حاجة إلى أب يا يوسف . وأبوه ميت .

أنا أبوه . وأمه .

أنا كل أهله .

لن يعيد ابنك هذا العام يا يوسف .

لن يلبس ثيابه الجديدة .

لن يشتري لعباً جديدة .

المدينة مهجورة يا يوسف القدس مهجورة . أصبحت أجمل مدن الدنيا ـ كما كنت تقول ـ مدينة الأشباح .

* * *

يذكرني هذا العيد الحزين ، بعيد حزين آخر ...

العيد الأول بعد حرب عام ١٩٤٨ .

يوم ضاع النصف الأول من الوطن .

ليلتها . ليلة العيد . وكنا وحدنا . ولم يكن رجاء قد اقتحم حياتنا بعد ، جلست انت في المنزل ، وبكيت .

كانت هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها تبكي .
بكاء رجولة كنت تبكي .
بكاء قهر .
صعدت إلى سطح المنزل ونظرت من بعيد إلى نصف القدس الضائع . إلى الأنوار البعيدة . وبكيت .

مدينتك هذه .
دماؤك روت أرضها أكثر من مرة .
قدت فيها عشرات المعارك . وانتصرت .
كيف ضاعت . كيف سقطت . لا تدري .
في الليل أيقظني صوتك وهو يصرخ : كيف .. كيف ...
لا تعرف . لا أحد يعرف ذلك .
لم تخسروا معركة .
سقط منكم المئات .
دافعتم دفاع الأبطال .
ومع ذلك سقطت .
لم تعرف كيف ! إلا بعد زمن طويل .
سألتك ، فأجبتني باختصار : لقد سقطت عندما القينا نحن ، أهل فلسطين ، السلاح وسلمنا غيرنا الأمانة ليكمل المعركة .

لم تعرف تفاصيل كيف إلا بعد شهور طويلة . وسنوات طويلة .
قلت لي يومها : لن احمل سلاحاً بعد اليوم ، سأعيش كأي مواطن عادي . سأعود إلى الدكان لأعني به .

وعدت إلى الدكان .
ولم تحمل سلاحاً بعد ذلك أبداً .
من الذي وضع السلاح في يدك يوم الخامس من حزيران ؟

من الذي جعلك تحارب وقد اقسمت لي أن لا تحارب بعد ولادة رجاء
من الذي جعلك تؤمن بعدما كفرت .
من الذي جعلك تعتقد أن هذه المعركة ستختلف عن غيرها وأن ما ضاع سنة ١٩٤٨ سيعود سنة ١٩٦٧ .

لقد ضاع الباقي . وضعت أنت .
ما هي هذه القوة التي تدفعك إلى الحرب .
ما هو هذا الحب الكبير الذي يملأ قلبك .
خيل إلي مرة ، أنني فهمت هذا الحب .
أما الآن فأعترف بأنني لم أفهمه .
كيف يموت إنسان من أجل وطنه ، ويترك وراءه زوجة وطفلاً .
الا أعرف . لا أعرف أي شيء .

حتى والدي .. والدي وهو على عتبة الستين ، انتقل ايمانك إليه . قال لك عندما جرح أخي وكان شقيقاي الآخران لا يزالان في بيروت ، قال لك : إذا سقط منا واحد فعلى الآخر أن يكمل ، أريد أن أشترك معكم في القتال .

بجهد جهيد استطعت اقناعه أنكم لستم في حاجة إلى مزيد من الرجال ... وأن دوره ودور من كانوا في مثل عمره ليس على أرض المعركة وإنما في المقاومة الصامدة ، في استمرار الاضراب . قلت له أن دورهم لا يقل عن دور الجندي الذي يحارب في الجبهة . وأنهم أن لم يصمدوا فستنهار الجبهة .

الذي فاجأنا جميعاً ، بما فيهم أنت ، أن شقيقي سمير بعدما شفي من جرحه لم يعد إلى القدس ، وإنما ذهب إلى نابلس ، إلى جبل النار كما كانوا يسمونه وانضم إلى المناضلين هناك يحارب .

شعرت أنت ليلتها ، بعد المفاجأة بالاعتزاز . أنه أولاً شقيقي ، وثانياً أحد أبناء وطنك . لم ترهبه الرصاصة الأولى التي أصابته في المعركة الأولى . بالعكس ، خلقت منه رجلاً مناضلاً عنيداً .

أراد أن يرد الرصاصة رصاصات . وردها رصاصات . كنت تسأل عنه رفاقك الذين يقدمون من نابلس وجنين وقلقيلية ، أجاباتهم كانت تبعث في نفسك النشوة .

مرة واحدة رأينا سميراً . حضر في الليل . جاء ليطلب نقوداً من والدي يشتري بها المزيد من السلاح . قبل يد والدتي ، ووالدي ، وخدي . أخذ النقود . شرب فنجاناً من القهوة . ثم اختفى من جديد .

عبثاً حاولت والدتي اقناعه بالبقاء .
عبثاً بكت ... واسترحمت .
قال لها : سأعود بعد أن ننتصر . ونحن منتصرون باذن الله .
لم يعد سمير ابن الثامنة عشرة .
فجأة أصبح رجلاً . رجلاً كبيراً .
المعركة حولته إلى رجل .
احببت شقيقي تلك الليلة ، كما لم احبه من قبل .
رأيت فيه شيئاً منك .
في كل مناضل فلسطيني شيء منك .
في كل من حمل السلاح في القدس ، يافا حيفا نابلس جنين ، في كل قرية ، في كل شارع ، كل حارة .. في كل هؤلاء شيء منك يا بطل .

لم تحارب لتصبح زعيماً .

لم تحارب لتصبح قائداً .
حاربت لأن شيئاً في داخلك يدفعك لأن تحارب .
لم تناقش قبل أن تدخل معركة .
يخيل إلي أيضاً أنك لم تفكر .
أحببت فلسطين . فلسطين مهددة . عليك أن تحارب فحاربت .
خسرت ثورتين .. حربين .. ومع ذلك حاربت .

مصير رفاقك لم يردعك قبل أعوام ..
عام ١٩٥٢ بالضبط ، عندما ذهبنا إلى جنين لزيارة أحد أقاربك ، وشاهدت زوجة رفيقك الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود تمشي عارية في الشارع ، مجنونة ، والناس يشيرون إليها ويتهامسون : مجنونه . أطفالها جياع . عقلها ضاع . ألم تتعظ . ألم تقل لي ونحن في طريق العودة أن هذا هو مصير زوجة كل مناضل في هذا البلد .

هل أردت لي هذا المصير وأنت تموت ؟
هل أردت لي هذا المصير وأنت ... تنتحر ؟
هل أردتني أن أسير في شوارع القدس عارية ؟
هل أردتني أن أقف على عتبة منزلك أستجدي المارة . المارة الذين وهبت حياتك من أجلهم كي يجودوا علي بما يطعمني ويطعم ابنك .
رفيقك الشاعر الشهيد ألم يقل :

سأحمل روحي على راحتي	وألقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق	واما ممات يكيد العدا

هل كاد موته العدا ؟
لم يكد إلا زوجته وأطفاله .
موته لم ير بحنا الحرب عام ١٩٤٨ .
ألم تتعظ ؟
ألم تتعظ عندما رأيتها ؟
ألم تقض الليل وأنت تتقلب في فراشك وتذكر منظرها ؟
أخبرني لماذا لم تمد يدك وتعطي زوجة صديقك عشرة قروش ؟
هل خجلت ؟

خجلت من نفسك .
أم من أمتك التي تقدم هذا المصير لزوجات أبطالها .

منذ مئات الأعوام ونحن ندوخ الدنيا بالحديث عن الشهامة العربية ، والنخوة العربية .
أين كان هذا الكرم . وهذه النخوة ، ليصد عن هذه المرأة العوز فالحاجة ، فالاستجداء .. فالجنون ؟

أخبرتك أنني بعت الدكان .
ألا تكفيني نقود الدكان ؟
لا أدري !
بعد سنوات ، سأبيع البيت .
ثم ماذا أبيع يا بطل ؟
انتظر . هناك قرع شديد على الباب .
هل عاد جنود اسرائيل يبحثون عن السلاح ؟
سأتركك لحظات .
القرع يشتد .
أنا خائفة يا يوسف ، يوسف أين أنت لترى من القادم .
ـ نعم .. مين ؟
الثورة أصبحت كالنار .
اندلعت في كل مكان .
واشترك فيها الكل .
وخاض شعبنا أبسل معركة في التاريخ .

قاوم وحده جيش الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . .
قصص بطولات أصبحت أسطورة في كل مكان .
اذكر يوم جئت إلى المنزل ورددت لوالدي ما سمعته عن لسان الجنرال الانكليزي هنري ولسون ، عدوكم الأكبر ، والذي كان يقود القوات البريطانية ، فقد قال الرجل ما خلاصته :

« ان خمسمئة من ثوار عرب فلسطين يعتصمون في الجبال ويقومون بحرب العصابات ، لا يمكن

التغلب عليهم بأقل من فرقة بريطانية كاملة السلاح » .

كنت تروي ما سمعته لوالدي ، وتتحدث بحماسة كالأطفال ، قلت له :

ـ أتعرف عدد أفراد الفرقة البريطانية التي تحدث عنها الجنرال ؟ عددها خمسة عشر ألف جندي هذا يعني أن كل رجل منا يساوي ثلاثين منهم ... وهذه شهادة رجل عسكري كبير ، رجل نخوض معه في كل يوم معركة .

وعلقت المشانق .
وامتلأت السجون .
وافتتحت المعتقلات الخاصة .
وارتفع عدد المساجين والمعتقلين إلى الآلاف من جميع طبقات الشعب .
يتحدون اليهود .
يتحدون الانكليز .
صوتهم يدوي كالرعد كل ليلة وهم ينشدون :

يا ظـلام السـجن خـيم   انـنا نهـوى الظـلاما

أنت ، كنت بين القلة التي لم يستطيعوا اعتقالها ، بالرغم من أنهم كانوا يطوقون حارة النصارى كل يوم بحثاً عنك .
وتباعد لقاؤنا .
بل انقطع فترة طويلة من الزمن بناء على نصيحة والدي خصوصاً بعد أن اعتقل شقيقي سمير .
وأصبح في لقائنا شوق .
أرى الشوق في عينيك . في لمسة يدك . في لهفتك وأنت تسأل عني . وأصبحت الثورة ، والقتال ، جزءاً مني لأنها جزء منك .

بكيت معك ، يوم بكيت على شيخ في الثمانين أعدمه الانكليز في رمضان وهو صائم .
نسيت اسمه الكامل الآن .
الشيخ ... السعدي على ما أذكر .

وبكيت معك ، يوم بكيت ، على كل مجاهد لم يمت على أرض المعركة . بل على أعواد المشانق .
مع ذلك . مع كل ما حدث . لم تهدأ الثورة . كأنما زادتها السجون وأعواد المشانق اشتعالاً .
العالم كله تحدث عن بطولاتكم .
ألم يقل أحد كبار ساسة العراق :
« لقد كنا في زياراتنا الماضية لأوروبانتحاشى التظاهر بأننا عرب . لكننا هذه المرة ، بعد جهاد عرب فلسطين وبطولتهم التي طبق ذكرها آفاق أوروبا ، أصبحنا نفتخر بعروبتنا وصرنا نلقى من الأوروبيين كل اجلال واحترام ؟ » .

كانت هذه الكلمات وغيرها تهزك طرباً ، وتزيدك حماسة . .
كنت واثقاً من النصر .
كنت واثقاً من أن الانكليز سيتراجعون عن موقفهم وأن هجرة اليهود ستتوقف ، وأن فكرة انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، ستلغى .

لا يفل الحديد إلا الحديد .
كنت تقول .
لن يلغي وعد بلفور إلا الثورة .
ولن يلغي قرار عصبة الأمم الذي اتخذ عام ١٩٢٢ والذي خول فيه حكومة الانتداب تنفيذ انشاء الوطن القومي اليهودي وفقاً لوعد بلفور ، إلا النار .

كنت تقول : لنجعل العالم كله يشعر أن كل مغتصب لأراضينا سيذبح .
وقد شعر العالم بهذا ...
وشعرت به بريطانيا أكثر من كل العالم .
وبدأ ذكاء الأمبراطورية يعمل .
وكنت أولى ضحايا هذا الذكاء !

لن أنسى تلك الليلة .

جئت إلى المنزل وفي عينيك لهيب لم أره إلا ليلة جئت تقنع والدي باعلان الاضراب .
ودخلت مع والدي إلى غرفة النوم . وأغلقتما الباب خلفكما .
ولم أستطع أن أقاوم فضولي . فتسللت على أطراف أصابعي ثم ألصقت أذني بالباب .
أتى صوتك إلي هادراً .
كنت تتكلم بعصبية .
لم أفهم من الحديث إلا كلمات مبهمة ، مخيفة ، أرعبتني .
« خونة ... خائن ... الخائن يجب أن يموت . موته سيعطي درساً لغيره » .
ولم أفهم ولم أسمع اجابات والدي . كان يجيبك بصوت منخفض .
كل ما عرفته عندما خرجتما بعد ساعة أن والدي لم يكن موافقاً ، ولأول مرة ، على كلامك .
فقد قال لك وهو يودعك :
« تذكر كلامي ... لن يستفيد إلا اليهود والانكليز مما ستفعلون هم يريدون حادثاً مثل هذا لاستغلاله » .

أما أنت فكنت مصراً على موقفك .
ولم أعرف سر هذه الجلسة إلا بعد أعوام . أعوام طويلة ... اعترفت لي خلال حديث عابر بأن والدي كان مصيباً في رأيه ، و « ليتني » ، كما قلت ، « استمعت إلى نصيحته » .

جئت تلك الليلة ، تبلغ والدي أنكم قررتم اغتيال كل من يتعامل مع العدو ، خصوصاً أولئك الذين يبيعون أو « يسمسرون » لبيع الأراضي لليهود .

دافعك إلى هذا كان صدق وطنيتك . اخلاصك للثورة ، إذ كيف يقتل عشرات الشبان الفلسطينيين كل يوم من أجل أن لا تذهب الأرض إلى اليهود ، وهناك من يبيعهم هذه الأرض .

وبعد خمسة أيام بالضبط ، انطلقت رصاصات في الظلام لتضع حداً « لسمسرة » أول عميل .

ثم ... قتل الثاني .
والثالث ...

والعاشر ...

والعشرون ...

وصفق الناس .

وهللوا .

وصرخوا : الموت للخونة .

ثم توقف التصفيق .

وخفت التهليل .

واختنق الصراخ .

وعقب ذلك : تساؤل ؟

هل جميع أولئك الذين قتلوا ، ويقتلون ، وسيقتلون ، خونة ... سماسرة ... بياعو أرض ؟

آخر واحد قتل ، كان رجلاً وطنياً بشهادة الجميع .

والذي سقط بعده كان أحد كبار زعماء القدس .

هؤلاء ليسوا خونة .

الخائن هو الذي امتدت يده لقتلهم .

وانحرفت ... الثورة !

وبدأ العرب يحولون بنادقهم من صدور اليهود والانكليز إلى صدور بعضهم البعض .

وانتشرت موجة الاغتيال بشكل لا يمكن أن يكون عفوياً .

شكل مدبر ...

مدروس .

وراءه كل ذكاء بريطانيا واليهود .

وجئت ، كعادتك ، تبكي .

ولم يبك معك والدي ، كعادته ، فقد كنت مخطئاً ، قال لك بغضب :

ـ ألم أقل لك أن الاغتيال سلاح ذو حدين ، اليك النتيجة ... لقد قتلتم الثورة .

كل هذا الكلام لم أفهمه إلا بعد أعوام .

أعوام طويلة .

عام ....

عام ١٩٤٨ .

والحرب بيننا وبين اليهود على أشدها .

وأنت ، كعادتك أيضاً ، بطل من أبطالها ، ومجاهد من مجاهديها ، وقائد من قوادها .

وجاءك من يقول :

ـ بيننا خونة ...

واجبته بهدوء :

ـ اعرف ...

ـ انهم يتعاملون مع اليهود .

ـ اعرف .

ـ يجب أن نضع حداً لهم ...

ـ كيف ؟

ـ نقتالهم ....

ـ لن نقتال أحداً ، أمامنا الآن عدو واحد ، وعندما ننتصر عليه ، سنصفي حسابنا مع الآخرين .

ـ لكن ...

وحاول صديقك أن يقنعك ، وكان في مثل عمرك عندما حاولت أن تقنع والدي ، فإذا بك تنهره غاضباً ، وتكاد ، لولا تراجعه ، تقتاله هو .

وعندما هدأت ، اعتذرت له قائلاً :

ـ قبل أعوام طويلة ، عام ١٩٣٦ عندما كنت في مثل عمرك ، وعندي حماستك وطريقتك في التفكير نفساهما ، جئت اقترح على صديق لي ما تقترحه علي الآن ، ونصحني بالعدول عن فكرتي لكنني لم أقتنع ، وكانت النتيجة أن قتل عشرات الأبرياء . وقتلت معهم الثورة كلها . قبل موجة الاغتيالات كانت العائلة إذا سقط منها قتيل تقيم لموته عرساً . بعد الموجه أصبحت

العائلة تخجل من موت أحد أفرادها . فكل من قتل أصبح خائناً . في حياتي ما ندمت على عمل كما ندمت يوم سددت رصاص مسدسي إلى رأس أول خائن . دوافعي كانت وطنية . لكن في الثورات والحروب ــ وهذا ما علمتني اياه الأيام ــ ليس المهم أن تكون دوافعك نبيلة ، المهم أن تكون نتائجك طيبة ونبيلة أيضاً . يجب أن لا نستغل حماسة الناس في طريق خاطئ ، كما فعلنا في السابق . ليتني ، عندما ركع الخائن على قدمي يقبلهما طالباً أن أعفو عن حياته ، ليتني فعلت هذا ، لكنني ضغطت على زناد مسدسي وأنا أقول له : هذا جزاء كل عميل . وعندما سقط كانت نظرة الرجاء ما زالت في عينيه . حتى اليوم تأتيني هذه النظرة في الليل . لاحقتني . بعد ثورة عام ١٩٣٦ أقسمت أن لا أقتل عربياً بيدي مهما كانت الدوافع . اسجنه . نعم ، أضعه في قبو تحت الأرض . نعم ، أنفيه . نعم ، أي شيء إلا القتل . رصاصي لن يقتل عربياً ما حييت .

ولم يقتنع صديقك الصغير يومها . لاحظت من عينيه أنه لم يقتنع . لكنك منعته قسراً من القيام بالاغتيال ، وكان هذا كافياً بالنسبة اليك ، فلم تكن مهتماً بقناعته قدر اهتمامك ... بالنتيجة .

أمس ... في عام ١٩٦٧ تذكرتك يا يوسف .
تذكرت حديثك مع والدي عام ١٩٣٦ .
وحديثك مع صديقك عام ١٩٤٨ .
أمس ، فقط ... قتل الذين ما زالوا يقاتلون في أرضنا البطلة ... قتلوا خائناً في نابلس .
تذكرتك أمس ، وبكيتك أمس ، ووددت لو اجتمعت بأحد أبطالنا الجدد لأروي له قصتك مع الاغتيال .

ان صورهم التي تنشرها الصحف اليهودية هنا في أثناء تقديمهم للمحاكمة تذكرني بك .
انهم صورة طبق الأصل عنك عام ١٩٣٦ .
كلهم في ربيعهم العشرين .
نظرة الكراهية والحقد ... والبطولة في عيونهم .

التحدي يطل من وجوههم .
عندما أرى صورهم ، أشعر دقائق قليلة ، أنك لم تمت ، هؤلاء هم أنت .
أنت ... هم .
المعركة لم تنته . انها مستمرة بهم .
لو لم تمت لكنت أنت قائدهم . لاستفادوا من خبرتك . من نضالك الطويل . من معرفتك الدقيقة بصناعة الموت عن طريق حرب العصابات .
أخطأت عندما مت يا يوسف .
ليس ، بحقي ، وحق طفلك فقط ، ولكن بحق وطنك ، فلسطين ، وبحق مدينتك ، القدس ، وبحق حارتك ، حارة النصارى .
حارة البطولات ... لم تعد حارة البطولات .
أهلها خائفون .
شبابها خائف .
الجنود اليهود يستبيحونها متى شاؤوا . ليلاً ونهاراً .
لا أحد يهز في وجههم عصا .
انهم ينتقمون ، من كل ما فعلته بهم طوال أيام طفولتك مدة ثلاثين سنة .
الاغتيال سلاح ذو حدين ...
كرر والدي هذه العبارة على الأقل مئة مرة وهو يستمع إليك تروي قصصاً مخزية عن الاغتيالات يقولها والدي وأنت تصادق على كلامه .
يعيدها وأنت تكرر المصادقة .
والحديث يطول ، ويتشعب .
وعرض الوضع العام يأخذ معظم الليل .
وتعودان إلى حديث الاغتيالات ...
وتنتهـــي السهرة .
وتودعنا .

ولكننا لم نكن نعرف أن السلاح « ذا الحدين » ، كان يصل اليك بعد دقائق .
هذا السيف ، ذو الحدين ، وصل إلى عنقك ذات ليلة .
هذا الذي سللته في وجه الخونة ، وجه إليك يا أشرف بطل .
من أطلق عليك الرصاص وأنت عائد إلى منزلنا في تلك الليلة ؟
من الذي سدد فوهة مسدسه إلى صدرك وأنت تعبر حارة النصارى ؟
من الذي حاول قتلك وأنت عائد من أشرف معركة مع العدو ؟
كلها أسئلة حائرة ألقيتها في حضن والدي كأنك تعتذر له عن الحوار القديم الذي دار بينك وبينه عن الاغتيال .
عندما قرع الباب في منزلنا ، عندما ألح القارع ، عندما ترك يده على الجرس ، عندما كاد يوقظ الحارة ، عرفت أنه أنت .

لا أحد يجرؤ على هذا القرع إلا الشرطة أو أنت !
وبما أن رجال الشرطة والجيش قد يئسوا من وجودك أو من وجود أخي سمير في المنزل فأراحونا وأراحوا أنفسهم ، عرفت أن القارع لا بد من أن يكون أنت .
وفتح والدي الباب .
لم يكن نائماً .
كان نصف نائم .
منذ الاضراب ، والثورة ، وهو نائم كأنه يتوقع أن يقرع جرس الباب في أية لحظة .
كان ، كأنه يشارككم المعركة من بعيد .
لم يحمل السلاح . لكنه حمل المسؤولية ، مسؤولية الاضراب والثورة .
أنت وشقيقي سمير ، كنتما في المعركة . تحاربان ، تحملان السلاح ، تتحديان الموت . هو ، مع أنه قابع في المنزل يشعر أنه معكما . ليس من الضروري أن تحمل السلاح كي تشترك في المعركة . يكفي أن تكون معها باحساسك وشعورك كي تكون جزءاً منها .

ودخلت إلى المنزل ، وجهك مكفهر . جبينك غاضب . في عينيك ألم . في عينيك حيرة .

طلبت من والدي سيجارة ، احرقتها . طلبت سيجارة ثانية ، أحرقتها . جلس والدي أمامك ينتظر أن يتفجر الكلام من شفتيك . كان يعرفك . يعرف كيف ينتظر الكلام أن يتفجر من شفتيك دون أن يسألك ، عندما تكون غاضباً .

قلت والسيجارة الرابعة تحترق بين أصابعك :

ـ كدت أقتل ؟

أجاب والدي :

ـ حرسك الله ، هل كانت المعركة قاسية مع العدو ؟

ـ لا علاقة للعدو بالموضوع . رصاص العدو كان بعيداً عني . انه رصاص الصديق الذي كاد يصرعني .

أنا ، طبعاً ، كنت قد صحوت على قرع الجرس ، وكنت أراقبكما ، واستمع اليكما من خلال الفتحة الصغيرة في باب غرفتي .

استغرب والدي . خيل إلي أنه لم يفهم ، أو أنه أراد أن لا يفهم . رفع حاجبيه . سأل :

ـ أوضح يا يوسف .. لم أفهم من كلامك أي شيء .

أوضحت . تكلمت باختصار . قلت لوالدي :

ـ كدت اقتل على باب منزلك . الرصاص انهمر علي هنا . في حارتي . حارة النصارى .

هنا لا يوجد انكليز . ولا يوجد يهود . الذي أطلق علي الرصاص واحد من الحي . الرصاص الدي كاد يقتلني رصاص عربي .

استغرب والدي . ذهل . أشعل هو أيضاً سيجارة . لم يجبك . عدت إلى الكلام . قلت :

ـ تصور ، أنا ، يوسف راشد ، يطلق علي الرصاص في حارتي ، حياتي .

الحارة ، المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالراحة والاطمئنان والحماية .

أيضاً لم يتكلم والدي . نظر إليك طويلاً وهو يسحب دخان سيجارته .

التقت عيناكما . أنت بغضب وهو بهدوء .

أحببت والدي كما لم أحبه من قبل في تلك اللحظة .
شعرت أن في استطاعة أي انسان ، حتى أنت . أن يهرع إليه ليجد عنده الفهم والدفء والحنان .
شعرت أن الدنيا ، ومتاعب الدنيا ، يمكن أن تختصر في تلك النظرة التي كان يلقيها عليك .
انه يحبك . أنت بالنسبة إليه كشقيقي في بيروت .
انه يحبك كما يحبني . بهدوء . وعمق . وحنان .
ليس من الضروري أن يقبلني كي أشعر أنه يحبني .
يكفي أن يربت على شعري . أو يمسك بيدي . أو ينظر إلي حتى أشعر أن كل عاطفة العالم قد تجمعت لديه .

في عينيه وهو ينظر إليك في تلك اللحظة كان حب .
أنت أحد أولاده ، أنت أحدنا . لك في قلبه المنزلة نفسها .
وأنت تعرف ذلك . تشعر به . لذلك كنت تعتبر منزلنا كمنزلك . ووالدتي كانت كوالدتك .
تغيب عن الحارة أسابيع ، ثم تعود الينا . كثيراً ما أرسلتني كي أستدعي والدتك لتراك عندنا .
منذ بدء الاضراب . والثورة . كنت لا تجد الراحة والاطمئنان والهدوء إلا عندنا .

أبداً . لم نشعر أنك غريب عنا .
أبداً . لم نشعر أنك لست واحداً منا .
في قلوبنا أنت .
في قلبي أنا لم يكن أحد غيرك .
أحببتك .
ملأت علي حياتي منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها عندنا ، تقنع والدي بالاضراب .
حياتي أنت .
ملأت كل دقيقة .
كل لحظة .

أنت كل شيء .

أعيشك .

أتنفسك .

أقلق عليك .

أخاف عليك

أموت عندما تغيب .

أحيا عندما تعود .

لا أريد أي شيء إلا أن تعود .

وكنت دائماً تعود .

تلك الليلة عدت . عدت غاضباً . في حيك أطلقوا عليك الرصاص كادوا يقتلونك .

قال والدي بعد صمت طويل :

- يا يوسف ، يا عزيزي . ألم أقل لك أن الاغتيال سيف ذو حدين .

- لكن ؟

- لكن ؟

أجبت ...

- لكن ماذا .. من الذي يمنع أي انسان من اغتيالك .

وصرخت :

- لكن .. نحن لا نقتل إلا الخونة .. السماسرة .

بهدوء قال والدي :

- من الذي يصنف هؤلاء . من الذي يفرق بين الخائن والوثني . عدت تصرخ بانفعال :

- نحن .. نحن الذين نصنفهم .

- من أنتم ؟ .

سأل والدي .

- نحن .. نحن الثوار الوطنيين .. الـ ..

قاطعك والدي :

ـ من قال أنكم على حق .

ـ كل الناس يعرفون هذا.

ضحك والدي :

ـ قد يختلف معك بعضهم في الرأي .

ـ غير ممكن ..

ـ كل شيء ممكن .

ـ مستحيل .

ـ لا شيء مستحيلاً . والدليل أن أحدهم حاول قتلك الليلة .

ـ انه خائن .

ـ هو يعتقد أنه وطني .

ـ عميل .

ـ هل أنت واثق . أنك لا تعرفه .

ـ سأعرفه . وسأقتله .

عاد والدي ينظر إليك . بحب كان ينظر اليك . اقترب مك احاطك بذراعيه . قال :

ـ لا تقتل عربياً مهما كانت الأسباب .

ـ حتى الخونة ؟

ـ حتى الذين تعتبرهم خونة . لست أنت ، ولا غيرك هم الذين يصنفون الناس .

ـ لكنهم ...

بحدة أجابك والدي :

ـ لكنهم . لكنهم ، قلت لك عندما جئت تحدثني عن الاغتيال انكم ستضعون نهاية الثورة النبيلة بأنفسكم .

لم تقتنع . جادلك والدي طويلاً . قلت له أن الثورة لا يمكن أن تعيش ما دام هناك خونة . وافق والدي لكنه أصر على رأيه وهو أنه ليس في فلسطين من له الحق في أن يصنف الناس . لا يوجد

« على الاطلاق » من يفترض في نفسه الوطنية كي يلصق الخيانة بأحد .

تجادلتما طويلاً . تحدثتما حتى طلع الفجر . عدت إلى فراشي بعد أن أنهكني التعب وأنتما تتجادلان .
الخيانة . والوطنية .
من هو الخائن ومن هو الوطني ؟
هل نقتل عربياً ، أي عربي . لأننا صنفناه كخائن ؟
أم لا نسدد رصاص مسدساتنا وبنادقنا إلا إلى صدور العدو ؟
ما هو الأهم ؟
أن نصفي صفوفنا . أم نستمر في المعركة ! ..
غاب صوتكما عني وأنا أعود إلى فراشي . وعندما استيقظت في الصباح ، كنت قد رحلت . أنت لا تستطيع أن تبقى معنا في النهار . في النهار تختفي . تذوب . منذ بداية الثورة لم أرك مرة واحدة في النهار . تعيش في الليل . لا أعرف ماذا تفعل في النهار . لم أعد أعرف لك صورة إلا على ضوء القنديل في منزلنا . لم أرك أبداً إلا والضوء يتراقص على وجهك ، حتى خيل إلي أنك لا تعيش إلا في الليل .

• • •

الليل ، كلما أطل الليل غص قلبي ..
الليل ، ما أطوله ، وأنت بعيد عني .
ما أطوله عندما لا تحضر . عندما لا تعود .
ساعاته . دقائقه . ثوانيه . لحظاته تجثم على صدري كالكابوس . لا تنتهي . النهار . في ذلك الليل الطويل ، يبدو كأنه لن يأتي . كلما استمعت إلى وقع خطوات في الشارع ، إلى صوت « نحنحة » إلى سعال ، ظننت أنه أنت . استيقظت حواسي كلها . تنبهت مشاعري . جلست في سريري ، أنتظرك . وتموت الخطوات ، ويختفي السعال ، وأعود إلى فراشي استجديه لحظة رقاد .

بعد حادث اطلاق الرصاص عليك لم تعد .
غبت عنا أسابيع طويلة .

كان الجميع يسألون عنك .
حتى أمك سألتنا عنك . وسألناها عنك.
الوحيد الذي طمأننا عنك كان شقيقي سمير . تحدث عنك كأنه يتحدث عن معبود . قال أنك تخوض في كل ليلة معركة . وأنك تخوض المعركة كأنها آخر معركة في حياتك. تخوضها كأنك تريد أن تموت . ولا تموت . تنتصر . تخرج دائماً وأنت منتصر .

وكنت كلما أرهقني الحنين إليك أعود إلى صورتك . تلك الصورة التي نشرت في الصحيفة يوم اعتقلت . كنت أضعها أمامي ساعات طويلة أنظر إليها . أحدق فيها . أتحدث اليها . أناجيها . أبثها شوقي إليك . لهفي عليك . خوفي من أجلك .

أيام طويلة . ليالي طويلة عشت مع هذه الصورة . تخيلت أنها ليست صورة ، تحدثت إليها . نا جيتها . ناجتني .

كنت حريصة عليها حرصي على حياتي . أدفنها تحت وسادتي .. في خزانتي الصغيرة . انها سري الصغير .. وسري الكبير . لا أتركها أبداً إلا عندما تعود . وعندما أراك .
... وعندما عدت .. في المرة المقبلة كنت وحدي في المنزل .
تركت صورتك لأجيب عن قرع الجرس .
في لهفتي نسيت الصورة في يدي .
وفتحت الباب لأجدك أنت .
وأخفيت الصورة وراء ظهري ، بذعر .
ولاحظت أنت حركتي .
ومددت يدك لتكتشف السر .
صددتك ، لم أرد أن تكتشف سري الذي أخفيته عن جميع الناس .
وأحاطتني ذراعك الطويلة وأنت تمد يدك إلى ما وراء ظهري ، فاستكنت بلا شعور أو بكل شعور إلى صدرك .

ـ ما هذا الذي تخفينه وراء ظهرك ؟

قلت لي ، وصوتك العريض يصل إلي كالموسيقى .

صعد الدم إلى وجهي وأنا أقاوم محاولتك كشف سري ، قلت بسرعة :

ـ لا شيء .. لا شيء .. انها ورقة من المدرسة .

كانت يدك قد امتدت إلى « الورقة » وانتزعتها من يدي .

لم تكن دهشتك عندما رأيتها أقل من ذعري عندما أخفيت الصورة .

نظرت إلي باستغراب ، ثم بدهشة ، ثم بحنان ، ثم سألت :

ـ لم تحتفظين بصورتي ؟

لم أجب . أخفضت نظري وأنا أشعر بأن الدم سينفر من وجهي في أية لحظة .

وعدت تتكلم ، وتسأل :

ـ أين أهل البيت ؟

أحتك بأنفاس راعشة :

ـ في زيارة للجيران .

ـ أنت وحدك هنا ؟

ـ نعم ..

ـ لم تجيبي عن سؤالي : لم تحتفظين بصورتي ؟

لم أدر كيف أتتني الجرأة . كيف تكلمت . كيف أجبتك .

حتى الآن لا أدري . خيل إلي أن فتاة أخرى هي التي تكلمت عندما أجبتك .

ـ كي أنظر إليها عندما أشتاق إليك !

خيل إلي أنك لم تفاجأ بما قلته لك . كأنك تعرف كنه الشعور الذي يختلج في قلبي ، لذلك عندما مددت يدك بالصورة وأنت تعيدها إلي ، كنت تبتسم وتقول :

ـ عندما أحضر في المرة المقبلة سأحضر لك صورة أخرى لتحتفظي بها .

أغلقت الباب خلفك ، ثم مشيت إلى الصالون ، وسألتني :

ـ هل تعرفين كيف تعدين لي فنجاناً من القهوة ؟
شيء لا يصدق .
أنت هنا ، معي وحدي في المنزل ، تطلب مني أن أعد لك فنجاناً من القهوة ، وتعدني أن تحضر لي صورتك في المرة المقبلة .

يداي ، قدماي ، رموش عيني ، كل شيء فيّ كان يرتجف وأنا أغلي لك فنجان القهوة في المطبخ . وعبثاً حاولت السيطرة على أعصابي وأنا أقدمه لك . نصفه انسكب على الصحن .

تذوقت قهوتي أعجبت بها ، ولم تتوقف عن الاعجاب بها منذ تلك اللحظة .
لم تتكلم كثيراً وأنت تشرب القهوة ، صببت لك فنجاناً آخر . شربته بشغف وأنت تدخن السيجارة تلو الأخرى وتنظر إلي بحنان .

ـ هل يتأخر والدك ؟
سألتني مرة .
أجبت :
ـ إذا شئت ذهبت لاستدعائه .
رفضت . قلت لي :
ـ لا .. دعيه وشأنه .. سيحضر على أي حال .
وعدت تنظر إلي .

لحظة أشعر فيها أنك معي ، ولحظات أشعر بأنك بعيد عني . بعيد جداً . في مكان آخر ، وعالم آخر .

حيرتني . أنظر إليك ، ثم أنظر إلى الأرض ، ثم أعود فأغوص في عينيك .
ابتسمت لك مرة ، فلم تستجب لابتسامتي . كنت في عالم آخر .
وابتسمت لك مرة ثانية فأضاء وجهك بابتسامة كبيرة . قلت لي وأنت ما زلت تبتسم :

ـ أتحبين فلسطين يا سلمى ؟

ـ طبعاً .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها بلادي .

أعجبتك عفوية الجواب . نهضت من مكانك تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم اقتربت مني بحركة عفوية ومددت يدك الكبيرة إلى شعري تعبث به .

هل كنت تحبني يومها ؟
هل كنت تشعر بأي شيء نحوي في تلك اللحظة ؟
هل ... هل ...
لا أدري . حتى اليوم لا أدري . كل ما أدريه أن دفقاً من حنين اجتاحني وأنت تعبث بشعري . ولولا الحياء لاحطت عنقك بذراعي ، وقبلتك . آه كم تمنيت لو قبلتك في تلك اللحظة . تلك القبلة التي لم أقبلك اياها هي القبلة الوحيدة التي تمنيت لو حصلت . لكن حضور والدي ووالدتي في تلك اللحظة جعلني أخفي شعوري ، وجعلك تترك شعري . وتتركني لتجلس مع والدي .

كالعادة ، دار حديثكما حول الثورة . حول فلسطين .
قلت له :

ـ هل سمعت بأنهم سيرسلون لجنة جديدة لتبحث في مستقبل فلسطين .

وهز والدي رأسه وهو يجيب :

ـ لن تكون خيراً من سابقاتها . جميع اللجان التي حضرت ، وناقشت ، واستمعت ، وأوصت ، فشلت لأنها تنطلق في بحثها من بداية خاطئة .

هززت برأسك . أكمل والدي :

ـ كل اللجان الانكليزية والأميركية ومن أية دولة جاءت ، تعتبر أن اليهود أصحاب حق في فلسطين . أو أصحاب حق في جزء من فلسطين . وعد بلفور عام ١٩١٧ وقرار عصبة الأمم عام

١٩٢٢ كلاهما أكد على منح اليهود حق انشاء وطن قومي في بلادنا ، ومنذ ذلك الحين . واللجان تناقش القضية من هذه الزاوية : تقسيم فلسطين بيننا وبين اليهود . ونحن أصحاب البلاد نرفض الفكرة من أساسها ... لا حق لليهود في أي شبر من فلسطين . فلسطين عربية وستبقى عربية ولذلك ستفشل كل لجنة ستحضر إلى هنا .

وتكلمت أنت ، قلت :

ـ لكن الانكليز يريدون اعطاء اليهود هذا الحق .

ـ لا أحد يستطيع اعطاء اليهود هذا الحق إذا صممنا على المقاومة .

ـ حتى متى نستطيع أن نقاوم ؟

ـ حتى يفنى آخر طفل من أطفالنا .

أجاب والدي بحماسة :

ـ لكنهم يعلقون لنا المشانق ، ويعتقلون المئات منا كل يوم . انهم امبراطورية ونحن شعب شبه أعزل .

ـ انا أقوى من الأمبراطورية . هذه بلادنا وسندافع عنها ولن تنفعهم المشانق ولا المعتقلات .

ـ ليت الجميع يؤمنون كما تؤمن خصوصاً أولئك « العقلاء » الذين يدعون إلى التعقل . والمفاوضة وانهاء الثورة .

هؤلاء أقلية . إننا الشعب بأجمعه مصمم على متابعة القتال .

ـ والاغتيالات ؟

ـ هذه هي المصيبة الكبرى . فلو استمرت قضت على الثورة .

ـ يبدو أنها ستستمر .

لم يجب والدي . بدت على وجهه امارات القلق . والتفكير العميق .

أنت الذي تكلمت . تحمست . قلت بعد دقائق :

ـ يجب أن نضع حداً لها . نحن الذين بدأناها ونحن الذين يجب أن نوقفها .

بصوت ملؤه الألم أجابك والدي :

ـ أخشى أن يكون قد سبق السيف العذل ، فالرصاصة التي تنطلق هذه الأيام في الظلام لا يعرف أحد مصدرها ، ولا الذي يقف وراءها .

ـ سنناشد الشعب ..

ابتسم والدي ، ثم قال :

ـ الشعب ، الشعب لا علاقة له بهذه الاعتيالات . الشعب مخلص طيب حمل سلاحه دفاعاً عن أرضه ووطنه . ان العشرات منه يموتون كل يوم وهم يهتفون باسم فلسطين . لكن هناك من يزور ارادة الشعب ، يستغل هذه الحماسة وهذا الاخلاص .

ـ من الذي تتكلم عنه ؟

ـ لا أعرف .. كل الذي أعرفه أنه نجح ، أو قد بدأ ينجح في تغيير وجه الثورة .

ـ وأولئك الذين قتلوا . وأولئك الذين يقتلون .

ـ هؤلاء هم الذين يدفعوننا إلى الاستمرار .

ـ إذا .. سنستمر .

ـ حتى آخر رصاصة .

... وتركتنا نؤمن باستمرار المعركة .

وغبت عنا كما غبت في المرة الأخيرة .

طويلاً غبت .

وكنت أنا كعادتي بانتظار عودتك .

لقد وعدتني أن تحضر لي صورة أخرى لك غير صورة الصحيفة التي كانت معي .

صورة تحمل بصمات أصابعك رائحتك . تكون جزءاً منك معي .

طويلاً انتظرت .

اكتم حنيني وشوقي . أكتم لهفتي . لا أجرؤ على سؤال أحد عنك .

أخبارك تصل إلينا

تحارب . يقولون .

تخوض المعارك . تنتصر . يخافك اليهود والانكليز على السواء . .
لكني لا أريد اخبارك ، أريدك أنت . معي ، تجلس مع والدي ، تملأ المكان بوجودك .
صوتك يدوي . رائحة سجائرك تعبق في المنزل . آثارك في كل زاوية . اختلس النظر إليك فلا أشبع . اقبلك بعيني . أحضنك بكل ذرة من كياني .
تمزقت الصورة من كثرة ما أمسكتها بيدي .
وكعادتك ، بعد مرور زمن خلته كل الزمن عدت .
لم تنظر إلي عندما فتحت لك الباب .
غاضباً كنت .
الشرر يتطاير من عينيك .
توجهت فوراً إلى حيث كان يجلس والدي ، وبينما كان يمد يده لمصافحتك كنت تتهالك على أول مقعد وأنت تقول .

ــ لقد انتهت الثورة . قتلوها . ذبحوها . وبكيت .

• • •

حتى والدي لم يستطع ان يهدئ من ثورتك .
كنت تبكي الثورة كأنك تبكي طفلك الوحيد .
ـ يا خسارة ... يا خسارة الدم . والشباب . والأرواح .
كنت تقول ذلك ، وأنت تضرب كفاً بكف .
وتعيد :
ـ ستة أشهر ، ستة أشهر كاملة ونحن نحارب ، ومع ذلك تقف الثورة ولم تحقق أي هدف من أهدافها . ما زال اليهود يتسللون إلى البلاد بالآلاف . وما زالت الأسلحة تتدفق عليهم . وما زال الانكليز مصممين على جعل فلسطين وطناً لهم .

عبثاً حاول والدي أن يفهم منك ما حدث .

ساعة كاملة مضت وأنت ثائر ، حتى استطاع أخيراً أن يفهم أن زعماء البلاد قد أصدروا بياناً با نهاء الثورة وأخرجت من جيبك ورقة قرأت منها البيان ـ النداء ، وإذا به يطلب من الشعب الفلسطيني انهاء الثورة والاخلاد إلى السكينة ابتداء من الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين في ١٣ تشرين الأول عام ١٩٣٦ .

ـ بعد غد ... ينتهي كل شيء . ببيان صغير انتهى كل شيء .
ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ينهون كل شيء ؟

سألك والدي باستغراب :

ـ يقولون أنهم حصلوا على وعد من الحكومة الانكليزية بانصاف عرب فلسطين ..

ـ من الذين تعني بـ « هم » ؟

ـ الملوك والرؤساء العرب ..

ـ لم أفهم ؟

ـ القضية ببساطة ، ان الحكومة البريطانية عندما عجزت عن ايقاف الثورة بقوة السلاح . ضغطت على الملوك والرؤساء العرب ، كي يضغطوا بدورهم علينا وبالفعل وردت برقية منهم قبل أيام تدعو إلى ايقاف الثورة وقرأت البرقية ، كانت تقول :

« لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم إلى الاخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نيات الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة في تحقيق العدل وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم » .

ويلي ذلك التواقيع .

وعدت تصرخ ثائراً :

ـ تصور ... تصور أنهم يثقون بالانكليز ويسمونهم أصدقاء . اؤكد لك ياعمي أنهم سيطردوننا جميعاً في يوم من الأيام . سنكون غرباء في فلسطين لو ألقينا السلاح بعد غد .

صدقت نبوءتك يا يوسف .

ها نحن اليوم بعد ثلاثين عاماً مما قلت ، غرباء في فلسطين ، غرباء في بلادنا

أخذها اليهود ... كلها .

احتلوها .

انهم يحكموننا الآن .

أخذوا نصفها عام ١٩٤٨ والنصف الآخر عام ١٩٦٧ .

ما حدث عام ١٩٣٦ حدث عام ١٩٤٨ .
أيضاً تدخل رؤساء العرب وملوكهم . فوضعتم أنتم السلاح .
وخسرتم نصف بلادكم . وعام ١٩٦٧ لم يسمح لكم بحمل السلاح إلا في اللحظة الأخيرة ، وساعات معدودة ، وضاعت البلاد .
هل كانت ستضيع لو لم تضعوا السلاح عام ١٩٣٦ ؟ أشك في ذلك . وأنت أيضاً كنت تقول لي ، لقد ضاعت فلسطين يوم أنهينا ثورة عام ١٩٣٦ .

انتهت الثورة .
وعدت أنت إلى دكانك . وأنا إلى مدرستي .
أمر عليك كل صباح لأشتري . وكل صباح تبتسم لي وأنت تناولني من الحلوى أضعاف ما يمكن أن تشتري به نقودي .

كنت « ترشيني » بالحلوى كي أبتسم لك . ولم أكن في حاجة إلى هذه « الرشوة » فحياتي كلها كانت تدور حول تلك اللحظات التي أراك فيها صباحاً ، أو عندما تحضر إلى زيارتنا مرة أو مرتين في الأسبوع ... ليلاً .

في الليل ، عندما تحضر ، كنت أسترق النظر من غرفتي اليك دون أن تراني ، لأنه كان من المفروض أن أنام مبكرة كي أنهض باكراً للذهاب إلى المدرسة .

وكل حديث كان يدور عندما تحضر . حول فلسطين . واليهود والانكليز ... والثورة والقضية .
كنت تتكلم عن عقم المحاولات التي تبذل لانهاء القضية عن طريق لجان التحقيق التي تحضر ، أو عن طريق مفاوضة الحكومة . أو عن طريق توسط الدول العربية .

ـ لن تحلها إلا ثورة جديدة .
كنت تقول :
هؤلاء لا يفهمون إلا منطق الثورة . لكن الأيام لم تسمح لك ولرفاقك باعلان ثورة جديدة .
ومرت الشهور ...

وفجأة تتابعت الأحداث في العالم . وأعلنت الحرب العالمية الثانية ، لتخنق أي محاولة للثورة في فلسطين .

وتحول أملكم نحو المانيا .

الدولة القوية التي تحارب الانكليز . فلو انتصرت المانيا في الحرب لمات أمل اليهود في اقامة وطن قومي في فلسطين .

وتجمعت كل أمالكم في الانتصار . الانتصار يعني القضاء على بريطانيا . والقضاء على بريطانيا يعني القضاء على حلم اليهود في فلسطين .

من أجل هذا رفضتم التطوع في جيش الانكليز عندما طلبوا منكم ذلك . فأنتم لا تريدون محاربة المانيا . أملكم الوحيد هو التخلص من استعمار بريطانيا .

ومن أجل هذا تدافع اليهود للتطوع بالمئات ، حتى أنهم أطلقوا اسمهم ، اسم اليهود على فرقة من الجيش .

بينما كنتم أنتم تصلون لهتلر أن ينتصر ، كانوا هم يحاربونه كي ينكسر . ويتدربون على الحرب و ... يسرقون الأسلحة ويخبئونها استعداداً للجولة المقبلة معكم .

صلواتكم لم تنفع .

وهتلر لم ينتصر .

ودخل الانكليز إلى برلين ، بدلاً من أن يرفرف الصليب المعقوف فوق لندن .

وانتعش أمل اليهود في الوطن القومي ...

أصبح الحلم الذي ظل يداعب خيالهم مئات السنين ، قريباً من التحقيق .

لقد حاربوا جنباً إلى جنب مع الانكليز . وانتصروا معهم . ولكل نصر ثمن .

والثمن الذي طالبوا به كان : فلسطين . أو جزءاً من فلسطين .

لم ينقطع سيل الهجرة إلى فلسطين طول فترة الحرب .

ولم تنفع احتجاجاتكم . ولا اضراباتكم . ولا تظاهراتكم .

حتى الأرض . الأرض التي استماتت اليهود في سبيل شرائها . استطاعوا الحصول على نصف مليون دونم منها . كهبة من الحكومة البريطانية .

وبدأوا ينشئون المستعمرات ويبنون القرى تحت حماية الحكومة ونظرها .
والخطر يزداد ...
كل يوم يزداد .

وأنت تتألم ، . تنادي . تثور . بلا فائدة .
وتعود لتقول :
- لا شيء إلا القوة . كل يوم يمر علينا بلا ثورة يضيع علينا الفرصة .
لكن بلا فائدة .

وكنت أتألم معك . أشعر معك . كنت أشعر أنني الوحيدة التي تفهم سر الثورة التي تدور في نفسك أراها في عينيك كلما مررت بك في الصباح .
أراها ، حتى وأنت ترقبني بحنان .
أراها ، حتى في نظرتك إلي ، تلك التي كانت تتغير كل يوم .
الأعوام مرت ، يا يوسف .
والفتاة الصغيرة كبرت .
وكبر حبها لك .

لم أعد ، أو لم تعد الظروف تسمح لك بأن تداعب خصلات شعري . فلم أعد طفلة . أنا اليوم صبية .

بعد شهر سأنهي دراستي الثانوية .
بعد شهر ستبارك لي في الشهادة .
بعد شهر سأتوقف عن المرور من أمام دكانك وأنا في ثياب المدرسة . سألبس ، عندما أحضر لرؤيتك ما شئت من الثياب .

سألبس ما يثبت لك أنني لم أعد طفلة . أنني قد أصبحت في عمر يمكنك فيه أن تحبني ... كصبية
لكنك لم تنتظر .
لم تنتظر حتى ألبس لك فستاني المفضل .
فعندما حضرت مع والدتك ، لتباركا لي في الشهادة ، انتظرت حتى يذهب آخر وفد من الجيران الذين جاؤوا أيضاً للتهنئة . ثم لمحتك تغمز والدتك بعينك . وإذا بها تنهض لتنادي والدتي التي كانت في المطبخ وتعود معها بعد لحظات ... ثم ألقت بقنبلتها .

نعم لقد كان ما قالته أشبه بقنبلة بالنسبة إليّ . وإن كنت قد علمت في ما بعد أنها لم تكن قنبلة بالنسبة إلى أي منكم .

لقد فوجئت بها تخطبني لك من والدي ووالدتي .
ويظهر أن الموضوع كان متفقاً عليه . ولم تبق إلا موافقتي على الموضوع .
موافقتي ؟ ..
من فرحتي ، من ذهولي ، من صدى القنبلة ، بكيت .
لم يفهم أحد لماذا بكيت .
ظنوا أنني سأرفض .
حسبوا كل شيء إلا أنها دموع الفرحة وعدم التصديق .
ونهض والدي يرفع رأسي بيده ، وينظر عميقاً في عيني المملوءتين بالدموع ويقول :
ـ إذا كنت تفضلين إرجاء البحث في الموضوع ، فسنؤجله . أريدك أن تختاري زوجك على حريتك فهذه حياتك وليست حياتنا .

وهززت رأسي بشدة . هززته بعنف . ولم يفهم والدي سر هزات رأسي . ظنه رفضاً . وكاد يوافق (يا إلهي) على الرفض .

واستطعت قبل أن أختنق ، وقبل أن يرفض ، استطعت أن أقول : موافقة .
ثم هربت إلى غرفتي .

سمعت والدي يقول لك : اذهب يا يوسف لترى ماذا دهى سلمى .
سمعت وقع خطواتك تتبعني إلى الغرفة .
كنت أستلقي على فراشي ، احتضن الوسادة ، وأبكي .
استمعت إلى وقع خطواتك .
حلوة خطواتك تتبعني إلى الغرفة .
خطوة ... خطوة اقتربت مني .
توقفت عند سريري .
مددت يدك الكبيرة تعبث بشعري .
طويلاً عبثت يدك بشعري .
كل احساسك . شعورك . عاطفتك . وضعته في هذا العبث بشعري .
أناملك تكلمت .
دغدغتني .
احبتني .
قتلتني .
عندما هدأت . عندما توقفت عن البكاء . تكلمت أنت . سؤالك الأول توقعته . كنت تسألني عن سر بكائي .
ـ لم تبكين ؟
سألت .
لم أجبك .
استدرت لأواجهك .
نظرت إلى وجهك .
كل آمالي .
كل أحلامي .
كل امنياتي ، تحققت في لحظة .

إلى وجهك نظرت كأني أراه للمرة الأولى .
لم أتكلم .
شفتاي لم تنطقا .
تركت لعيني الكلام ، والحديث ، والهمس ، والنجوى ، والغزل ، والنطق .
أحبك ... كانت تقول عيناي .

كل غزل الدنيا يختصر في مثل هذه اللحظات بكلمة أحبك .
قلتها . وفهمت أنت ما أقول .
لذلك ، تابعت العبث بشعري ، في عينيك دفق من حنين . وفي لمسة يدك شلال من حب .
أما أنا فقد أعياني النطق .
تركت لعيني أن تتوليا حديث الحب .
وعندما تعبت عيناي .
عندما شعرت بأن ارهاق الشعور سيميت فيهما ارهاف ما أشعر ، أنزلتهما مع وجهي ، وتناولت يدك ، ثم قبلتها وقبلتها .
وضعت حبي في تلك القبلة .
ولم نفاجأ .
كنت تعرف أني أحبك . لذلك ... عندما انحنيت تقبل جبيني .. لم أفاجأ . بل عدت من جديد ، أقلب يدك وأقبلها .

وهمست : يا حبيبي .
لحقت بي إلى غرفتي .
في وقع خطواتك ، قبل عينيك ، كنت في لهفة لتعرف سر دموعي .
وعرفت السر فور أن سبحت في بحر عيني .
كانتا عيني عاشقة .
دون أن أتكلم فضحتني عيناي .

تحبانك . تحبانك . حتى العبادة .
يدك امتدت إلى شعري تربت عليه ، ثم تداعبه ، ثم تغازله .
نعم يدك ... يدك كانت تغازل شعري .
ويداي الصغيرتان كانتا تغازلان يدك الأخرى .
أمسكت بها . يد كبيرة . يد رجل .
ولم أسعر إلا وأنا أقبلها . أحدق فيها من الداخل . ثم من فرحتي ، أقبلها !
سحبت يدك بسرعة . ثم مددتها إلي وأنت تقول :
ـ تعالي ... انهم ينتظروننا في الخارج .
وخرجنا معاً يدي في يدك . وانقلب الدمع في مقلتي إلى ابتسامة كبيرة كانت تضيء وجهي .
وزغردت والدتي .
وأجابتها أمك بزغرودة .
وكأنما كانت الزغرودتان صيحة استغاثة ، هب على صوتها الجيران ، فإذا بالمنزل يمتلئ بهم في خلال ربع ساعة . وكان معظمهم قد هب من نومه تواً .

وسهرنا مع الجيران ... حتى الفجر !

* * *

كنت ، أو على الأصح ، كنا مستعجلين الزواج .
لذلك ما كدت أنتهي من اعداد الجهاز ، حتى كنت أزف اليك في أكبر حفلة شهدها الحي .
أجمل فتيات الحارة .. تزف إلى بطل الحارة .
سلمى ... ويوسف .
بالنسبة لأهل الحارة ، قصة حبنا كانت أجمل من قصة قيس وليلى ، وعروة وعفراء ، وروميو وجولييت .

عندما مررنا من الحي بعد الزفاف ، كان العطر ينهمر علينا كالمطر ، والأرز يفرش طريقنا .... والرصاص يلعلع كأيام المعارك .

وقضينا شهر العسل في يافا .
على الشاطئ الذي شهد أول نظرة حب في حياة حبنا .
وعدنا إلى القدس يضمنا منزل واحد .
وعشنا الشهر تلو الشهر .
والسنة تلو السنة في قصة حب متصلة .
وكانت صلواتي إلى الله تتجه دائماً كي يبقى لنا هذا الحب وهذه السعادة .
واستجاب الله إلى دعائي . لكنه سبحانه وتعالى حرمني من متعة واحدة : الأطفال .
فقد مر ثلاث سنوات .
وأطل عام ١٩٤٨ ونحن ننتظر طفلنا الأول بلا فائدة .
ولم ينسنا الطفل إلا اشتعال الثورة من جديد ، واندلاع الحرب بيننا وبين اليهود من جديد .
خرج الانكليز .. وكان اليهود يحملون في أيديهم وثيقة جديدة من هيئة الأمم . وثيقة تنص على تقسيم وطننا ، فلسطين ، بيننا وبينهم .
وإلى السلاح يا شبان لنقاوم الوثيقة ونقاوم التقسيم .
وعاد البطل يزرع الرعب في قلوب الأعداء .
وعدت أنت تعيد من الماضي اسطورتك . اسطورة يوسف . ولحق الشبان بك يصنعون كل ليلة قصة بطولة . ويجبلون بالدم كل ليلة اسطورة فداء .
هل أعيد عليك الآن ما حدث عام ١٩٤٨ ؟ ..
هل نكرر القصة للمرة المليون ؟ .
هل نجترها من جديد ؟ ..
حاربتم وانتصرتم .
تدخل « اخواننا » العرب .
قالوا ، تماماً كعام ١٩٣٦ ، ألقوا السلاح ونحن نتكفل لكم بالنصر .
دخلت جيوشهم المعركة .
خسرت المعركة .

اعلنت الهدنة الأولى .
استؤنف القتال .
أعلنت الهدنة الثانية .
قسمت فلسطين ، وأخذ اليهود منها أصعاف ما نصت عليه وثيقة الأمم المتحدة .
وشرد مليون فلسطيني يعيشون في الخيام .
وعدت أنت إلى دكانك بعد أن أقسمت أن لا تتدخل في السياسة ، وأن لا تحارب طول حياتك .
وبررت بوعدك . بقسمك .
أقسمت من جديد يوم ولد طفلك رجاء عام ١٩٥٨ .
كنت تقرأ أخبار الانقلابات والثورات التي تحدث في العالم العربي باسم فلسطين ، كأنك تقرأ عن ثورة حدثت في كولومبيا .

لا شيء يهمك . عروش تنقلب . رؤوس تتدحرج .
ثورات ... دماء ... وأنت أمام دكانك في حارة النصارى تداعب حبات مسبحتك وعلى عينيك ظلال ...

فترات قليلة كانت تهزك أعمال الفدائيين داخل اسرائيل . أخبار كنت أشعر أنها تفرحك . تدغدغ قلبك من الداخل . لكنها لم تجعلك تحنث بقسمك .
شيء واحد كنت دائماً تقوله وتقف عنده عندما يثار موضوع فلسطين ، كنت دائماً تقول لرفاقك إذا جاؤوا اليك يسهرون :

– لن يحل قضية فلسطين إلا أهل فلسطين . عندما يقرر أهل فلسطين القتال ... عندئذ تبدأ معركة النار . أما قبل ذلك فهراء .

يوسف ... أيها الراحل الحبيب .
ليتك عشت لتشاهد نبوءتك تتحقق من جديد .

يوسف ... عاد أهل فلسطين إلى القتال :
ان أصوات قنابلهم وأسلحتهم تمزق الليل .
إنهم يرعبون إسرائيل ، كما ارعبت أنت اليهود طول حياتك .
إن ما طالبت به يتحقق اليوم .
لو كنت هنا ، لكنت أول طلائع الفداء .
يوسف ... عادت المعركة إلى حيث اردتها أن تعود .
عاد رصاصكم يزغرد في صدر العدو .
عادت القضية إلى أصحابها .
كنت أول شهيد في المعركة الجديدة .
عندما روى دمك أرض حارة النصارى ظننت أنه ذهب هدراً . ان القضية قد انتهت . انك مت كما مات غيرك بلا فائدة .

لكن قصتك ، استشهادك ، دمك لم تذهب هدراً .
على العكس كانت حافزاً . كانت باعثاً على بدء معركة جديدة . معركة لن تنتهي إلا بالفناء ... فناء جميع رفاقك ... أو النصر .

لكن ما لي استبق الحوادث .
ما لي أقفز بك قفزاً كأنني استعجل فراق صورتك .
أتذكر يوم عدت بلا ذخيرة ؟
يوم انتهت الذخيرة ...
وعدت لتخبر رفاقك باستحالة الاستمرار في القتال ...
وكيف قررتم أن تستعملوا ما بقي من ذخيرة لديكم في قتل كل جندي إسرائيلي يدخل إلى القدس.. وإلى الحارة

تفرقتم ... ليذهب كل منكم إلى منزله ، وليقبع خلف نافذة ، يده على زناد بندقيته ، ينتظر .

كنت بجانبك عندما صرعت أول جندي .. أطل برأسه من مدخل الحارة يتبعه عشرة من رفاقه ، وفي خلال لحظات كان العشرة يتكومون فوق بعضهم البعض . انهمر الرصاص من كل نافذة . ثم القنابل اليدوية ... ثم ... عشرة آخرون ... فعشرة ، فمئة ، فمئات ....
وسقطوا ...
كالذباب كانوا يسقطون .
وذخيرتكم تنفذ ...
رصاصة في أثر رصاصة ...
لم تذهب واحدة هباء ...
كل رصاصة صرعت عدواً ...
وكل قنبلة صرعت مجموعة منهم ...
وعندما أطلقت رصاصتك الأخيرة ... كنت تبكي كالطفل الصغير .
لكنك مع ذلك لم تستسلم ..
أمسكت بالحربة التي فوق البندقية ، ونزلت بها إلى الشارع تغرسها في قلب آخر جندي رأيته ذلك النهار .

ثم عدت إلى المنزل ، وأقفلت الأبواب جيداً ، والنوافذ ....
لم تكن بندقيتك معك عندما عدت ، ظننت أنك قد رميتها في الشارع ، ولم أشاهدها بعد ذلك إلا في يد الجندي الإسرائيلي الذي جاء يفتش عن السلاح فوجده في الحديقة .

ساعات طويلة جلست وأنت تضع رأسك بين يديك ، تفتح الراديو ، تستمع إلى الأخبار كأنك لا تستمع إليها ، في عينيك ذهول وذبول ...

لم تنفجر بالبكاء إلا عندما جاء صوت كريه من خلال النافذة المغلقة .. صوت يقول بعربية « مكسرة » : ان القدس قد سقطت ... وان على الأهالي رفع الأعلام البيض فوق منازلهم ، وان عليهم البقاء داخل منازلهم إذا أرادوا المحافظة على حياتهم والاستماع إلى تعليمات جيش الدفاع الإسرائيلي ...

الجيش ... المنتصر .
لقد احتلوا القدس أخيراً .
احتلوا كل فلسطين ... أخيراً .
تحقق حلمهم الأكبر .
ورفضت أنت أيضاً أن تعلق العلم الأبيض فوق منزلك .
تموت .. ولا تعلق علم الهزيمة الأبيض .
أنا الذي علقته سراً .
شرشفاً أبيض علقت .
كل الحارة كانت تنتظر إذا كان العلم الأبيض « سيرفرف » فوق منزل البطل .
هم أيضاً كانوا يرفضون تعليق أعلام الهزيمة البيض .
وعندما خفق « الشرشف » الأبيض فوق منزلك ، عندها شعروا ... رأوا أن بطلهم قد أقر بالهزيمة فسارعوا يعلقون الأعلام ، حتى غطت المنازل كأنها الثلوج .

وعاد الصوت الكريه :
يا أخالي الكدس الكديمة ... اتبأوا تأليمات جيش الدفاه الازرائيلي .
هذه المرة اخرسته ... رصاصة . وهذه المرة نقل العدو تهديداته إلى الراديو .
هدد أهالي القدس بالعقاب ، وعظائم الأمور إن هم استمروا في المقاومة .
ومع ذلك قاوم الناس . أولئك الذين بقي لديهم أي شيء يقاومون به قاوموا .
واستمرت تهديدات إسرائيل .
هذه المرة صدرت التهديدات من راديو إسرائيل ، المنطلق من أورشليم القدس ــ ورام الله .
احتلوا كل شيء ، واستعملوا كل شيء حتى محطة الإذاعة .
وأنت تجلس بجانب الراديو .. لا تأكل .. لا تشرب .. تدخن ، وتدخن ..
الراديو لا يتوقف عن البث ليل نهار .
عينك لم تر النوم لحظة .

بقايا المعركة على ثيابك ويدك .
ثيابك ممزقة .
نفسك ممزقة .
كالأسد الجريح كانت تصدر تأوهاتك ...
يا ضيعة الوطن . يا ضيعة الثورات . يا ضيعة الشباب . يا ضيعة الدم المهدور .
يا ... يوسف . انطلق صوت من الحارة .
أطللت أنا برأسي من النافذة لاشاهد أحد رفاقك ينادي ، عندما رآني قال :
ـ لماذا لا تجيبون الجرس .. افتحوا الباب . منذ ساعة وأنا أقرع الجرس .
وفتحت الباب .

كان يوسف يرفض أن يفتح الباب .
لم يرد أن يرى أحداً .
اعتزل الناس .
لكن الناس جاءوه .
جاء إليه رفاقه .
جاؤوا يسمعون تعليق الزعيم ، تعليق البطل على ما حدث .
أي تعليق يريدون .
من يقدر أن يعلق ...
من يستطيع حتى الكلام .
جلسوا كلهم في الصالون ... كأنهم في مأتم .
لقد كان بالفعل مأتماً .

ساعات مرت وهم جلوس . بعضهم يحدق في السقف . وبعضهم يحدق في الأرض . البعض يعض شفته ، وآخر يعض أصبعه .

آخ ... من الذل والقهر .

كلهم .. كلهم بلا استثناء تمنوا لو قتلوا على أرض المعركة .
الذل يقتلهم الآن أكثر من الرصاص .
القهر يمزقهم .
كل أغنية تصدر من اذاعة إسرائيل كانت كالرصاصة تحصدهم .
كم مرة بثوا أغنية : يا عواذل فلفلوا ....
كم مرة أذاعوا أغاني الحب المائعة .
نكاية ...

كانوا يمدون لكم السنتهم .
شعرت أنكم ستنفجرون وتتناثر أجزاؤكم في زوايا الغرفة في أية لحظة .
كالأرانب ذهب رفاقك عند مغيب الشمس .
كالأرانب هرعوا إلى منازلهم مع موعد « منع التجول » .
رفيقك عدنان « الوحش » كما كنتم تطلقون عليه ، نهرته إسرائيلية لا تبلغ السادسة عشرة من العمر ، برشاش تحمله في يدها .

« الوحش » يستطيع أن يأكلها بأسنانه لو شاء .
لكن الوحش ، أصبح أليفاً أمام الرشاش .
بعد يومين ..
بعد ٤٨ ساعة أقنعتك بأن تنام .. بأن تستلقي على السرير . ولو ساعة .
وغفوت أنا بجانبك .
وصحوت على صوت بكائك .
وعندما رأيتني أنظر إليك بجزع ، كلمتني ، أو على الأصح تكلمت للمرة الأولى .
قلت : لا استطيع يا سلمى ..
سأموت .. لا أستطيع احتمال كل هذا . سأقتل نفسي . نعم سأقتل نفسي .
وصرخت كالمجنونة ..

ألقيت بجسدي عليك وأنا أضع يدي على فمك كي لا تكمل ما تقول .
تقتل نفسك ؟ . .
أي جنون . هذا ؟
وماذا ينفع الآن أن تقتل نفسك .
أليس من الجبن ، أن تنتحر ؟
وأنت سيد الشجعان تضع حداً لحياتك بهذه الطريقة .
وأزحت يدي ، وعدت تصرخ :
لا يا سلمى .. لا أقوى على الاحتمال . أعصابي لن تتحمل . سأقتل نفسي . ان الموت .. أي موت خير من هذه الحياة .

عبثاً حاولت اقناعك ، فقد كنت مصمماً على أن تضع حداً لحياتك .
ـ لن أعيش لحظة تحت أمر جندي إسرائيلي ، سأقتله بيدي لو شاهدته في الشارع . سأذبحه . ثم أقتل نفسي .

وكنت أعرف حبك لابنك الوحيد . حبك لرجاء . فالتجأت إلى هذا الحب عله ينجح حيث فشلت أنا .

قلت :
ـ وابنك ، وحيدك رجاء . على من تتركه إذا قتلت نفسك . اتتركه وتتركني تحت رحمة جنود إسرائيل .

ويبدو أنك لم تكن قد فكرت في هذا من قبل . ففعلت هذه الجملة فيك فعل السحر ، فهدأت فوراً ، وإن كنت قد غرقت في صمت عميق ارعبني أكثر من كلامك .

نهاية الصمت كانت قرعاً عنيفاً على الباب ، نهضت على أثره لافتح ففوجئت بجندي إسرائيلي يدفعني بعنف ويدخل إلى المنزل شاهراً سلاحه ووراءه رهط من زملائه وهو يصرخ :
ـ أين زوجك .. أين يوسف ؟

وقبل أن أجيب ، كان يندفع إلى حجرة النوم ويضع مسدسه في رأسك وهو يقول : لا تبد أية مقاومة ... تعال معنا على الفور .

ولم يسمحوا لك بارتداء ثيابك . أو حتى القاء نظرة على ابنك النائم في الغرفة المجاورة . بل اسرعوا يضعون القيد في يدك . ويجرونك إلى الخارج وهم يحيطون بك ، شاهري السلاح ، احاطة السوار بالمعصم .

كل أهل الحارة اجتمعوا على النوافذ والسطوح والشرفات ينتظرون خروجك مع جنود الاحتلال . استيقظوا جميعاً على الجلبة المنبعثة من منزلنا . من منزل يوسف . من منزل البطل . من منزل الرمز . من منزل الرجل الأسطورة الذي ظل يحارب اليهود منذ مطلع صباه . وها هو اليوم يقاد ذليلاً مكبلاً بالأصفاد .... كأي مجرم عادي .

دموع النساء كانت تسيل في صمت .
نظرات الحقد كانت تلمع من عيون رفاقك الشبان .
الذل كان يقطر من عيون الشيوخ .
أية نهاية هذه ... لحياة بطل .
أية نهاية هذه ... لحياة سيد من أسياد الشجاعة .
أية نهاية هذه لرجل كان اسمه كافياً لالقاء الرعب في قلب كل اسرائيلي .
رحمتك ... يا أرحم الراحمين ...
أما أنت فقد كان وجهك وجه رجل . ميت .
نظرت إلي بعتاب .
فهمت ما أردت أن تقول .
عيناك كانتا تقولان : لماذا لم تتركيني أقتل نفسي ... وأستريح . هذي نتيجة منعك اياي .
ولم تتكلم ...
لم تقل لي سوى جملة واحدة قصيرة قبل أن تختفي وحولك الجند .
قلت :

ـ بخاطرك يا سلمى ... ديري بالك على رجاء . قولي له أريده أن يكون رجلاً ... كأبيه .

لم أتصور لحظة ، أن هذه الجملة القصيرة ستكون وصيتك الأخيرة .

كنت أظن أنك ستغيب أسبوعاً . شهراً . أو سنة في السجن لتعود بعدها ، كما عودتني أن تفعل أيام الانكليز .

تبعتك في الشارع . نهرني الجند . صرخوا بي لكنني تبعتك .

حافية القدمين تبعتك . في حياتي لم أفعل هذا . تبعتك كأنني أودعك الوداع الأخير .

وكان الوداع الأخير .

ففي نافذة من نوافذ الحارة .... كان يقف رفيقك عدنان يحمل في يده قنبلة يدوية .

وتذكرت فجأة ... في لحظة ما قاله يوم أن سقطت القدس .

فقد أقسم أن يقتل أول جندي يهودي يراه يطأ أرض الحارة بقدميه .

وخيل لي أنك تذكرت ذلك أيضاً .

ثم حدث كل شيء في سرعة البرق .

شاهد عدنان الجند يحيطون بك . أنت رفيقه . رفيق صباه . رفيق كفاحه . رفيق لياليه . فقام صراع بينه وبين نفسه .

لقد أقسم على قتل أول يهودي يدخل الحارة .

لكن هذا اليهودي الأول يسير وأنت برفقته .

فكيف يضرب وفي وفائه لقسمه قتلك أنت .

كأنك عرفت ما كان يجول في خاطره . فحسمت الموقف .

وقفت جامداً في مكانك ، وأومأت له أن يرمي بالقنبلة .

لم ينصع لأمرك . أشار إليك بالرفض . أومأت له بعنف أن يضرب ... لاحظ الجنود حركتك ...

رفعوا رشاشاتهم إلى حيث كنت تنظر ...

ورمى عدنان القنبلة .

وأغمي علي .

* * *

وفى رفيقك عدنان بقسمه .
قتل أول جندي يهودي دخل حارة النصارى .
وحققت أنت أمنيتك .
قتلت نفسك ...
وتركتني أنا ورجاء نواجه جنود الاحتلال .
نواجه الذل . نواجه العار . نواجه الهزيمة . نواجه ... الحياة من دونك .

* * *

ما زلنا نواجه الذل . العار . الهزيمة .
ما زالت أقدام جنود الاحتلال تدق أرض الحارة .
أقدامهم ... هي التي مسحت دمك على أرض الحارة .
أشياء كثيرة حدثت منذ أن رحلت ...
ضم اليهود القدس القديمة ، قدسك .... إلى القدس الجديدة .
عاد اليهود إلى حائط المبكى .
طرد اليهود العرب من حارة المغاربة .
احتل اليهود مساحات كبرى من الأراضي العربية في القدس ، ليقيموا عليها مساكن لهم .
دنس اليهود المسجد الأقصى والقيامة .
نسف اليهود العشرات من منازلنا .
طردوا الآلاف من اخواننا .
سجنوا وعذبوا المئات من شبابنا .
تحدوا كل قرارات الدنيا بالانسحاب .
هزئوا بكل قانون وعرف .
سرقوا ... نهبوا ... تمادوا في تحديهم .
عاملونا كمنتصرين .

أين معاملة النازية التي كانوا يشكون منها ؟
أين اضطهاد هتلر لهم ، من اضطهادهم لنا ...
أين وحشيته .... من وحشيتهم .
ولكن ...
حدث شيء آخر يا يوسف ... حدث الشيء الذي كنت دائماً تريده أن يحدث .
لقد استيقظ شعبك ...
شعب فلسطين ...
استيقظ من رقاده ...
من الكابوس الذي كان يرزح على صدره طول عشرين عاماً ...
عاد شعبك إلى حمل السلاح ...
عاد ، عاد إلى الكفاح . واسرائيل تحتل كل بلاده .
عاد إلى الكفاح الذي تعرف ...
الكفاح الذي بدأته أنت قبل ثلاثين عاماً ...
عاد الرصاص يزغرد ويزرع الرعب في قلوب الأعداء ...
انهم ، كما تعرفهم ، جبناء ...
انهم ، كما تعرفهم لا يصمدون أمام قنابلنا ورصاصنا ...
انهم لا ينامون الليل ...
بدأوا يهربون ، يا يوسف .
بدأوا يعودون من حيث أتوا ...
حمل اليهودي التائه ثيابه من جديد .
قنابلنا تخيفهم لأننا أصحاب حق .
نحن نريد وطننا .
نريد فلسطين .
نحن شعب فلسطين ، سنحرر فلسطين .

هذه المرة لن يوقفنا أحد .
لن يأمرنا أحد ... بهدنة .
هذه المرة سنحارب حتى نسترجع الوطن الضائع ... كله .
تعلمنا هذه ...
ثورة عام ١٩٣٦ .
وحرب عام ١٩٤٨ .
علمتنا أننا نحن ، ونحن فقط نستطيع أن نحرر الوطن .
ان أعمال الفدائيين تملأ الدنيا .
كل واحد منهم .. هو أنت يا حبيبي .
انهم استمرار لك .
أمس ، نزعت السواد المحيط بصورتك .
عدت فعلقتها ، بلا سواد ، في صدر الصالون .
أنت لم تمت .
كل فدائي هو أنت .
دمك لم يذهب هدراً .

لقد روى أرض فلسطين ، أرض القدس ، أرض حارة النصارى .
عبيره ، عبير دمك ، عبير البطولة ، يحدد دروب الكفاح لرفاقك .
اسطورة حياتك مشعل لهم يحملونه كلما أغاروا يزرعون الرعب في قلب المغتصب .
ما تمنيت شيئاً إلا أن يكون ابنك الوحيد أكبر بسنوات قليلة ، كي أدفعه معهم ، وكي أجلس في المنزل أنتظر ، كما عشت طول حياتي ، عودة البطل .

تعودت انتظار الأبطال منذ طفولتي .
هو وحده فهم كل شيء .
يعرف الآن أنك لم تسافر .

يعرف أنك مت فداء فلسطين . بين رفاقه يسير مرفوع الرأس لأنه ابن بطل .
من الآن يتسقط أنباء الفداء والفدائيين .
هو ينتظر ، كجميع أطفال فلسطين ، أن يكبر ، وينضم إلى القافلة ، قافلة الأبطال .
القافلة كبيرة وطويلة هذه المرة . لن تنتهي ، كلما سقط واحد ، انضم إليها عشرة .
توقفت عن البكاء يا يوسف . البكاء عليك . زوجة البطل يجب أن لا تبكي .
حتى المطر لم يعد يخيفني .
أنا لا أخاف من شيء ...

أجلس كل ليلة أصلي لهؤلاء الشبان الذين يهبون حياتهم ، دمهم ، أرواحهم من أجلنا .
من أجل رجاء ...
من أجل كل طفل في فلسطين .
رجاء سيسبح في بحر يافا وحيفا كما سبحت أنا في طفولتي .
رجاء سيزور كل فلسطين .
فلسطين كلها ستكون وطناً لرجاء .

يا يوسف ...
يا حبيبي ...

لترتح روحك حيث أنت ...
لتهدأ نفسك القلقة ...
فلسطين عائدة ...
قريباً ...
قريباً جداً ...

ان صوت فيروز ينساب إلي من النافذة ...
انها تغني للقدس ...

تقول :
البيت لنا ...
والقدس لنا ...
نعم ... البيت لنا ... والقدس لنا ... وكل حفنة تراب من فلسطين لنا ....

القدس - ١٩٦٧

الرحيل

هذه المرة ، كل ما يملك من متاع الدنيا « صرته » أم عدنان في « بقجتين » كبيرتين ، بعد أن باعت « بابور » الكاز ، وبعض الأدوات المنزلية إلى جاراتها في المخيم .

البيت ، خيمة حقيرة تملكها وكالة الاغاثة ، وستكون سعيدة لاستردادها كي تسكن فيها عائلة جديدة .
حتى عدنان لقد شب وكبر ، فلم يعد بحاجة إلى أن يحمله على ذراعيه كما فعل في المرة الأولى . وبطاقته ، بطاقة الاعاشة ، يحملها في جيبه ، وسيتولى تحويل مكانها من مخيم الدهيشة في بيت لحم ، إلى مخيم الزرقاء قرب عمان في الضفة الغربية .

هو بالفعل ، لا يريد الرحيل . فلقد أصبح له في التسعة عشر عاماً الماضية أصدقاء في مخيم الدهيشة ، له في المخيم ذكريات ، وجلسات مع الأصدقاء .
ولكنه خائف . خائف من اليهود . فبينه وبين اليهود ثأر قديم ، بيده هذه قتل منهم العشرات يوم كان مقاتلاً في قريته قبل تسعة عشر عاماً ، وقبل أكثر من ثلاثين عاماً في الثورة الكبيرة . يوم كان يحمل السلاح ليدافع عن القرية ، ومن ورائه كل أهل القرية ، شباباً وشيوخاً وأطفالاً .. وحتى النساء .

لم يهرب من القرية إلا مع آخر رصاصة في بندقيته ، ولو بقي معه رصاص ، لما احتل اليهود القرية .

اخبروه أنهم سألوا عنه ، عنه وحده عندما احتلوا القرية عام ١٩٤٨ . سألوا عنه طويلاً ، فتشوا بيوت القرية بيتاً بيتاً ، استجوبوا أهلها ، عذبوهم ... ولكن :

ـ أبو عدنان ، غير موجود ، لقد رحل !

كان هذا الجواب الوحيد الذي تلقوه من أهل القرية .

من أجل هذا ، هذا فقط ، هو يهرب . فعندما يستقر بهم المقام في بيت لحم ، سيبدأون بالسؤال عنه ، لتصفية الحساب .

والحساب طويل ..

حساب يعود تاريخه إلى عام ١٩٣٦ . يوم حمل أبو عدنان السلاح لأول مرة في وجه الانجليز واليهود ...

لم يكن متزوجاً ، يومها لم يكن قد بلغ العشرين . كان في مطلع عمره . أيام الشباب .. أيام الحماسة ... انه يذكر تلك الأيام جيداً ... يذكرها وكأنها ... كأنها الآن .

انه يذكر ، كيف توجه ذلك الصباح من قريته ، إلى مدينة يافا .

المسافة بينهما لم تكن تبعد أكثر من نصف ساعة ... بالسيارة .

ويذكر ، انه لما وصل إلى هناك ، لاحظ أن في المدينة حركة غير عادية . على وجوه الناس ... وجوم . في نظراتهم .. قلق .

ولم يسأل أحداً من الناس ، انتظر حتى وصل إلى دكان قريب له من القرية . وكان القريب قد رحل إلى يافا منذ زمن طويل ، حتى أصبح وكأنه واحد من أهلها .

قريبه أيضاً ، عندما وصل إلى دكانه ، كان واجماً ساهماً .. وفي نظراته قلق . ولم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك ، فسأله عن سر وجومه ، وقلق الناس .

ونظر قريبه في وجهه طويلاً ، وكأنه ينظر خلاله وليس إليه ..

قال :

ـ ألم تسمع الأخبار .. ؟

ـ أية أخبار ... ؟

ـ أخبار شحنة السلاح التي اكتشفت صباح أمس في المرفأ ..
ـ سلاح ؟ مرفأ ... لا لم أسمع .. .
ـ ان المدينة كلها لا تتحدث إلا بأخبار هذه الشحنة .
ـ لم أصل إلى المدينة إلا قبل ساعة ... وقد لاحظت توتر الجو على وجوه الناس ، وعلى وجهك . ولذلك سألتك .

وأخذ قريبه نفساً طويلاً من سيجارته ، ثم استأنف حديثه بصوت هادئ :
ـ القصة باختصار هي كما يلي .
صباح أمس وصلت باخرة إلى الميناء باسم بعض التجار اليهود من تل أبيب .. بدأ العمال العرب بتفريغ البضاعة التي كان من المفروض أن تكون « اسمنت » . وبينما كان أحدهم يرفع أحد أكياس الاسمنت وقع الكيس من يده ، وتناثرت محتوياته على الرصيف . ولم تكن .. المحتويات التي في داخل الكيس من الإسمنت .

وسكت قريبه ، فجأة ..
فسأله :
ـ لم سكت ، أخبرني ، ماذا كان داخل الكيس .
ـ لقد أخبرتك قبل أن أروي القصة ، كان في داخل الكيس أسلحة .
ـ أسلحة ؟ ! !
ـ نعم أسلحة ... لقد اكتشف العرب فجأة بأن معظم البواخر التي كانت تأتي باسم اليهود ، والتي كان من المفروض أن تحمل بضائع عادية ، كانت تحمل أسلحة . كل هذا بمعرفة الحكومة .. وموافقتها . منذ سنوات واليهود يتسلحون ، يهربون الأسلحة ، تحت سمعنا ونظرنا .. و بمساعدة عمالنا .

ـ يا .. الله ! !
ـ أرأيت كيف سقط الخبر عليك سقوط الصاعقة ، ان الوجوم يكسو وجهك الآن كما يكسو وجهي .. اذهب .. اذهب إلى هناك وانظر لوجهك في المرآة .

ولم ينظر إلى وجهه في المرآة . يكفيه أن ينظر إلى وجه قريبه ... ليعرف شكل وجهه .
وجلس على مقعد صغير في الدكان .. يفكر . هذه هي المرة التي يفكر فيها ، جدياً ، بالانجليز واليهود ... وفلسطين .

لقد سمع عن القضية كثيراً .
كل ليلة تقريباً ، في مجلس والده المختار . يجلس شيوخ القرية يتحدثون عن الموضوع .
بعضهم يروي قصص العروض والمغريات التي تنهال عليه كل يوم ليبيع جزءاً من أرضه .. لليهود . وبعضهم يروي عن الذي تعرض له عندما ذهب إلى احدى الدوائر الحكومية وكانت له معاملة عند موظف .. يهودي . وبعضهم يروي ، ما سمعه ، خلال زيارته ليافا أو القدس أو حيفا ، عن مشاريع اليهود لاقامة وطن في فلسطين .

والآخر يقص على رفاقه قصة الباخرة التي هربت بعض المهاجرين اليهود ...
وكان يستمع إلى كل هذا ..
ولكنه كان يؤمن في قرارة نفسه أن كثيراً من الكلام الذي يسمعه فيه الكثير من المبالغة .
واليوم .. اليوم فقط ، يرى ، ويسمع ويعيش حدثاً يثبت له أن الكلام الذي كان يسمعه خلال الأمسيات في منزل والده المختار ليس فيه مبالغة على الاطلاق ...

والتفت إلى قريبه ، ليسأل ، بعد دقائق طويلة من الصمت .
ـ والحل ....
ـ الاضراب ... ستعلن البلاد كلها الاضراب غداً ..
ـ وإذا لم ينجح الاضراب ... ؟
ـ نعلن الثورة . لن يحل القضية إلا السلاح . الثورة المسلحة .

في تلك الليلة ، عاد إلى قريته يحمل أخبار شحنة السلاح . والاضراب .. والثورة .
تلك الليلة ، في مجلس والده ، كان هو المتحدث الوحيد في السهرة .

القرية كلها اجتمعت حوله ، تسمع بذهول ، الأنباء التي عاد بها من يافا .
اضراب ! ! ؟
ثورة ! ! ؟
اليهود يجمعون السلاح ، يهربون السلاح ، بمعرفة الحكومة ! !
وانتقل جو يافا .. إلى القرية .
التوتر ، والقلق .. والانتظار .
وتقرر في نهاية السهرة ، أن يتوجه والده ووفد من وجهاء القرية إلى يافا مع الصباح ، لدرس الوضع ، واستشارة زعماء المدينة هناك عن الخطوات الواجب اتخاذها ... في القرية .

وكان الصمت يلف القرية مع الفجر عندما بدأ والده ورفاقه الرحلة ، لكن العيون لم تكن نائمة داخل المنازل المغلقة ، طوال الليل لم ينم أحد من الرجال ، لقد كانوا يفكرون .. في الثورة .

وفي المساء ، تجمع الرجال على مشارف القرية ينتظرون . لم يجمع بينهم كلام ، أو حديث ، الذي جمع بينهم كانت النظرة البعيدة إلى الطريق ، واصغاء مرهف إلى صوت سيارة تأتي تحمل المختار ، ورفاق المختار .. والخبر .

ولم تحضر السيارة إلا مع الليل .
ولحق بها الناس إلى منزل والده . وتصدر والده المجلس مكفهر الوجه في عبوس .
الكل ، الكل ينتظر منه الكلمة .. الخبر . والكلمة كانت مختصرة ، لها وقع كوقع الصاعقة .

وقال والده : غداً سنحمل السلاح ، البلاد مقدمة على معركة طويلة وفاصلة . والمعركة ستكون ضد الحكومة وضد اليهود .. معاً .

ووقف ، فوقف الجميع .
لقد كان متعباً .. يريد النوم .
« والصباح رباح » .. كما يقولون .
وحمل السلاح .. مع رفاقه من شباب القرية .

وتدرب على استعمال السلاح .

واحب السلاح ، أصبح رفيق لياليه الطوال ، وعشير نهاراته .

وخاض أول معركة ..

وأول معركة في حياة المحارب ، كأول حب . تلك لا تنسى ، وهذا لا ينسى .

انها كأول موعد ، كأول قبلة .

وكانت المعركة ضد مستعمرة جديدة ، ووحيدة لليهود ، أنشأوها بالقرب من قريتهم .

ودوى صوت الرصاص .

وأطلق الرصاصة الأولى ثم هجم مع رفاقه .

واستمرت المعركة لساعات . وهو لا يفرغ « مشطاً » في بندقيته إلا ليملأها (بمشط) جديد .

ومع الصباح كان يهود المستعمرة يرحلون . وكان أول الداخلين إلى أرض العدو ، بندقيته في يمينه ، وفي رعشة نشوة لم يعرفها من قبل .. اسمها : نشوة النصر .

وكرت المعارك ..

من هذه المستعمرة ، إلى مستعمرات أبعد وأكبر ، وانضم إلى شباب قريته شباب من القرى الأخرى ، وكبر عدد المحاربين .

وكبرت معاركهم ، وانتصاراتهم . من المستعمرات ، إلى معسكرات الجيش الانجليزي ..

إلى معارك مع الجيش الانجليزي ..

ويعود إلى القرية بعد كل معركة ، لتستقبله أمه بالزغاريد ، ولتتبعها زغاريد نساء القرية .

زغاريد النصر .

اليوم بعد أكثر من ثلاثين عاماً ... وهو يقف أمام الخيمة ينتظر عودة ابنه عدنان ، من مشواره إلى الدكان ليشتري له علبة سجائر ، اليوم والذكريات تعصف برأسه ، يذكر ، انه منذ ذلك التاريخ . منذ معركته الأولى ، قضى كل حياته ، بين زغاريد النصر .. وعويل الهزيمة .

اليوم .. لم يكن هناك زغاريد ، اليوم ، عويل ، وتفجع ، لقد ضاعت البلاد كلها .

عاد عدنان ، فحمل (بقجة) كبيرة ، وحمل هو الأخرى ، وبدأ الرحيل الجديد ....
... هو لا ينسى أيضاً يوم جاءت سيارات الجنود الانجليز فجأة إلى القرية ، تفتش عن السلاح .
وكيف استطاعوا تهريب السلاح إلى الجبال في اللحظة الأخيرة ، وكيف قلب الجنود المنازل والحوانيت بحثاً ، فلم يجدوا شيئاً . والناس ، حتى الأطفال ينظرون إليهم وفي عيونهم سخرية وشماتة .

وعندما ذهبوا ، لم يذهبوا لوحدهم ، أصروا على أن يرافقهم والدهإلى قيادة الشرطة في يافا .. للتحقيق .

وعاد والده بعد ثلاثة أيام ...
عاد وقد ازداد عبوساً ، وصمتاً .
عبثاً حاول أهل القرية أن يعرفوا ماذا جرى له في مركز قيادة الشرطة ..
اختصر ، كل ما حدث له بان قال : لقد حاولوا اجباري على الاعتراف ، ففشلوا .
لكنه كان يعرف والده .
يعرفه أكثر من كل أهل القرية .
لا بد وأنهم قد أهانوه .
أو حتى .... ضربوه .

فالنظرة في عينيه ازدادت حدة ، وحقداً ، وأصر مع عودته على شراء المزيد من الأسلحة .
كما أصر على أن يذهب فريق من شباب القرية إلى يافا للمساهمة في المعارك (الكبرى) هناك ، كما كان يسميها .

الاهانة ، أو الصفعة التي تلقاها في مركز البوليس ، أراد أن يردها لهم معركة ... بالرصاص .
وقد ردها ... بعنف ، لم يتوقعه أحد .
باع قطعة أرض . أغلى قطعة عنده . ليشتري السلاح .
خاض بماله ، معركة القرية كلها ، وترك ابنه الوحيد فؤاد يساهم في المعركة ، بزنده ، بشبابه ...

نظرة الكره والحقد في عيني والده ، ما كانت تلين قليلاً إلا عندما يعود ليخبره بتفاصيل نصر جديد ..

كان يجلس معه الساعات الطوال ..
يريد أن يستمع إلى كل ما حدث ، إلى كل التفاصيل ، بدقة ..
كيف رسمت الخطة .. كيف تم الهجوم .. كم قتيل من الأعداء .. كيف اشتعلت النيران في المنازل .. كيف هربوا ، كيف كانوا يتصايحون ذعراً ...

وهو يروي له بالدقة التي يريد ..

وعندما ينتهي ، يميل والده ليقبله في جبينه وهو يقول : بارك الله فيك وبأمثالك يا .. فؤاد أنتم عماد الوطن . لن نخسر معركة وأنتم فيها ..

ثم يذهب لينام .

في تلك الليلة فقط كان ينام هادئاً ، قرير العين .
أما الليالي الأخرى ..
ليالي الهدوء .. التي بلا معارك ، فقد كان يقضها ساهراً يحرق أعصابه مع لفائف الدخان حتى الفجر .

وذات ليلة ، جاءهم زائر من القدس . زائر غريب لن ينساه مهما امتدت ايامه ، أو عاش .
قال الزائر الغريب القادم من القدس أنه يريد مقابلة .. والده ، المختار .
ولم يكن والده في المنزل ساعة وصل .. الغريب . كان في الحقل .
ولم يكن في المنزل سوى والدته ، وهو ، ورفيق له من رفاق السلاح .
وجلس الغريب ، صامتاً ، ينتظر أوبة والدي .
عبثاً حاول هو ورفيقه استدراجه للحديث .
عبثاً حاول أن يعرف سبب زيارته الغريبة .

كان الغريب يصر على التحدث مع والده فقط . وعندما حضر والده ، بعد ساعة ، رفض أن يتحدث إليه الا لوحده ، في غرفة مغلقة .

لم يسمع ما دار بينهما من حديث ، لكنه سمع صوت والده يهدر من الغرفة المجاورة ، ثم فتح باب الغرفة ورأى والده يشير بيده إلى الباب وهو يقول صارخاً : أخرج .. أخرج من منزلي يا سيد ، لو لم تكن في منزلي لقتلتك ! !

يقتله ؟ ! !
ماذا قال هذا الغريب القادم ـ
كما قال من القدس ـ حتى ينفعل والده ؟
في حياته لم ير والده منفعلاً
كما رآه اليوم ..

عندما ينفعل والده ، عادة ، عندما يغضب ، يصمت ، ويتحول الانفعال والغضب إلى عينيه ، أما صوته فيبقى هادئاً ، بل يزداد هدوءاً .. مع الغضب .

أما اليوم ، فها هو يتخلى عن كل هذا ، ويصرخ . ثم يهدد رجلاً غريباً ... بالقتل .
وتبع الرجل . أوقفه قبل أن يهم بركوب سيارته . سأل الرجل عن سر الحديث الذي دار بينه وبين والده ..

حاول الرجل أن يتهرب من الاجابة ، لكن فوهة المسدس وهي تحز في خاصرته جعلته يتوقف قليلاً عن التهرب .

سمع صوته أخيراً ...
قال الرجل :
ـ ولم لا تسأل والدك ... ؟
ـ لأنه لن يجيب .

ـ قدمت له عرضاً يختص بقطعة الأرض المجاورة للمستعمرة التي بجانبكم ..
ـ عرض .. شراء ؟
ـ نعم ...
ـ ومن أنت حتى تعرض مثل هذا العرض ؟ ولماذا تريد هذه الأرض بالذات ، بجانب المستعمرة .

ـ أنا ... أنا .. سمسار أراضي ! !
ـ لمصلحة اليهود ؟ ! !
ـ لا .. لا لمصلحتي أنا ..

ـ هذه الأرض قاحلة . لا تزرع . ولا يشتريها أحد ، وتأتي من القدس لتشتريها ، يا ... قذر .
وبان الذعر على وجه الرجل ، لكنه تمالك أعصابه قبل أن يقول :
ـ أنت تتحدث ... كوالدك !
ـ أي شاب أو رجل في القرية يتحدث كوالدي عندما يكون الحديث مع ... خائن مثلك .

وكاد يطلق عليه الرصاص . لولا أنه تذكر في اللحظة الأخيرة كلام والده . (لو لم تكن في منزلي ... لقتلتك) .

لكنه لم يستطع أن يسيطر على أعصابه ، فصفع الرجل بعنف ، قبل أن يصعد إلى السيارة .
وعندما عاد إلى المنزل ، لاحظ أن والده كان يراقبه .. من النافذة . لم يتحدثا في موضوع الرجل . القضية واضحة .

رجل باع ضميره ، جاءإلى منزلهما لاقناع والده ، بأن يبيع قطعة من الوطن .
لو عرف الرجل أن والده يبيع أرضه ليشتري السلاح ، لما جاء .
من يدري ، لعله مرسل من قبل أشخاص يريدون امتحان وطنية والده . ولكن ، هل هناك شك في وطنية والده .

وأي وطنية ، أقوى وأشد صلابة من وطنية رجل ، وهب ماله من أجل الثورة ، ووهب فوق

ماله ما هو أغلى وأقدس ، وهب حياة ابنه .

أو ....

أو لعل الرجل بالفعل يريد أن يشتري الأرض لنفسه .

ولكن ، لمَ يشتريها .

لن يستفيد من هذه الأرض القاحلة ، إلا أهالي المستعمرة .

لقد حاولوا منذ سنين أن يشتروها من والده . دفعوا ثمناً خيالياً لها ..

كان جواب والده الوحيد أن قال لهم بهدوء :

– هل عرفتم ما حدث للرحل الذي باعكم أرض المستعمرة ..

لم يجبه أحد .

ولم يكن هو نفسه بحاجة إلى جواب

الرجل ، وجد مذبوحاً أمام باب منزله . بعدأن باع الأرض .. باسبوع . وأهله تركوا القرية .. من الخزي والعار .

أهل الخائن يتحملون ، ظلماً ، وزر خيانته . وأهل القرية . تحملوا أيضاً ثمن هذه الخيانة .

لقد أنشئ على أرض الخائن مستعمرة ، تتحداهم ، تتحدى شعورهم . تقول لهم كلما مروا من جانبها : باعنا هذه الأرض واحد منكم

لم يكف قتل الرجل .

حتى ألف عام من اليوم . سيذكر الناس أن واحداً ، واحداً من أهل القرية قد خان .

ولقد قتل ثلاثة من شباب القرية قبل احتلال المستعمرة ، وطرد أهاليها ، ومع ذلك ، حتى مع افتداء الخيانة بالدم . ذكره رفيق له من يافا قبل أيام بقطعة الأرض التي باعها – أحدهم – إلى اليهود ..

ان الخيانة كالشرف ، لا يغسلها شيء .. حتى الدم . وصمة عار كانت ، ووصمة عار ستبقى .

وهذا الرجل الغريب القادم من المدينة البعيدة جاء يفاوض لوصم القرية بعار جديد .

وجاء يفاوض من ؟ !
والده ...
وكل أهل القرية يتهامسون بأن الذي ذبح الخائن ، كان والده .
قد يكون هو الذي ذبحه ، وقد لا يكون . ولكنه على الأقل يعرف من ذبحه . ولقد وافق على الذبح .
وهو على استعداد لأن يذبح أي خائن جديد ، حتى ولو كان الخائن ابنه الوحيد .
من الناس من يؤمن بالوطن .. لأنه يريد أن يقلد غيره .. أو خشية انتقاد الناس .. أو لأن له فيه مصلحة .

ومن الناس من يؤمن بالوطن بلا مناقشة بلا تفكير ، كإيمانه بالله .
ووالده من النوع الثاني .
انه لا يناقش من أجل من ، ولأجل من نقاتل ونحارب ..
انه يعرف أن كل هذا يجب أن يحدث لأن الوطن مهدد ، لأن فلسطين مهددة ، لأن القدس مهددة ، ويافا وحيفا واللد والرملة وجنين ونابلس و .. والقرية نفسها .

أحياناً يشك كثيراً إذا كان والده يستطيع النوم في أي مكان في الدنيا ، إلا في القرية انه يحبها ، يعبدها ، يمشي على أرضها ، فلا يطأ الأرض الا وكأنه يلمسها لمساً ، كما يلمس الحبيب شفاه حبيبته .

يمسك بحبة الزيتون .. كأنه يمسك بجوهرة .
يعصر سنبلة القمح بين يديه برفق : وتؤدة ، كأنه يعصر يد فتاة في عمر الورود .
يقطف الزهرة ، يشمها ، كأن فيها عبيراً من السماء ..
هذا هو والده .
هذا هو الرجل الذي جاء من يفاوضه اليوم على بيع أرض له لليهود ..
ما أغبى هذا الرجل الغريب ؟ .

ولم ينقذه من أفكاره إلا صوت رفيقه سمير جاء يدعوه إلى جولة جديدة مع العدو .

الليلة .. سينسفون قطاراً محملاً بالمؤن والذخيرة ـ لعسكر ـ الانجليز .

الليلة سينفذون عملية من أكبر العمليات التي قاموا بها .

دوى صوت الانفجار كالرعد . يمزق الظلام . وانقلب القطار ... واشتعلت النيران فيه ..
والذين نجوا من حراسه . اشتبكوا في معركة ضارية مع الثوار .
واندلع صوت الرصاص يحصد جنود الانجليز ... حتى لم يبق منهم إلا قلة قليلة ، هربوا طلباً للنجاة . ولابلاغ رؤسائهم أن هؤلاء العرب .. في غضبهم ، لا يرحمون .
ومع الفجر ، كان جنود الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، يطوقون المنطقة .
ومع المغيب ، كانوا يقتادون قافلة كبيرة من الشباب . كان هو بينهم إلى السجن للاشتباه بهم . وبأنهم اشتركوا في عملية النسف .

وفي السجن الكبير في يافا . مع منتصف الليل . انطلق صوت رفيقه سمير ينشد .

يـــا ظلام السجن خيـــــم   اننـــا نهوى الظلامــــــا

وفجأة تبعه بقية الشباب ، من مختلف الزنزانات والعنابر ينشدون معاً ..

يـــا ظلام السجن خيـــــم   اننـــا نهوى الظلامــــــا

بتحد كأنه تحدي النور ، كانوا يتحدون بأصواتهم السجن والسجان معاً . وفي التحقيق . لم ينفع معهم اللين ، ولم ينفع معهم العنف .. ولم تنفع معهم الخديعة .

قالوا لفؤاد أن يوسف اعترف بكل شيء ...
وقالوا ليوسف أن سمير اعترف بكل شيء ...
وقالوا لسمير أن فؤاد أخبرهم عن كل شيء ...
فكان الجواب الوحيد . هو الصمت ، وإذا تكلم أحدهم ، فليقول :
ـ أنا لا أعرف شيئاً ، ولم أشترك بشيء ، ليلة الحادث كنت نائماً في منزلي .
وما حدث أثناء التحقيق حدث أثناء المحاكمة .

احضروا شهود زور زوروا اعترافات كاذبة .
ومع ذلك فلم يتغير شيء واضطروا في النهاية إلى الافراج عنهم . وعادوا لتستقبلهم القرية في عرس ، وزغرد الرصاص في السماء ابتهاجاً ، وسهر الناس حتى الفجر .

وبعد يومين كان كل منهم يحمل بندقيته ، وينطلق ليسدد رصاصه إلى صدر العدو من جديد .
اليوم ، بعد ثلاثين عاماً وأكثر لا يزال يذكر تلك الليلة ليلة القاء السلاح ...
ليلة حضر الرسول من يافا ليقول ان الثورة قد انتهت .
لقد اتفق الانجليز ، مع بعض الملوك والزعماء العرب على انهاء القضية بالتفاوض .
والتفاوض يجب أن يتم بجو هادئ ، بلا ثورة ...

ولإعطاء الإنجليز الفرصة ، بهدوء .. فيجب إلقاء السلاح .
والثورة ؟ والسلاح ؟ والشهداء ؟ والاضراب ؟ وإيقاف الهجرة . وإيقاف تهريب السلاح .
وألف .. مطلب ومطلب . بالتفاوض والهدوء ... ليلتها بكى ... ثم بكى مرة ثانية . وهو يدفن سلاحه في حديقة المنزل . ولم تكن هذه .. هي المرة الأخيرة التي يبكي فيها .

... وعادت الحياة في القرية إلى رتابتها . وهدوئها .. واستبدل البندقية بالمنجل .
وأخذ يداعب بيديه رؤوس سنابل القمح ، بدلاً من أن يداعب زناد بندقيته . يستيقظ مع الفجر . ينام بعد المغرب .. بقليل . يحرث الأرض (بجد) الزيتون . (ينقب) أشجار الليمون . وتمضي الأيام ويتزوج ابنة عمه . منذ طفولته كان يعرف أنه سيتزوج ابنة عمه ...

كانت القضية . قضية وقت . تأخر الوقت قليلاً بسبب الثورة . وانتهت الثورة . وتزوج . ولم يرزق بأولاد .

قال الطبيب أنه لن يرزق بأولاد إلا بعد علاج طويل لزوجته . علاج يستغرق بضعة أعوام . وقد ينجح وقد لا ينجح .

واستسلم لإرادة الله ، ولعلاج الطبيب .
كل شهر كان يأخذ زوجته إلى الطبيب في يافا .

ويسأل الطبيب . يسأله بإلحاح عن النتيجة ...
والطبيب يقول .. في تحسن .. في تحسن يا سيد فؤاد ..
أحياناً يكاد يضحك من كلمة سيد . لا أحد ينادي الفلاح بكلمة ، سيد . الفلاح اما ينادى باسمه الأول ، أو باسم أبو .... إذا كان لديه أولاد .

ويغص قلبه .
كلما قال له أحدهم عقبال فرحتك بعريس .
أو ، تعيش حتى ترى أولادك .
أو : يا رب « نشوفلك » ولد .
كلما استمع إلى أية عبارة من هذه العبارات ، يغص قلبه .
كلما عاد من ـ المشوار ـ مع زوجته من عند الطبيب .. وتسأله أمه . بلهفة ، بحنان . يغص قلبه .
كلما ناداه أحد رفاقه باسمه الأول ، وليس ـ بأبو .... ـ يغص قلبه .
ومع ذلك . مع الألم الذي يملأ صدره ، فلم يكن يتذمر . لم يعامل زوجته إلا بالرقة التي تفرضها الحياة الزوجية السعيدة .

هي أيضاً حزينة .
يستيقظ في الليل يجدها تبكي بكاء صامتاً .
دموعها تملأ وجهها . لا تبكي إلا في الليل . وحدها .
ويسألها فتقول : لا شيء .. لا شيء .. تعب ! ويعرف أنه ليس بتعب .
وانما حناناً إلى طفل صغير تشده إلى صدرها ..
تهدهده . تربيه .. تفخر به أمام نساء القرية .
عاقر ؟ !
هذه الكلمة تبكيها .
ويحار كيف يعزيها ، وهو بحاجة إلى من يعزيه .
ويكتفي أن ينظر إليها ، والألم يمزقه .

وتمر الأيام ، والأمل في صدره يخف شيئاً فشيئاً من مجيء الطفل .
وقرر أن لا يفكر .. بالموضوع ، أن ينساه ، أو يتناساه . ولكن هل تنساه هي .
وعندما ظن أنها قد نسيته . إذا به يفاجأ ذات ليلة بها تقول له .
ـ يا فؤاد .. لم لا تطلقني ؟
وصرخ :
ـ ماذا ؟ ! ماذا تقولين .. ؟
ـ نعم يا فؤاد .. لم لا تطلقني ...
وبصعوبة سيطر على أعصابه ثم سأل :
ـ والسبب ؟ !
ـ انك تعرف السبب . منذ خمسة أعوام وأنت تنتظر أن يرزقك الله بطفل . نصف نقودك . تذهب كل شهر إلى الطبيب . وأنت صابر تنتظر .
ـ ولكنني ...
قاطعها ...
ـ لا تقاطعني يا فؤاد أرجوك .. أعرف ما ستقوله . أعرف تماماً ما ستقوله أرجوك فقط أن تستمع إلي ..
واستمع إليها ...
قالت :
ـ أنت شاب . وفي مطلع عمرك . وتحب الأطفال ، ويمكنك أن تتزوج وترزق بأطفال . حرام أن تقضي عمرك معي فتحرم من شيء تحبه حتى .. العبادة . لذلك . طلقني . ولن ألومك .
ولم يستطع أن يحتمل أكثر من هذا ، فصرخ .
ـ لا أسمح لك اطلاقاً بأن تستمري في مثل هذا الكلام ، لا أريد أن أطلقك . ولا أريد أطفالاً ... هذه إرادة الله . وعلينا أن نقتنع بإرادته .
وحاولت ...

حاولت كثيراً أن تقنعه .. ولكنه أبى أن يقتنع . وفي النهاية . ترك الغرفة لأنه رفض أن يستمع إليها .
وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها عن الموضوع .
واستمر . باصرار . يصحبها إلى الطبيب في يافا كل شهر ما دام هناك أمل . فسيتابع ملاحقة الأمل ، حتى النهاية .

يسأل الطبيب . والطبيب لا يقطع الأمل . ولا يقويه .
وكل شهر . يذهب . ويعود بأدوية جديدة . وعلاج جديد . والشهر يمر تلو الشهر ... وهو ينتظر .. ينتظر .

كانت حياته هادئة لا تخرج عن رتابتها . دخل حياته شيء واجد ، جديد . لقد أهدت الحكومة والده ـ راديو ـ كبيراً على البطارية .. كي يستمع الأهالي إلى أخبار الحرب بين الألمان والانجليز .

وأصبح المجلس في منزل والده ، حلقة حول الراديو ، واستماع إلى الأخبار ، وتعليقات حول الأخبار . وانقسام في الرأي . فريق مع الألمان .. وهتلر . وفريق مع الانجليز .. وتشرشل . ويحتدم النقاش . الذين مع الالمان ، يريدون لهم النصر ... لأنهم الطريق الوحيد للتخلص من اليهود والانجليز ، والذين مع الانجليز ، يريدون لهم النصر ، لأن هناك من قال لهم أن هتلر يعتبر العرب من الشعوب المتأخرة ، وأن عدواً تعرفه خيراً من صديق لا تعرفه .

وكل ليلة ، يحتدم النقاش . النقاش نفسه ... وينتهي .. بلا اتفاق . وينام الناس لينسوا أخبار الحرب ، لا حرب في رؤوسهم وهم في الحقل .. الحرب .. بعد الحقل . الحرب ، دائماً ، بالنسبة لهم تبدأ مع الليل . مع المغرب. مع أول نشرة أخبار من اذاعة ... لندن .

وهو يشترك في النقاش .. كان ضد الانجليز . كان مع هتلر ومع الألمان ...
أولاً لأنه حارب ضد الانجليز .

وثانياً لأنه لا يثق بهم ، ولا يثق بوعودهم ، ويعتقد بأن الناس جربوهم لسنوات طويلة ، وكانت النتيجة أن تدفق اليهود إلى البلاد .. وتدفقت الأسلحة .. و .... بقية القصة !

ولكنه ، كغيره ، كان ينسى الحرب عندما تطأ قدمه .. أرض الحقل . ويعود إلى الحرب .. في الليل .

أما حربه مع نفسه ، مع قلبه الذي يصلي من أجل طفل ، فكانت تبدأ بعد عودته إلى المنزل .
وزوجته ، تتعذب . بصمت ... تتعذب . وتذبل .
قبل ان تصل الخامسة والعشرين ، بدأت تبدو وكأنها في الخمسين .
حاول .. ، يحاول أن يغريها . يخفف عنها ، يبعث في قلبها الأمل . ولكن عبثاً ..
وبدأت تحاول أن ترفض الذهاب إلى الطبيب ... كل شهر . بدأ يرغمها على الذهاب . تذهب .. وهي لا تريد أن تذهب .

وتعود .. وهي تتحدث طوال الطريق عن عدم جدوى العودة في الشهر المقبل .
ومع ذلك تعود في الشهر المقبل ، رغماً عنها ..
والطبيب ، لا يطمئن ولا يبعث على اليأس وهو ... لا ييأس ، ولا يطمئن .
أمره لله .. وماذا يفعل ؟

كما انتهت الثورة . كذلك انتهت الحرب ... واستمع من الراديو إلى خبر هزيمة الالمان واستسلامهم .

لم يبك ليلتها ، كما بكى عام ١٩٣٦ . إنما جلس صامتاً بذهول ، يسمع أنباء هزيمة أولئك الذين تمنى لو ينتصرون .

وغيره أيضاً .. جلس صامتاً . أصدقاء الانجليز ، مع انهم قلة ، هللوا ، وفرحوا .. ثم صمتوا .

فقد اكتشف الجميع أن هزيمة الألمان أو هزيمة الانجليز ، لن تغير من واقع الحقيقة شيئاً ...
لقد عادت الأزمة . ستعود المعركة .. قالوا : لقد انتهى حرب الانجليز مع الالمان . وستبدأ حربهم ، معنا .

واستمر الصمت حتى نهاية السهرة .

وعندما عاد إلى منزله ... وجد زوجته تجلس في الخارج في انتظاره . هي ، أيضاً سألته . إذا كانت الحرب قد انتهت .

استغرب سؤالها . استغرب حتى معرفتها أن هناك حرباً .
وأخبرها أنها انتهت ، ودخل معها إلى الداخل ، وهو لا يزال يفكر : كيف عرفت أن الحرب قد انتهت؟

في اليوم التالي ، رافقها إلى يافا ، إلى الطبيب .
ولم يصدق ما قاله له الطبيب . لقد خرج من باب العيادة ، ووجهه مشرق ، يمد يده وهو يقول : مبروك .. مبروك يا سيد فؤاد . بعد ثمانية أشهر ستصبح أباً ..

ما ذا يفعل ... هل يقبل الطبيب ؟ هل يرقص ؟ هل يغني ؟
ورأى زوجته ، كانت وراء الطبيب ، وكانت تبكي ، تبكي ، وتبتسم . و ... وكاد يبكي !

أمه زغردت .. زغرودتها نقلت الخبر إلى الجارات .. زغاريد نساء الحارة نقلت الخبر إلى نساء القرية ..

والزغاريد نقلت الخبر إلى الرجال ، والرجال ابتسموا ... وتحلقوا حول فؤاد ، يقبلونه ، وما أحلى قبلة التهنئة بطفل .

تلك الليلة .. لم يكن في عيني زوجته حزن . كان فيهما فرح صامت سعيد . فرح الدنيا . فرح كأنه عرس القدر . وكان ، في نظره ، عرساً من أحلى أعراس القدر .

في تلك الليلة ، ركع على بلاط المنزل ، ورفع يديه إلى الله ، واختصر صلاته بكلمة : شكراً .
إيمان عميق ، غمر قلبه في تلك الليلة ، إيمان بأن الله ، الله وحده .. هو الذي من عليه بالطفل .
وفي الصباح لم يستغرب لماذا استيقظ وهو يشعر بنشاط لم يشعر به منذ عشرة أعوام .
ولم يستغرب أيضاً ، لماذا وجد زوجته مستيقظة قبله ، أيضاً في وجهها نشاط .
وللمرة الأولى لم يسمح لزوجته أن تهيء له الطعام ، كي يأخذه معه إلى الحقل . قال لها : سأعود

لتناول طعام الغذاء هنا . لماذا ؟ ! سألته ، مستغربة .

كذب عليها ، أيضاً لأول مرة . قال لها : يجب أن أعود لأنني على موعد مع صديق لي ، هنا في القرية . وصدقته ، أولاً لأنها تصدقه دائماً . وثانياً لأنه لم يتعود أن يكذب عليها .

وعاد ساعة الغذاء .. فقط من أجل سبب واحد :
هو أن يطمئن عليها ، وعلى طفله . وأصبح يعود كل يوم ، ليطمئن عليها ، وعلى طفله .
كان واثقاً أن ما ينتظره هو زوجته ، المولود الجديد ، سيكون طفلاً ، وليس طفلة . وسيطلق عليه اسم والده ، سيسميه : عدنان .
أبو عدنان ...

كل القرية ، منذ أن انتشر الخبر أصبحت تناديه باسم ـ أبو عدنان ـ !
كلهم ، كلهم بلا استثناء ، كانوا ينتظرون عدنان ، وليس ـ عدنانه ـ !
أبو عدنان ...
يا أحلى الأسماء ... هو على استعداد ، لأن يتنازل عن اسمه ، اسم فؤاد في سبيل أن يستبدله باسم : أبو عدنان .

حتى زوجته ، مع الزمن ، ابتدأت تناديه باسم : أبو عدنان .
وأصبح همه الأوحد ... أن يعد الأيام في انتظار ، عدنان !

وجاء ... عدنان . تماماً ، كما توقع ، وتوقع الجميع ... وليلة ، ولد عدنان . كان يوم عيد في القرية ، أصبح المختار ، أبو فؤاد ، جداً وحمل طفل جديد في القرية اسم المختار : عدنان ، « وتمخطر » أبو عدنان في القرية ، « تمخطر » تيها ، لقد حقق الله أمنيته ودعوته الوحيدة ، إلى الله ، أن يعيش عدنان ، حتى يراه والده ، شاباً ، طويلاً ، كبيراً ، قوياً يحرث الحقل ، بنفس السهولة التي يحمل فيها البندقية

كل يوم ، لا ينام ، إلا إذا كان آخر وجه يراه ، وجه عدنان .

وجه المستقبل ، كان في وجه عدنان .

انه المستقبل ، والحاضر ، والأمل المشرق ، و .... الطفل الذي نقله من فؤاد ـ حاف ـ إلى أبي عدنان .

أبو عدنان ... نادته زوجته .

ـ نعم يا أم عدنان ...

... لم تقل أم عدنان ، ما تريد أن تقوله ... اكتفت بأن قالت أبو عدنان ، ثم احتضنته ، ولم تتركه ، إلا عندما .. بكى عدنان .

بكاء ... عدنان ، كالأم ، كضربة عصا قائد الفرقة الموسيقية ، كطلقة بدء السباق . كاشارة المرور ... يجب أن تطاع .

هذا البكاء ، هو الذي جعلها تترك ـ أبو عدنان ـ وتذهب إلى عدنان .

عدنان ، فرحة المنزل ، والقرية ، عدنان ، فرحة . عدنان . إلى فرحه !

وعندما عادت أم عدنان من عند عدنان نسيت لماذا نادت ـ أبو عدنان ـ قبل نصف ساعة .. وهو لم يكن حريصاً على أن يعرف ماذا كانت تريد أن تقوله . كل ما يريد أن يعرفه . هو أخبار عدنان .

... وأخبار عدنان ، كانت كالعادة حلوة .

لقد بكى . ورضع . وابتسم ... ثم نام .

... وعندما ينام ، عدنان يجب أن ينام المنزل . ونام المنزل ، من أجل ، عدنان .

عدنان . شب وكبر . وعدنان أصبح لعبة والده ، وهمه الأوحد .

وعدنان ، مع انقضاء عامه الأول ، أصبح سيد المنزل .

يأكلون ، بعد أن يأكل . يضحكون .. عندما يضحك . يمرضون .. عندما يمرض . ولا ينامون إلا .. عندما ينام .

والسعادة ..

كل السعادة .. يمكن أن تكون في وجود طفل. وهذا الطفل ، جلب السعادة ، لهذا المنزل .
الحياة في منزل حزين ، يمكن أن تبعث في ذلك المنزل إذا زاره طفل .
فكيف إذا كان هذا الطفل ، ليس بزائر .. إنما صاحب المنزل .
طفولة عدنان ..
أو الأشهر الأولى من طفولة عدنان ، تأخذ الوقت الأكبر ، والأكثر ، من ذكرياته .
لماذا ؟ !
لأن هذه الطفولة ، كانت النسمة الجديدة ، الحياة الجديدة في المنزل .
وكان لهذا الطفل ، الصغير كل الأثر في حياته .
وحياته حافلة ... فلمْ يكن ينتظر أن يحمل السلاح من جديد ..
لقد نسي السلاح مدفوناً في الحديقة ، منذ أعوام طويلة .
الراديو ، كان صلته الوحيدة بين القرية وبين .. العالم ....
وأخبار الراديو ، غريبة ، عجيبة .
يقول الراديو أن هيئة الأمم ، قد قررت أن تقسم البلاد إلى نصفين . نصف لليهود .. ونصف للعرب .

ولكن ...
كيف يمكن ، أن تقسم بلاد بين يهود وعرب .
واليهود لا يملكون إلا خمسة في المائة من أراضي البلاد ..
كيف يمكن ، أن تقسم بلاد بين أقلية .. وأكثرية .
كيف .. كيف .. كيف ؟ ؟ ؟
ولكن من الذي يستطيع أن يناقش ال : كيف ، وهذا ما قررته هيئة الأمم ما هي ، هيئة الأمم ؟ قالوا ، عندما سأل قريبه في يافا ، قالوا له ، إن هذه الهيئة هي الهيئة الوحيدة في العالم التي تقرر من يحكم من ..
ظلماً ، وعدواناً ، ولكن هذه الهيئة هي التي تقرر ..

ولقد قررت أن فلسطين يجب أن تقسم بين اليهود .. والعرب . والراديو يذيع ... القرار ويتابع إذاعة القرار ، وهو يستمع .... ويفكر .

إذن لقد نجح الانكليز ... واليهود . ماثرنا من أجل ألا يقع عام ١٩٣٦ ، وقع . وما هي إلا أشهر قليلة حتى يخرج الانجليز من البلاد . وتعلن دولة اليهود .

وخرج من منزل والده ، وهو يفكر في القرار الجائر الذي استمع إليه .
وصل إلى حديقة المنزل . حفر الأرض ، وأخرج بندقيته .
لقد كان يعرف .. انه سيحتاج إليها بعد فترة قصيرة من الزمن .

... واحتاج إليها .
من جديد ، حمل السلاح ، هو ورفاقه يدافعون عن الوطن .
ولعلع صوت ، الرصاص .
وتوالت الانتصارات . وعادت الزغاريد ، تملأ جو القرية كلما عادوا من معركة .
لم يكن غريباً ، عن القتال . لا ولا كان .. أحد من رفاقه غريباً . بهدوء تركوا الحقل والمنجل ، وحملوا السلاح .

ومرت الأسابيع الطويلة ، وهم يقاتلون .
وخرج الانجليز ... وهم يقاتلون . ودخلت الجيوش العربية إلى فلسطين ، وهم يقاتلون .
وهزمت الجيوش العربية في فلسطين ، وهم يقاتلون .
وبدأ اليهود زحفهم ، يحتلون المدينة العربية تلو الأخرى ، وهم يقاتلون . سقطت يافا ... وهم يقاتلون .

فقط ، عندما نفذت الذخيرة ، ولم يعد بوسعهم ابتياع غيرها .. توقفوا عن القتال .
و .....
وكان الرحيل ، الأول !

... ترك بيته وماشيته وحقله ، وحمل صغيره عدنان على ذراعه ، ومشت وراءه أم عدنان .

تحمل ما استطاعت حمله من الثياب .

قافلة كبيرة ... من أهل القرية . ومن مدينة إلى أخرى ، ومن قرية إلى قرية ، أحياناً يركبون البحر ، وأحياناً يمشون على أقدامهم لأيام كاملة .

وبعد أشهر طويلة . استقر بهم المقام في مخيم الدهيشة في بيت لحم .
ومع الأيام ، نسي الناس ـ أبو عدنان ـ المقاتل الثائر ..
أصبحوا فقط يعرفون ـ أبو عدنان ـ اللاجئ ..
أبو عدنان ، أصبح له رقم ... وبطاقة اعاشة .
لم يبق له ، في هذه الدنيا كلها ، إلا عدنان . هو دنياه ، وهو أمله ، من أجله يعيش ، بعد أن فقد كل شيء .

في الصباح كان يرسله إلى مدرسة المخيم ليتعلم القراءة والكتابة .
وفي المساء يجلس معه ليعلمه ، حب فلسطين .

ونبغ عدنان في المدرستين في مدرسة الصباح ... ومدرسة المساء .
أصبح أذكى تلميذ في مدرسة المخيم ، أما حب فلسطين ، وقريته ، التي لا يذكر من معالمها أي شيء ، فقد أصبح في دمه .

كان يستمع إلى والده يروي له كيف قاتل عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٨ بشغف ، ووله .
وعندما كبر قليلاً .. وانتقل إلى المرحلة الثانوية من دراسته . انتقل أيضاً من مرحلة الاستماع إلى والده ، إلى مرحلة السؤال .

لماذا ؟ !
كان سؤاله الكبير ..
لماذا سقطت قريتنا ..
لماذا سقطت يافا ..
كيف ضاعت حيفا واللد والرملة ..

لماذا .. لم يحارب العرب حتى النهاية .
ووالده يجيبه قدر استطاعته ..
ومع كل إجابة كان الحقد يغلي في صدر عدنان ...
ومع كل قصة ، أو ذكرى يرويها والده كان حب فلسطين يقوى في دمه .
ومن ال : لماذا ؟ ؟ !
انتقل وهو في الصف الأخير من دراسته الثانوية : إلى : كيف ؟ ؟
من : لماذا ضاعت فلسطين .
أصبح يسأل : كيف نعيد فلسطين .
ويسأل والده ...

وأجابه والده وقد هده الكبر والذل ، والرحيل والمخيم ، كانت اجابة : يائسة .
كان يقول له : البلاد ضاعت يا بني ولن تعود .. لن يعيد البلاد إلا القتال .. ولكن من يقاتل .
إن شبابنا يعيشون في المخيمات ، لا يملكون مالاً ولا سلاحاً ،لقد هدتهم النكبة . ونحن الذين كنا نقاتل في الماضي ، لم نعد نقوى على حمل السلاح .

ويرد على والده بعنف .. يقول : نحن نستطيع حمل السلاح ، نحن سنقاتل .
والوالد يهز رأسه بأسى ، ويتابع :
ـ أعرف .. أعرف يا بني أنكم ستقاتلون ... ولكن أين السلاح . أين السلاح الذي تقاتلون به .
وينام ، عدنان ، وهو يحلم بالسلاح ، وبدأ يسأل مع والده : أين السلاح

سؤاله . بقي معلقاً في الهواء .
ـ أين السلاح ؟ !
بقي سؤال ، بلا جواب .
أين السلاح ؟ !
لا أحد يعرف الجواب ..

وأتى الصيف ، وأنهى دراسته الثانوية . وأصبح يجلس منذ الصباح مع رفاقه في المخيم ، يتداولون السؤال :

أين السلاح ... ؟ !
لكن الأيام لم تجب على سؤالهم الحائر .
أجاب عنها حدث كبير ضخم هز وجدانهم وأيقظ امالهم ..
فجأة .. وبدون انتظار أو توقع ، وقعت الحرب بين العرب .. واسرائيل .
وفجأة .. أيضاً . وبدون انتظار أو توقع خسر العرب الحرب الجديدة .. مع اسرائيل
وهدتهم المصيبة .. أذهلتهم ..
احتل اليهود كل فلسطين .. وصلوا إلى مخيم الدهشة في بيت لحم .. ضاع كل الوطن ..
هرب أبو عدنان من اليهود في المرة الأولى ..
وها هم يلحقون به إلى هنا .. لو عرفوه . لو عرفوا من هو لقتلوه فبينه وبينهم ثأر .. قديم .
انهم لن ينسوا مهما طال الزمن . أبا عدنان المقاتل الثائر الذي قتل منهم العشرات .. قد ينسى ذلك العرب . قد يضعون أبا عدنان في خيمة ..

أما اليهود فلن ينسوا ..
وسيصفون حسابهم معه . بعد أن يستقر بهم المقام .
وقرر أن يرحل من جديد .
وبدأ الرحيل ...

إنه ينتظر من الساعة السابعة صباحاً في الساحة الكبرى . هو وأم عدنان (والبقج) والمئات من الشيوخ والأطفال . لقد قالوا لهم أن « الباصات » ستأتي لتنقلهم في تمام السابعة والنصف ؛ وطلبوا .. إليهم الاجتماع في الساحة الكبرى ، وها قد قاربت الساعة أن تصبح الخامسة بعد الظهر ، ولم تحضر (الباصات) لتنقلهم إلى الجسر . ولهيب شمس حزيران ينصب فوق رؤوسهم . لكنهم لا يتحركون خوفاً من أن تأتي (الباصات) ولا تجدهم . فيفقدون الأمل في الرحيل .

غريب أمر هؤلاء الناس
ليس في وجوههم حزن ... وليس في وجوههم فرح ... ليس في عيونهم بكاء وليس فيها أمل . ليس في وجوههم أي تعبير . إلا تعبير انتظار (الباص) .

كأنهم منذ عشرين عاماً كانوا يتوقعون هذا الرحيل كأنهم منذ أن رحلوا المرة الأولى تعودوا على الرحيل ... أو كأنهم بعد أن فقدوا أرضهم المرة الأولى . فقدوا الاحساس بقيمة أي أرض إلا تلك التي فقدوا ..

هنا خيمة .. وهناك خيمة . وستبقى خيمة ما دامت الأرض قد ضاعت . في رحيلهم الأول . كان هناك عويل بكاء وتفجع . أما اليوم فليس هناك إلا الصمت ... وانتظار (الباص) .

واسترق النظر إلى وجه ابنه عدنان .... وتوقف طويلاً عند وجه ابنه عدنان ... وجهه . كان الوجه الوحيد بين المجموعة البشرية المنتظرة الذي كان فيه تعبير ..

كان فيه قسوة ...
وكان فيه غضب ..
وكان فيه ألم ذكره بالألم الذي عصر قلبه وهو يطلق آخر رصاصة في بندقيته قبل أن يحتل اليهود قريته منذ تسعة عشر عاماً .

منذ أن خرجوا من المخيم . مشياً على الأقدام . في الساعة الخامسة صباحاً . وعدنان صامت لا يتكلم . يزفر يتنهد ولكنه لا يتكلم

وأتى (الباص) الأول يقوده يهودي . ويحرسه ثلاثة جنود يهود وركض الناس إليهم . وحشروا فيه حشراً . أغراضهم فوقه وهم يجلسون ويقفون وكأنهم يهربون من نار تلاحقهم .

وأتى (الباص) الثاني والثالث ..
أما هو وابنه وزوجته فلم يجدوا مكاناً إلا في الباص ـ الرابع .... وضع (البقج) على ظهر « الباص » أجلس زوجته على مقعد ووقف هو وابنه بجانبها .

ومشى (الباص) . بتثاقل وكأنه يئن تحت ثقل هذا الحمل البشري ...
مر وقت طويل .. طويل جداً . قبل أن يرمي (الباص) بحمولته البشرية على الجسر الذي يفصل بين الضفتين .. وحمل الناس أمتعتهم . ثم ساروا والماء يغرق أقدامهم حتى الركبتين ... حتى وصلوا إلى الضفة الأخرى ...

وتفرقت القافلة البشرية . . أما هو . . وابنه عدنان . . وزوجته فقد وصلوا إلى مخيم الزرقاء صباح اليوم التالي .

أسابيع طويلة مرت .. وعدنان صامت . غاضب . لا يتكلم . ثم أصبح يتغيب عن المخيم لفترات طويلة . وعندما يسأله أبوه عن هذا الغياب يقول انه ذهب ليبحث عن عمل ويتابع ليقول : لا تقلق علي مهما غبت ... فسأعود . ولكنني أريد أن أعرف أين تذهب ... ويصمت عدنان من جديد . ويلح الأب في سؤاله .. يلح كثيراً . وأخيراً يجيب عدنان :

ـ ستعرف ... يا والدي ... ستعرف في الوقت المناسب .
وذات ليلة . عاد عدنان . بعد أن غاب بضعة أيام . عاد .. وهو يحمل بندقية سريعة الطلقات . جلس في الخيمة . يحتضن البندقية . بحنان . يتلمسها براحة يديه . ينظر إليها كمن ينظر إلى ... حبيبة .

في تلك الليلة . لم يسأله الأب عن سر غيابه . وحتى اليوم لا يسأله .
يذهب ... يغيب ... ويعود . وهو يحتضن البندقية . أبوه لا يسأله . فقط ينظر إليه . ينظر إليه باعتزاز .. وفخر . ثم يرفع عينيه إلى السماء برجاء ... يطلب إلى الله أن يحرسه ...

الكويت ـ ١٩٦٩

القناع

هو يكره هذا المارد الاسود . يكره هدوء عينيه . يكره صوته الذي يملأ المقهى ساعة دخوله . يكره الكلمة الوحيدة التي ينطق بها . الكلمة الوحيدة التي سمعها تخرج من خلال شفتيه طوال الاشهر الطويلة التي قضاها في باريس .

الرجل ، مع الزمن اصبح بالنسبة له جزءا لا يتجزأ من الشارع الطويل ، تماما كقبر الجندي المجهول أو مقهى « الفوكيه » .

كل ليلة ، تماما بعد منتصف الليل بساعة ، يدخل الرجل ، اسود عملاقا ، يتأبط تحت ذراعيه مجموعة ضخمة من الصحف ، ثم يقف أمامه في المقهى الذي يجلس فيه ، تماما كأنه يطارده ، وينتزع صحيفة من الصحف التي يحملها ويقول : هيرالد ! ! ثم يضعها امامه دون ان يطلبها منه ، ويمد يده مستحثا الثمن .

يدفع هو «الفرنك» . يتناوله الرجل مسرعا ، ليختفي بين الموائد الاخرى وهو يقول بهدوء ، لا يصرخ . وانما يقول : هيرالد .

هذا الرجل الذي يكره . والذي يطارده كل ليلة ، والذي يعيده بعنف الى العالم عن طريق النسخة الدولية لصحيفة «الهيرالد تريبيون» أصبح ، مع الزمن ، بالنسبة له كالكابوس .

هو لا يريد ان يرى الرجل . ولا يريد ان يقرأ الهيرالد . كل ما يريده ان يترك لشأنه . شأنه فقط . وشأنه هذه المرة ان يدرس بتعمق هذه الفاتنة العتيقة باريس . لا يريد الدراسات العابرة التي أجراها في الماضي ، يريد أن يصبح — وقد أصبح — جزءا من هذه المدينة ،

التي يهرع اليها الناس بالملايين لزيارة عابرة ، لمرور سريع ، فاذا بهم ينضمون الى ضحاياها . وتصبح الزيارة حبا ، ثم هياما وعشقا .
انه منذ اشهر في رحلة اشبه بالحلم . يعيش الحلم ، يتمتع به ، يخاف على ايامه . ساعاته . دقائقه . ثوانيه ان تنتهي . . .
. . . ويأتي الاسود العملاق ، ويقول : هيرالد . ويضع الجريدة أمامه . ويأخذ الفرنك . ويتوقف الحلم . تطير النشوة . ويطير هو عائدا مع الاحرف السوداء الى وطن يحاول ان ينساه ، وبلاد هرب منها . . . ويود لو يظل هاربا الى ما لا نهاية ! !
وينجح في الهرب ، ينسى . بضعة كؤوس . وشقراء . ومخدع . وينتهي كل شيء . الى أن يطارده من جديد ، فيعود كل شيء مع كلمة «هيرالد . . . »
احيانا كثيرة يستيقظ من نومه مذعورا على صورة المارد الاسود وهو يحاول ان يخنقه بالجريدة ! !
مرة قالت له ، في الصباح ، رفيقته العارية القادمة من السويد : «من هو صديقك هيرالد الذي تردد اسمه طوال الليل . . . وانت نائم ؟ » .
اللعين . لا يريد ان يتوقف عن مطاردته .
مرة ، رفض ان يشتري الصحيفة منه . ولكن الرجل وضعها أمامه فلم يعطه ثمنها . فتركها له ومشى . وخيل انه رأى شبح ابتسامة على الوجه الاسود المتجعد .
مرة ثالثة ، حاول ان يتحاشاه . ان يهرب من طريقه ، ان لا يجلس في مقهى في الشانزليزيه ، حتى ولا ان يمشي في الشارع . قرر ان يذهب الى السينما ، ثم يحضر البرنامج الاخير لملهى «الليدو» الذي ينتهي في الثالثة والربع صباحا . وقدر ان الرجل يكون في ذلك الوقت ، قد باع كل الاعداد ، وذهب الى بيته .
وجلس في «الليدو» . . . ينظر الى السيقان الطويلة ، وكيف تتحرك العشرات منها معا . وعب من الشراب ليلتها كالغول ، لكنه مع ذلك تذكر الرجل فجأة . واستدار مذعورا خوفا من ان يكون قد عرف مقره وطارده الى الملهى . خيل اليه أنه قد سمع كلمة «هيرالد» تنطق بصوت أشبه بالفحيح . وعاد إليه هدوؤه عندما لم يجد خلفه سوى أميركية عجوز في عينيها بقايا جمال غابر .

وعندما خرج ، كان اشبه بالطفل الصغير الذي تخلص من عقوبة مدرسته . لقد نجح في الهرب من مطارده . لقد نام العملاق . لن يزعجه هذه الليلة . ولن يذهب الى الفندق وفي يده الهيرالد ، تصرخ في وجهه ان يقرأ ، ان ينظر ما حدث في بلاد يريد ان ينساها .

ولفحه البرد ، فوضع يديه في جيبي سرواله ، ومشى فرحا الى فندقه القريب .

ومن زاوية مظلمة قال الصوت : «هيرالد ! !» .

وصرخ مذعورا كمجرم امسك متلبسا بالقتل .

وناوله الرجل الجريدة . وأخرج الفرنك وهو يرتجف .

وللحظات مرت في رأسه فكرة مجنونة .

الطريقة الوحيدة للخلاص من هذا العذاب ، هي ان يقتل الرجل . . . ويرتاح ! !

في المرة الاولى التي رأى فيها الرجل ، كان هو الذي ناداه ، وبالحاح ! !

كان ذلك قبل اشهر خمسة . وكان قد وصل الى باريس قبل ساعات ، رمى خلالها بثيابه في الفندق بدون ان يفتح حقائبه ، وخرج الى الشانزليزيه راكضا كي لا يضيع دقيقة واحدة من الايام التي جاء يقضيها هنا .

كان يريد ان يفعل كل شيء معا . وفورا .

يريد أن يمشي في الشارع الطويل . ان يسكر . ان يغازل الفتيات . ان يسهر . ان . . أن . . . أن...

منذ اكثر من عام وهو يعيش في الصحراء . في لهيب من الحر والحرمان معا .

منذ اكثر من عام وهو يحلم بهذه اللحظة !

منذ اكثر من عام وهو يخطط لهذه اللحظة .

هو لا يصدق أنه هنا . وانه قد رأى خلال دقائق اكثر من مئة فتاة ، خيل اليه قبل اسبوع واحد انهن قد انقرضن من الوجود .

وان الناس يضحكون وانه — لذهوله — رأى بالفعل شابا يقبل فتاة أمام الناس اجمعين !

يا الله . . . جريمة نكراء !

اين البوليس . . . اين حماة الاخلاق . . . اين اصحاب الفضيلة يقتادون الشاب ورفيقته الى غياهب السجون ثمنا للقبلة الحرام ؟ .

لقد نسي . نسي منذ زمن طويل ، ان هذه الاشياء عادية .

عقده النفسية التي رباها مع الرمال المحرقة ، كانت تضغط على عقله وقلبه وجسده معا .

ويحاول ان يهدأ . . .

يخاطب نفسه ، يقول : هذه هي المرة العاشرة التي تأتي فيها الى باريس ، ما بالك تتصرف وكأنك لم تر امرأة في حياتك ، ألم تشاهد ما تشاهده الان من قبل ؟

لورآه احد من اصدقائه لظن انه قد فقد عقله .

ربع ساعة . ربع ساعة كاملة مرت وهو يقف مشدوها في منتصف الشارع وعيناه تلاحقان لابسات «التنانير» القصيرة والطويلة والمتوسطة . . . كما يلاحق المتفرج كرة التنس .

وانتبه الى نفسه ، فاسرع يجلس الى طاولة في «الفوكيه» ، وعندما جاء الخادم وجد نفسه يطلب كأس الويسكي منه «بهمس» !

هذا ايضا ممنوع . . . وحرام ! !

واعاده الى الواقع ، الى باريس ، الخادم وهو يقول بصوت مرتفع : ويسكي . . . اي نوع تريد ، وهل تريده مع الماء ام الصودا ؟ ؟

الا اختشي يا رجل . لا تصرخ هكذا . «أسترنا» . . . الا يكفي اننا نريد احتساء الخمرة الحرام على (قارعة الطريق ! !) احضر اي نوع . . . بالماء . . . بالصودا . . . «سيك» ولكن . . . استرنا . . . وبلا فضائح .

وأعادت اليه الكأس الثالثة . . . اتزانه .

وجلس هادئا يشرب كأي رجل آخر يجلس بجانبه في المقهى . وبدأ «يرتب» افكاره . ويرتب

مع افكاره السهرة . . . نهاية السهرة معروفة . مع انه في داخله كان خائفا من هذه النهاية .

هل يعرف بعد هذا الحرمان الطويل ، بعد تلك الليالي الوحيدة ، ان يعامل المرأة ، اية امرأة ؟

خيل اليه ، انه لو توقفت احدى النساء المارات من امامه لتتحدث اليه ، لاغمي عليه او على الاقل لما خرج صوته من بين شفتيه ، فهو لم يعد يعرف كيف يتحدث الانسان ، الشاب مثله ، الى امرأة .

ولنفترض انه استطاع التحدث اليها . . . وجلست معه . . . فكيف يتصرف ؟

شعر بأنه يقف على عتبة اختبار ضخم امكانية سقوطه فيه اكثر بكثير من امكانية نجاحه . . .

وطلب الكأس الرابعة . . .

ولما رفع عينيه بعد الرشفة الاولى وجد نفسه وجها لوجه امام الاختبار الصعب . . .

كانت هناك تجلس الى المائدة المجاورة . وتبتسم له . في عينيها نداء . وفي نظرتها دعوة .

واستغرب كيف لم يلاحظها من قبل . يبدو أنها قد حضرت لتوها بينما كان تائها مع افكاره . كانت تنظر اليه . . . بوقاحة .

واخفض بصره . . . وشعر بان الدم يصعد الى وجنتيه مثل اية عذراء تواجه موعدها الاول .

ولم يرفع نظره الا بعد ان قضى على بقية الكأس ، وطلب كأسا أخرى .

وهذه المرة لم تكتف هي بالنظر بل اشارت اليه تطلب الانتقال الى مائدته .

وقبل ان يعترض او يوافق . . . كانت تنقل حقيبة يدها ، وتتمركز على المقعد الفارغ بجواره .

ــ يبدو أنك غريب ؟ ! !

قالتها بالانكليزية . . . فأجاب : ــ جدا ! ــ وانا كذلك ، اعني انني لست فرنسية ، ولكنني اعيش هنا .

وانقطع الحديث . حدث تماما ما توقعه . لقد اختفى صوته . لحظات مرت كأنها الدهر ، ولولا خوفه من الخادم الذي لم يسدد له الحساب بعد ، لاطلق لساقيه الريح ، وهرب .

وانقذته عندما استأنفت الحديث :

ـــ الا تريد ان تدعوني لمشاركتك الشراب ؟

وقاحة ! ! أين خجل النساء ؟ فكر وهو يلوح بيديه للخادم ، بدون ان يجيب .

وجاء الخادم ، فبادرته هي بقولها :

ـــ دراي مارتيني . . .

والتفتت اليه تسأل : ـــ أتريد كأسا جديدة ، ما دام الخادم هنا ؟

واومأ برأسه بدون ان يجيب . . . مرة أخرى لم يخرج صوته .

وران الصمت . . . من جديد . هذه المرة لم تقطع الصمت وانما ركزت نظرها عليه تتأمله .

وغضب فجأة . ماذا تريد هذه المرأة منه ؟

ولم تتأمله وكأنه ظاهرة غريبة ؟ وقرران يدفع الحساب ، ويعتذر ، ثم . . . يهرب !

سيبحث عن مكان آخر يجلس فيه ، حيث لا تزعجه فيه امرأة غريبة تعتدي على وحدته وعزلته .

وكأنها فهمت ما يدور في رأسه ، فبادرته قائلة :

ـــ لا تهرب مني . انا وحيدة مثلك . بحاجة الى رفيق .

وعاد اليه صوته فقال بجفاء :

ـــ لن اهرب اذا لم تصري على الحديث الي .

ـــ اعدك بانني لن اتحدث الا عندما توجه الي الكلام !

احضر الخادم الشراب ، فدفع له الحساب ، وجلس يحتسي كأسه بهدوء .

كانت جميلة . جمالها ليس من النوع الصارخ . الجمال الهادىء المثير الذي يتسلل اليك كما

تتسلل الخمرة المعتقة . ووجد نفسه ينظر اليها طويلا . لم تكن صغيرة . . . في الثلاثينات او اكثر بقليل . اناقتها كجمالها ، هادئة . . . ومثيرة في آن واحد .
وقدر انها انكليزية من إللهجة التي تنطق بها اللغة .
او من بلد اوروبي آخر ، ولكنه أصرّ انها درست في انكلترا لفترة طويلة .
وبدون ان يفكر وجد نفسه يسألها . وصدق حدسه ، لقد كانت من انكلترا ، ولكنها تعيش في باريس منذ اكثر من عام .
ماذا تفعل هنا ؟
لا شيء على وجه التحديد ، انها تحب باريس فقط ، ولا تحب بلدها : لندن !
وشعر بأنها تكذب . . . أو على الاقل تتحاشى ذكر الحقيقة كاملة .
لكنه شعر في الوقت ذاته ان ليس من حقه ان يعرف كل الحقيقة منها ، كما ليس من حقها ان تعرف عنه اي شيء .
لكن من حقه ، وحقها ، ان يعرف وتعرف اسمه واسمها .
قال : — لقد حان الوقت كي نتعارف ، اسمي كامل .
وصمت :
— اسمي جورجينا . . . من اين انت ؟
وكذب فورا . . . قال : — من اسبانيا !
لا يعرف لماذا كذب . لماذا انكر بلده وأصله . لماذا الغى في لحظة واحدة كل ما يربطة بأهله .
وصدقته . فقد كان في سمرته وشكله ما يوحي بانه فعلا من اسبانيا ، لكنها لم تترك له فترة كافية للتفكير بكذبته اذ صرخت بفرح :
— آه . . . انا اعرف اسبانيا جيدا . . . واحبها كثيرا . من أي جزء من اسبانيا أنت ؟
وتابع الكذبة ، قال بهدوء استغربه :
— من برشلونة . . .
— بلدة رائعة ، لقد زرتها في العام الماضي .
وشكر الله . انه ايضا قد زارها قبل عامين ، وأنه يعرف قليلا عنها فيما لو خطر لها ان تتابع

اسئلتها . وقرر ان يتابع كذبته ، وان ينتقل من الدفاع والاجابة الى الهجوم والاسئلة ، سألها :
— وماذا اعجبك فيها ؟ .
— التاريخ . . . انه مطبوع هناك في كل زاوية .
— وماذا ايضا . . . ؟
— وأهلها . . . واعترف لك بأن ما جذبني اليك هو أنك قريب الشبه من شخص تعرفت اليه هناك . . .
وابتسم . لاول مرة منذ جلوسه هنا .
لقد فهم السر . سر هذه المرأة الغامضة التي اصرت على الجلوس معه . واعجبته اللعبة وقرر ان يمضي بها الى النهاية ، سأل :
— وهل وجدت الشبه قريبا . . .
— جدا . . .
وبحركة سريعة ، تناولت حقيبة يدها ، وفتحتها ، وأخرجت صورة صغيرة ناولته اياها وهي تقول : — هذه صورته ، أظنك توافقني ؟
واضطر أن يوافق معها . . . فقد كان الرجل الذي في الصورة يشبهه فعلا الى حد كبير .
ووجد نفسه يسألها : — الا زلت تحبينه ؟
— ومن اخبرك انني احبه ؟ .
— الطريقة التي تتحدثين بها عنه . . .
— ساعرف الليلة اذا كنت لا زلت احبه ام لا ! !
وتظاهر بالغباء . . .
— اتعنين انه سيحضر الى باريس الليلة ؟
وصعد الدم الى وجهها ، ولم تجبه ، فعاد يسأل : — ام انك ستسافرين الليلة الى برشلونة لمقابلته ؟
— لن اتحرك من هنا . سأبقى معك .
— وهل يغنيك الشبه عن الاصل ؟

— على الاقل الشبه يغنيني «مؤقتا» عن النظر الى الصورة التي في حقيبتي !
وضحك وهويقول لها : — هذه هي المرة الاولى في حياتي التي انقلب فيها الى صورة .
— احيانا كثيرة تتغلب الصورة على الاصل .
— هذا اذا ارادت الصورة ذلك .
— وهل تريد ؟ ؟
— لماذا لا نترك الامر للظروف ؟
— شرط ان لا نقضي الليل بطوله هنا على الرصيف .

مع اطلالة الفجر ، كانت الصورة قد انقلبت الى اصل ، واستبدل الاسباني الحقيقي القادم من برشلونة ، بالاسباني المزيف القادم من صحراء الشرق .
. . . وعندما استيقظ من نومه عند الظهر وجد الى جانبه في السرير شقراء عارية ، وعلى ارض الغرفة نسخة من صحيفة «الهيرالد تريبيون» كان قد اشتراها من الزنجي الاسود الذي كان كابوسه يلاحقه كل يوم . . ولكنه هذه المرة ، عندما كان في طريقه إلى الفندق برفقة هذه الشقراء ، لم يرتجف لزعيق الزنجي . لقد بدا له انه يراه للمرة الأولى في حياته . .

طلب القهوة ، وامسك بالصحيفة . وفي لحظة واحدة انخطف الزمان واختفى المكان وعاد من حيث اتى ، اختفى عطر الشقراء المخدر لتحل مكانه رائحة البارود والحرب . . . والموت .
ولم تفهم الشقراء التي استيقظت مع دخول الخادم بالقهوة سر جفاء صديقها ، وعدم اهتمامه بها ، ظنت انه يعاني صداعا من سهرة الامس ، ومن أين لها أن تعرف ان خيال الرجل القادم من الشرق يضج بالف صورة وصورة لرجال يمزقهم الرصاص وتحرقهم القنابل ، كانوا يقتلون في اللحظة التي كان هوفيها يصرخ في عينيها «اطفئي الانوار ، لا احب لعبة الحب الا في الظلام» . وتجيبه ويدها تكبس زرالضوء «وهل تخاف من رؤية الحب ؟» .
«لا» ، قال وهويغرق رأسه في شعرها :
«لا . . . ولكنني افضل سماعه ! !» .
— اين تحب ان نسهر الليلة ؟

قالت صديقته وقد عادت لتوها بعد ان استبدلت ثيابها :

— معك !

— اعرف ذلك ، ولكن أين ؟

— سأسلمك نفسي ، واتبعك كالظل . لن اناقش ، حسبنا أن نعيش باريس والليل معا .

— لنذهب الى «مونمارتر» اتعرف «مونمارتر» ؟

— اعرف «مونمارتر» . . . لكنني اود ان اتعرف اليها من جديد . . . معك .

ومع الكأس الرابعة ، وضجيج الحي الصاخب الذي لا ينام ، اختفت من جديد صورة الحرب والبارود والموت . وعاد العطر يدغدغ حواسه ، والليل يلهب احساسه ، وانطلق يلهو كالطفل . يقف أمام رسام يرسم له صورته بالفحم ، وآخر يرسمها بالمقص ، وانتهى جالسا في «الباتاشو» يستمع الى مغن يبكي حبه الضائع مع عمره الضائع .

قال الصوت الهادىء الرتيب : هيرالد . . .

ومد يده يتناول الصحيفة . . .

وترك الشقراء ، ليقف في منتصف الشارع يقرأ .

وشعر باصابع تضغط على رأسه .

وأحس بأن هذا الرأس يكاد ينفجر . . .

وحاولت صديقته ان تمد يدها لتحضنه ، فابعدها عنه بعنف . . .

وحاولت من جديد ، فطلب اليها ان تتركه وشأنه .

وهمست : — دعنا نذهب الى الفندق ، الى غرفتنا .

ولم يجب ، بل مشى ، وهو ما زال يقرأ .

و عندما دخلا الغرفة ، رمى بالصحيفة جانبا وكأنه يود لو تختفي . وخلع ثيابه . . . وتمدد الى جانبها .

ومدت يدها الى زر النور فاطفأته . . .

وزحفت اليه ، وفي انفاسها فحيح . . .

وغابا في قبلة طويلة . . . طويلة . . . قطعتها هي بصرخة استغراب :

— «ماذا . . . ما بك يا كامل . . . أتبكي ؟ ان دموعك تغرق وجهي » .

— «اخرسي ! !» .

. . . وساد الغرفة صمت رهيب .

شفتاها توقفتا عن التهام شفتيه . يدها فقط ظلت تتحسس وجهه ، تبحث عن نقاط الدمع . تمسحها . انفاسه كانت ثقيلة متلاحقة ، ومن خلال الضوء الشاحب المتسلل من النافذة ، رأته يحدق في سقف الغرفة . يبكي . يبكي بصمت . دموعه تتساقط . لا يبذل اي مجهود لايقافها . احترمت دموعه ، وصمته .

استلقت بجانبه تنتظر. لم يتكلم . لم يزد على كلمة «اخرسي» كلمة واحدة ، ساد بعدها الصمت الرهيب .

. . . وودت لو تكلم . لو نفس عن صدره ، لو حدثها بما يشقيه . الحديث احيانا حتى مع غريب يريح . بلا حديث يصبح الانسان كالقنبلة المضغوطة التي قد تنفجر في أية لحظة . وهي تشعر الآن بانها لوسألته اوحاولت التحدث اليه لانفجر . انها تقرأ ذلك في عينيه ، وتشعر بذلك في تثاقل انفاسه ، وفي صمت بكائه .

مد يده يبحث عن سيجارة . اسرعت تولعها له . . . وتكلم للمرة الاولى ، قال : شكرا ، ومج نفسا طويلا من السيجارة وكأنه يبحث فيه عن العزاء ، أي عزاء .

والى الصمت من جديد ، لكن بلا دموع . جفت دموعه ، وهدأت انفاسه ، وخيل اليها أن السريكمن في السيجارة . السيجارة ردت اليه الروح .

بهدوء اقتربت منه ، التصقت به ، احتمت بصدره . وشعر فجأة بوجودها فادار رأسه ينظر اليها بهدوء عميق . تشجعت . قبلته قبلة خفيفة على وجهه . مد يده يداعب وجهها ، بدأت انفاسه تتلاحق من جديد . ثم . . . ثم . . . انفجرت القنبلة المضغوطة ، وتناثرت الشظايا ، واستؤنفت المعركة التي قطعها الدمع منذ اكثر من ساعة .

وخاض المعركة بكل قواه . بعنف وقسوة خاض المعركة . خافت منه وهي تراه يهجم ، ويهجم

ويتابع الهجوم . يضرب بلا رحمة ولا هوادة . وتحول الخوف الى متعة . والمتعة الى نشوة ، والنشوة الى لذة عارمة . وقاومته . . . فازداد ضراوة ، شعرت بأنه رأى فيها عدوا يجب ان يسحقه ، يقضي عليه . يقتله . وتوقفت عن المقاومة ، بدأت تتلقى الضربات ولا تردها ، اصبحت تريده ، وهو الخصم ان ينتصر . أحبته ان ينتصر . كان بحاجة الى النصر . اما هي فلم يكن لديها اصلا . . . معركة .

عندما استيقظ من نومه ، لم تكن جورجينا بجانبه . وجد مكانها ورقة صغيرة تقول بانها ستعود مع المساء .

ساعته كانت تشير الى الثانية بعد الظهر . ولم يشعر برغبة في مغادرة الفراش . لقد افرط في الشراب أمس كما افرط في الحب . كان عطشان الى الشراب وكان عطشان الى الحب ، فعب منهما حتى الثمالة .

في الماضي ، قبل اعوام عشرة واكثر ، لم تكن تهمه هذه الاعراض . كم مرة سهر وشرب وأحب حتى الفجر ، ثم حلق ذقنه ، واستحم بماء بارد ، وتوجه الى مكتبه ليعمل طوال النهار ، وكأنه لم يسهر ولم يشرب ولم يحب .

أما اليوم ، وقد شارف على الأربعين . فكل سهرة من العيار الثقيل ، اصبحت بحاجة إلى يوم كامل من الراحة ، مع فناجين لا تحصى من القهوة وحبوب الاسبرو ... وبعض اقراص « الالكاسالزر »

وبدأ فورا بمعالجة آثار الامس .

طلب فنجانا من القهوة ، وأذاب قرصين من «الالكاسالزر» في كوب من الماء . . .

شرب القهوة ، واتبعها بالدواء ، ثم نهض ليستحم بماء ساخن (عهد الماء البارد . . . ايضا انتهى !!) واعاد اليه الماء الساخن جدا بعضا من حيويته ، لكنه ما كاد يعود الى الغرفة حتى هاجمه التعب والارهاق من جديد ، ومن جديد استنجد بالقهوة .

تحامل على نفسه وارتدى ثيابه ثم نزل الى الشارع الطويل ، الشانزلزيه ، ورمى بنفسه على

اول كرسي في أول مقهى وراح السيل الهادر من البشر والسيارات . «داوها بالتي . . . . . .» وطلب كأسا من «البلودي ميري» . وازال طعم عصير البندورة المرارة التي كان يشعر بها في فمه ، والفودكا الممزوجة مع العصير خدرت في رأسه الصداع .

«وداوها . . .» وطلب كأسا جديدة ! !

ودب النشاط في جسده . فنسي الامس وليلة الامس وارهاق الامس ، وقام يمشي مع السيل الهادر ، يصبح جزءا منه ، ويضيع مع آلاف البشر في الشارع الطويل .

تسكع . تفرج على الواجهات . تفرج على البنات . غمز . عاكس . انتشى . مشى الشارع من أوله الى آخره . ومن جديد تبخر من خياله ما ابكاه بالأمس . نسي الاخبار ، وجريدة «الهيرالد تريبيون» واولئك الذين يقاتلون ويقتلون ، ورائحة الحرب والبارود ، رائحة العطر طغت ، ومنظر حاملات العطر . . . أنساه .

ونظر الى ساعته فوجدها تقارب الرابعة . اين يذهب ؟ ماذا يفعل الناس في باريس الساعة الرابعة بعد الظهر ؟ فهو لا يشعر بحاجة الى النوم . وقد تعب من التسكع . لم لا يذهب الى السينما ؟

اعجبته الفكرة . فجورجينا لن تعود الى الفندق قبل السابعة . والسينما ستقتل له الساعات القليلة الباقية على موعد عودتها .

وهنا نظر حواليه فوجد أكثر من عشر صالات للعرض ، لا تبعد الواحدة عن الأخرى أكثر من أمتار ، وكذلك على الرصيف الاخر .

وبدأ رحلة البحث عن فيلم . يجب اولا ان يكون الفيلم ناطقا باللغة الانكليزية ، وبنسخته الاصلية .

وتوقف أمام اكثر من فيلم . روعته كثرة الافلام التي تتحدث عن الجنس . فصور معظم الافلام ، صور عارية ، لاناس خيل اليه انهم يقضون معظم اوقاتهم في الفراش . وهو ، في هذه اللحظة بالذات ، لا يشعر بميل الى مشاهدة فيلم تدور حوادثه ، ومعاركه ، في . . . الفراش . وفي

نهاية الشارع ، مقابل جريدة «الفيغارو» توقف أمام صالة تعرض فيلم «كرومويل» . وكانت نهاية الرحلة . لقد قرأ عن الرجل كثيرا ، وقرأ عن الفيلم الجديد كثيرا .

ودخل الى السينما . . . وكانت الساعة بعد السابعة عندما خرج . لقد اعجبه الفيلم كثيرا . . . وضايقه كثيرا . هرب من الاخبار . . . والسياسة . فلاحقته الاخبار . . . والسياسة . هرب من التفكير . . . ففرض عليه الفيلم ان يفكر . هرب من نفسه ، ومن ذكرياته ، فوجدها جميعا أمامه دفعة واحدة . فقصة كرومويل ... حدثت وتحدث في كثير من البلدان العربية ، اليوم ، وفي القرن العشرين .

قصة الديكتاتورية . . . والديمقراطية . قصة نظام فاسد . قصة حياة سياسية مهترئة ، انظمة بالية ، للرشوة فيها الكلمة الفصل .

الاستغلال السياسي ، الصفقات ، الارهاب الفكري ، وعشرات القضايا التي طرحها الفيلم ، انها تحدث الان ، وتصنع من جديد . . . في بلاده . من اجلها قامت ، وتقوم الثورات . من اجلها خرج ويخرج الرجال من الثكنات ، كما خرجوا ايام كرومويل .

وابتسم وهو يفكر : كم من بلد عربي سيمنع عرض الفيلم ! . ففي الفيلم ايحاء . وفي الفيلم اشياء خطيرة ، وفي الفيلم كلام كثير واحداث كثيرة قد تدفع باناس كثيرين الى التفكير في اشياء كثيرة «يجب ان لا يفكروا فيها» .

وظل يفكر في «كرومويل» حتى دخل الى الفندق ، ليجد جورجينا تنتظره في الصالون . اعتذر عن تأخره ، وجلس ، لكنه وجد نفسه يناقش هذه المرأة الانجليزية في قصة كرومويل ، والتي هي جزء من تاريخ بلادها .

وافقته جورجينا على معظم كلامه . واعترضت على بعضه . فهي — مثلا — لا تؤمن بالعنف كطريقة للاصلاح ، انها مع الثورة ، ولكن بلا دماء كما حدث في التاريخ وفي الفيلم .

وناقشها ، قائلا : — حتى ولو كانت هذه الدماء ضرورية للقضاء على الفساد والظلم وتسلط

فردعلى امور شعب ، وفي النهاية الى ارساء قواعد للديمقراطية لا زالت حتى اليوم مثالا رائعا من امثلة حكم الشعب ؟

اجابت : — كل هذه الاشياء كان يمكن ان تتم بدون اعدام ، وسفك دماء . .
— اشك في ذلك !

وتناقشا طويلا . . . واكتشف ان ذكاء جورجينا في مستوى جمالها . الجمال الهادىء الذي لا يذهلك في اللحظات الاولى ، وانما يتسلل الى عقلك وقلبك كالخدر ، فاذا بك صريعه قبل ان تدري . ووجد نفسه بغير وعي يعترف لها بأنه قد كذب عليها ، وانه ليس من اسبانيا كما ادعى ، وانما من بلاد كانت تحكم اسبانيا ، بلاد العرب !

وسألته : — عربي . . . ومن أين ؟
— من فلسطين . . .
— تعني فلسطين . . . سابقا ؟ !
واجابها بعنف : — ولاحقا . . .
— واسرائيل . . . ماذا تفعل باسرائيل ؟
وهب صارخا كالملسوع : — ندمرها . . . افهمت ؟ ندمرها . . .
وفوجىء بها تنظر اليه بسخرية وهي تبتسم وتقول : — الان فقط تأكدت بانك عربي !

وأحس بأن هذه ال . . . قد صفعته ، بعنف ! وللحظة سريعة هم بأن يعيد اليها الصفعة ، لكنه استطاع السيطرة على اعصابه ، واستعاد هدوءه المعتاد ، فأجاب : — ارجو وقد عرفت الان ان نبقى اصدقاء ؟
— انا لا اختار اصدقائي حسب جنسياتهم !
— وهل عرفت الكثيرين من العرب ؟
— في باريس يقابل الانسان كل شعوب الارض تقريبا . . .
— هذا ليس جوابا على سؤالي ، هل عرفت الكثيرين من العرب ؟

— عرفت البعض . . .
— ورأيك فيهم . . .
— المهم رأيي فيك أنت . . . اليس هذا ما يهمك ؟
— رأيك في انا ترجمته الى واقع ، فلو لم يكن هذا الرأي جيدا لما كنت هنا الان ، ولكن يهمني رأيك بالعرب على وجه الاجمال .
— من الصعب اعطاء رأي بشعب باكمله ، على كل حال سنتحدث في الموضوع في وقت آخر . . .
واصابه نوع من العناد :
— أصر على معرفة رأيك الان . . .
وواجهته بعناد اقوى من عناده : — وانا اصر على عدم ابداء رأيي . . .
وألح . . . ارتفع صوته وهو يلح . وفوجىء بها تقف وهي تقول : — يبدو ان وجودي يضايقك ، انا ذاهبة . وداعا ايها . . . العربي !

حدث كل شيء في لحظة ، وراقبها بذهول وهي تختفي من باب الفندق الرئيسي . وقبل أن يعي ما حدث ، كانت قد اصبحت في الشارع .

لحق بها راكضا . . . مشى بجانبها بدون ان يتحدث . . . ولم تلتفت اليه بل تابعت المسير وكأنها لا تعرفه . . . حاول ان يمسك بيدها ، فابتعدت . . . حاول من جديد . بعناد حاول .

هذه المرة لم تقاوم ، امسك بيدها ، ثم قال : — لست ادري سر غضبك ، ومع ذلك ان كنت قد اخطأت فانا اعتذر . . .
— لا داعي للاعتذار . . .
قالتها باقتضاب . . .
تابع : — ان اعصابنا بحاجة الى كأس ، اين تحبين الذهاب ؟
— لا اشعر برغبة في الشراب الان . . .
— هل لديك اقتراح آخر . . . ؟

— هل تحب الموسيقى الكلاسيكية ؟
— بعضا منها . . .
— اذن لنذهب الى حدائق «التويلاري» .
— وما هي علاقة الحدائق . . . بالموسيقى .
— ستفهم عندما نصل . . . المكان قريب من هنا .
— هل اوقف «تاكسي» ؟
— اذا اردت مع ان المكان قريب . . .
لكنها عادت تقول بفرح : — ما رأيك لوركبنا المترو؟

المترو ؟ ! لقد سمع عن المتروكثيرا ، ولكن لم يخطر له على بال بأنه سيستقله في يوم من الايام ، فوسيلة النقل هذه ، محصورة بالموظفين والعمال والتلاميذ . اما هو فلا شيء يضطره الى ذلك وجيبه محشوبآلاف الفرنكات جاء يهدرها هنا ليعوض عن حرمان قضاه في الصحراء !

وكأنها فهمت ما يدور في خلده ، فقالت :
— لم اقترح المترولاوفر عليك ، ولكن لنتمتع بركوبه !
— كما تشائين . . .
ونزلا الى تحت الارض الى اول محطة ، وتولت هي قطع التذاكر . . . ثم وقف بجانبها مع الناس ينظران .

مجموعة عجيبة من البشر ، في عالم غريب . عالم قائم بذاته لا علاقة له بالعالم الذي يهدر من فوق . معظم الناس اما يقرأون الصحف المسائية ، او يقرأون مجلة او كتابا . ينتظرون بلا ملل ولا ضجر . . . ولا «نرفزة» وعندما جاء المتروصعد الجميع وتابعوا القراءة ، اما هوفكان يبحلق في وجوه الناس . ويعيش هذه اللحظات مع القطار المسرع في الظلام .

ووصلا خلال دقائق . . . وقطع الرصيف ليجد نفسه أمام حدائق «التويلاري» .

أصرت ، هذه المرة ايضا ان تقطع التذاكر . . . ودخلا الحديقة .

ذهل . . . رأى لاول مرة كيف يستطيع الانسان ان «يصنع» الطبيعة . ان يجعل من الشجرة ، والزهرة ، والماء اشياء تكاد تنطق ، تحس . أحس بالجمال يغمره ، يملأ عينيه براحة لذيذة .

واستغرب ان طلبت منه الجلوس على مقعد بجانبها امام بحيرة صغيرة . لكن استغرابه ازداد عندما اطفئت الانوار . . . كل الانوار . . . وساد صمت رهيب ، ثم انطلقت الموسيقى تصرخ . وحدث هنا شيء لم يكن يتوقعه فقد ارتفعت من قلب البحيرة اعمدة من الماء ، كل عمود منها بلون ، اعمدة ماء ملونة . . .

وكاد يقفز من مكانه عندما بدأت هذه الاعمدة الملونة ترتفع وتنخفض وتختفي وتظهر وتغير الوانها مع الموسيقى . . .

فاذا اشتركت الاوركسترا كلها في العزف مثلا ارتفعت جميع الاعمدة الى اعلى بألوان باهرة ، واذا صمتت الآلات كلها ما عدا الكمان ترقرق الماء على وجه البحيرة بهدوء كأنه عزف الكمان .

هذا المزيج المذهل من الصوت والضوء . . . والماء ، افقده صوابه . ساعة كاملة مرت وهو يجلس كالصنم يسمع وينظر ويكاد يصرخ من الاعجاب . لم يدخن سيجارة واحدة طوال الفترة ، وهو الذي يدخن عشر سجائر في الساعة .

وانتهت الفقرة الاولى ، ودوى التصفيق ، ووجد نفسه اكثر المصفقين حماسا . وخلال فترة الاستراحة تجول معها في الحديقة . . . شاهد اشهر اللوحات الزيتية في العالم تعرض على شاشة كبيرة مع الشرح . . . قرأ تاريخ الحديقة . . . حتى الحدائق في فرنسا لها تاريخ غامض مثير . . .

وفهم الان لماذا يقول الذين يعرفون باريس جيدا . . . ان باريس ليست كلها علب ليل ، وخمر ، ونساء عاريات . فهم ، رأى او بدأ يفهم ويرى الوجه الآخر لباريس . باريس الحضارة ، باريس الثقافة ، باريس العلم . . . باريس الرقي .

وجلس لساعة جديدة يستمع الى الموسيقى وتجول من جديد في الحديقة . . . ثم انتهت

الليلة ، باشتراك «الالعاب النارية» المضيئة مع الموسيقى .

وخرج وهو لا يزال مذهولاً . . . وكانت الساعة تقارب منتصف الليل . . . وقبل ان يقترح اي شيء لتكملة السهرة اخبرته بانها جائعة . . . واختارا مطعم وبار «كالافادوس» للعشاء ، لانه من الامكنة القليلة جدا في باريس التي تقدم العشاء في هذه الساعة المتأخرة من الليل . واثناء تناول الطعام حدثته هي عن الوجه الاخر لباريس .

باريس الثقافة . . . المسرح . . . المعارض . . . الموسيقى . . . الفن .

واستمع اليها في شغف . اكتشف ان الصحراء ، حيث كان ، لم تحرمه الخمر والنساء فحسب . وانما حرمته تقريبا كل شيء . مكان يأكل فيه الانسان ليحيا . مكان يضعف فيه القول «بالخبز . . . وحده يحيا الانسان» .

ومع الزمن ، نسي ، اوكاد ينسى ان هنالك اشياء اخرى غير الخبز . وشعر وهي تتحدث اليه . ان هناك شيئا في رأسه يتحرك . يتململ . . . شيء اشبه بالصدأ . . . يتحلل . وتحول التململ الى ضجيج وهي تتحدث عن الكتب الجديدة . الكتب التي قرأتها والتي تود ان تقرأها . . .

وضحك عندما قالت له : للمرة الاولى في حياتي منذ اعوام لم اقرأ بعضا من كتاب قبل النوم ، كنت مشغولة بقراءتك .

وسألها ، وهو ما زال يضحك :
— والليلة . . . هل ستقرأين كتابا ؟ .
اجابت ، وهي تضرب كأسها بكأسه :
— علي ان انهي قراءتك ، قبل البدء في كتاب جديد .

كالعادة سهرا حتى الفجر . وكالعادة فاجأه الزنجي بائع الصحف بجريدة «الهيرالد تريبيون» . وكالعادة ذهبا الى الفندق . وكالعادة خلعا ثيابهما . وكالعادة اطفأت النور . وكالعادة . . . حدث ما يجب ان يحدث .

لكن ، الليلة ، بلا بكاء ، وبلا دموع . لقد قرر أن لا يقرأ الصحف قبل النوم . وان لا يفكر قبل النوم . . . ان لا يفكر اطلاقا بما يجري في بلاده .

انه هنا في باريس لينسى ، لا ليتذكر .

وبدأ النوم يداعب اجفانه ، لكن حواسه كلها استيقظت دفعة واحدة عندما سمعها تقول له :
— كمال . . . نسيت ان اخبرك ان امي يهودية !

كم مرة في الماضي ، حاول ان يفصل في خياله ، بين كلمة «يهودي» و «صهيوني» ! وكم مرة أجاب على اسئلة اصدقائه الاجانب حول الموضوع ، بان العرب يحترمون «اليهودية» كدين ، وانهم فقط ضد «الصهيونية» كحركة سياسية توسعية ، شردت شعبا بكامله ، واحتلت ، وما تزال تحتل أرضه . . . بالقوة .

ولكنه في قرارة نفسه ، كان يؤمن ، ان كل يهودي في العالم ، ان لم يكن صهيونيا ، فهو على الاقل يعطف على الصهيونية ، ويساعدها علنا او بالسر !
حاول ، مرارا ، ان يتجرد ، ويقنع نفسه بخطأ نظريته ، ولكن عبثا .
كان يشعر بمقت لليهود اشبه بالحقد .

كل هذا واكثر لمع في رأسه في لحظات ، وصدى صوت جورجينا لا زال يدوي في الغرفة
— كمال . . . نسيت ان اخبرك ان امي . . . يهودية ! !

وبحركة لا شعورية مد يده الى مفتاح النور يولعه ، وجلس في السرير العريض ينظر اليها كمن يراها لاول مرة .

هذه المرة ضايقته نظرة الذكاء الهادىء التي تملأ عينيها ، خصوصا عندما قالت :
— هل بدأت تكرهني لان أمي . . . يهودية !
— لا . . . وانما اكره أمك . . .
— وأنا ايضا !

ـــ انت ، تكرهين أمك ؟ ؟ ولماذا ؟
ـــ لانها تركتني وانا لم ازل بحاجة اليها وهاجرت الى اسرائيل !
ـــ ولم لم تهاجري معها ؟ . . . .
ـــ لانني انكليزية ، ولا علاقة لي باسرائيل . واحب ان ابقى كذلك .
ـــ ووالدك ؟
ـــ والدي متوف منذ الحرب العالمية الثانية . لقد قتل في الحرب .
ـــ وهل تصلك رسائل من والدتك . . . المحترمة ؟ !
قال الكلمة الاخيرة ، بكره ، قبل ان يسمعها تجيب :
ـــ نادرا . . . .
ـــ وانت ألم تزوري اسرائيل . . . ؟
ـــ مرة . . . وقد هربت بعد ثلاثة أيام مع انه كان من المفروض أن أبقى لاسبوعين .
ـــ ولماذا ؟
ـــ لقد شعرت بان والدتي عادت من جديد تحاول اقناعي باعتناق الديانة اليهودية ، والبقاء في بلدها .
ـــ هل حاولت ذلك في الماضي ؟ . . .
ـــ لقد كادت تجبرني وانا صغيرة على ذلك . وكانت النتيجة أنني كرهت جميع الاديان .
ـــ ولكنك مع ذلك تعطفين على . . . اسرائيل .
قالها بتحد . . . محاولا استدراجها لمعركة .
اجابته بهدوء :
ـــ لا . . . لا اعطف على اسرائيل . وانت حر في ان تصدق او لا تصدق ولكنني اعطف على الشعب الفلسطيني .
ـــ شكرا . . . شكرا يا سيدتي .
قالها بتهكم ، ثم تابع :
ـــ ولكنني لا اصدقك . اعذريني . ولكنني لا . . . لا اصدق .

ــ انت حر. واعتقد ان من المستحسن ترك حديث السياسة في مثل هذا الوقت !

ــ أمن أجل هذا رفضت اعطاء رأيك في العرب ؟

ــ لوقلت لك رأيي لفقدتك كصديق ، وانا لا اريد ان افقدك . صداقتك ، مع قصرعمرها ، اصبحت غالية عليّ .

ــ هل تغضبين لوسألتك من جديد ان تعطي رأيك في العرب ؟ . . .

ــ من أية ناحية . اجتماعيا . . . سياسيا . . . ثقافيا ؟

ــ رأي عام . . . سياسي لوشئت ما دمنا في السياسة .

ــ ان العرب في رأيـي ، هم المسؤولون عن ضياع فلسطين !

رأي قاطع ، صارم . . . حاد . افقده توازنه . عاد يقول :

ــ رأيك له ما يبرره ، ولكن كيف توصلت اليه ؟

ــ ستستغرب لو عرفت كم قرأت ، وكم سألت . حتى وصلت الى هذه القناعة . ان قضيتكم اصبحت شغلي الشاغل في فترة من الفترات .

ــ اتعتبرين نفسك صديقة للعرب؟

ــ انا صديقة ، للانسان المظلوم ، اي انسان مظلوم ، والانسان الفلسطيني مظلوم ومضطهد . . . حتى من أهله . انني انظر الى القضية من زاوية انسانية .

ــ بكلام أوضح تشفقين عليهم . . .

ولمع غضب سريع في عينيها :

ــ لست ادري لم تفقدون كل منطق عند مناقشة قضية فلسطين ، تتصرفون ، وتتكلمون ، وتناقشون بغباء .

ــ القضية كلها . . . فقدت اي منطق . فاي منطق هذا الذي يشرد شعبا باكمله أمام أبصار العالم اجمع ، ومع ذلك فلا يتحرك أحد لايقاف الظلم . . .

ــ وعندما يتحرك أحد تشكون في نواياه ، تماما كما تفعل الآن معي . . .

ــ اعذريني لقد اصبحنا نشك حتى بأنفسنا ! !

ــ الساعة تقارب الثامنة صباحا ، الا تشعربرغبة في النوم ؟ . . .

ـــ لقد ابعد ذكر والدتك النوم من عيني . . .

ورق صوتها ، وهي تهمس :

ـــ تعال . . . نم هنا بجانبي . . . لاعيد النوم الى عينيك !

. . . ومع ذلك لم ينم . ظل يتقلب في فراشه حتى شعر بأن رأسه يكاد ينفجر . . .

منذ اشهر طويلة ورأسه يكاد ينفجر . . .

لقد هرب الى باريس من رأسه ، فاذا برأسه ، والدوامة التي في رأسه تكاد تقتله .

ماله . . . وفلسطين . . . والعرب . . . والقضية . . . واسرائيل ؟ .

رسميا ، وبموجب تذكرة النفوس ، وجواز السفر ، وأمام الناس جميعا هو لبناني .

صحيح أنه ولد في القدس . وصحيح ان القدس هي ملعب طفولته ومطلع ذكريات شبابه . ولكن هذا تاريخ قديم ، مضى عليه اكثر من عشرين عاما . . .

لماذا يصر رأسه ، أن ينفض الغبار عن هذا التاريخ . . . ؟

لم يلاحقه هذه الملاحقة التي لا ترحم . . . ؟

لقد نجح في حياته خارج فلسطين نجاحا كبيرا مذهلا ، نجح لدرجة انه اعتبر ما حدث في فلسطين عام ١٩٤٨ بالنسبة له ، نوعا من الهجرة العادية . تماما مثلما يهاجر اي لبناني من «بشمزين» الى لوس انجلوس في الولايات المتحدة الاميركية .

لقد هاجر من القدس الى بيروت . واعتبر بيروت وطنا ثانيا تعلق به اكثر من الوطن الاول . انه الوطن الذي بنى فيه نجاحه وشخصه . وفيه كل معارفه واصدقائه .

اما القدس وفلسطين ، فذكرى قديمة ، فيها نوع من الحنين لشيء مضى لا اكثر ولا أقل .

لقد أقام جدارا كبيرا بينه وبين الماضي .

حتى رسائله الى اهله في القدس كانت متقطعة ، قصيرة . . . وفي معظم الاحيان باردة .

وفي المرات القليلة التي اضطر فيها للذهاب الى القدس ، كان يتعجل العودة الى بيروت .

صحيح ان نسائم من حنين كانت تهب في قلبه اذا مر أمام مدرسته القديمة او تقابل مع رفيق من رفاق صباه ، لكنها نسائم لا تلبث ان تموت كما تهب . . . فجأة .

واسدل الزمن ستارا كثيفا من النسيان على كل ما يمت للماضي بأية صلة .

ثم توالت الاحداث ووجد نفسه مرغما يتذكر القدس . . . وفلسطين ، لا لسبب الا لانها ضاعت ، نهبت كلها . عز عليه استحالة ذهابه الى القدس . . . لكن هذا ايضا ساعد في تمسكه بحاضره ، ثبت في رأسه التصميم على ان لا يعتبر نفسه جزءا مما يجري .

العمل الفدائي . الحرب . الاستعداد لمعركة الثأر . . . كل هذا بالنسبة له «كلام فارغ» سينتهي كما انتهى غيره ، الى لا شيء .

صحيح انه تبرع مرارا لصالح العمل الفدائي ، لكن تبرعه لم يأت عن ايمان بالقضية . تبرع لان عليه ان يتبرع كما تبرع غيره وهو القادر على التبرع ، مضافا الى ذلك بعض الخوف من ان «يجبر» على التبرع .

اخبار العمل الفدائي يقرأها ، بنفس الاهتمام الذي يقرأ فيه اخبار المظاهرات المناوئة لحرب فيتنام التي تجري في مدن أميركا .

مات في قلبه الاحساس بأي ارتباط ، او وشائج مع كل ما يحدث . ولولا مصالحه الكثيرة في بيروت وفي دول الذهب الاسود في الصحراء ، لحمل متاعه وهاجر كما فعل الآلاف غيره .

مرارا كثيرة فكر في بيع كل مصالحه . . . والهجرة الى بلد غريب بعيد ، لا يعرفه فيه احد ، ولا يعرف فيه احدا .

الذي ابقاه كان الطمع . . . وليس الارتباط بأي شيء آخر .

لكن هذا كله بدأ يتغير — رغما عنه — منذ عام تقريبا . اقلقته زيادة اهتمامه باخبار ما يجري حوله . ازعجه جدا اهتمامه بالغارات على مصر . وتتبعه لاخبار العمل الفدائي . والتحركات السياسية في المنطقة وعلى الصعيد الدولي .

فلسف اهتمامه بانه اهتمام على الصعيد الانساني .

فقصف مدرسة فيها اطفال ابرياء يثير اهتمامه حتى ولوحدث في اليابان .

ومقتل عشرة شباب في عمر الزهور يسترعي بعض التفكير حتى ولوحدث في انكلترا .

يقول لنفسه ، مطمئنا ، ان سر اهتمامه الجديد ، لا يعدوكونه احساس اي مواطن في العالم بما يجري ، وليس لان له علاقة مباشرة . . . بالموضوع .

لكنه يعود ويعترف في لحظات المصارحة بينه وبين نفسه بانه يكذب على نفسه . . .

انه فعلا مهتم . فعلا قلق . فعلا يفكر طويلا في كل ما يجري .

وعندما لم يستطع الاحتمال حل حقيبته ، وسحب من رصيده مبلغا مخيفا من المال ، وطار الى باريس ، يغرق فيها ، وتغرق فيه . . . وينسى !

ولكن هذه النائمة الى جانبه . بنت اليهودية التي تعيش في اسرائيل ، أعادته صاغرا مرغما الى ما حاول الهرب منه . وها هي تنام كالطفل هانئة ، وهويتقلب في فراشه . . . كالمجنون .

وقرران ينتقم منها ، قرران يوقظها وان يلعب معها من جديد اللعبة التي تتقنها ، لعبة الحب . . . فقد تنسيه اللعبة الهدير الذي يدوي في رأسه . . . وقد تساعده على النوم .

ما اعتبره هو «انتقاما» منها ، اعتبرته هي «لفتة» حلوه . فلعبت كما لم تلعب في حياتها . وعادت للنوم ، اما هوفلجأ في النهاية عندما اعياه النوم ، كما يلجأ عادة الى علبة حبوبه المنومة ، والتي وصفها له طبيب صديق على أن لا يستعملها الا في الحالات الصعبة التي يستعصى فيها عليه النوم .

ونجحت الحبة . . . حيث فشل الحب ! ! ونام . . .

عندما استيقظ قرران يتخلص من جورجينا . . . فمهما حاول سيبقى وجودها معه يذكره بما

يحاول ان ينساه . عليه اذن ان يختفي اما بأن يغير الفندق . أوان يغير البلد .

وكانت هي وهويتخذ قراره تجلس أمام المرآة وتحاول عبثا تركيب رموش عينيها الاصطناعية ، ولاستغراقها في العملية الدقيقة لم تلاحظ بانه استيقظ . لذلك فوجئت بصوته وهو يطلب فنجانين من القهوة بالتلفون ، وزادت المفاجأة عندما سمعته يسأل عن موعد القطار المسافر الى لوزان ، بسويسرا ، وكادت الدهشة تعقد لسانها وهو يقول لموظف الحجز ان يحجز له مكاناً في قطار الساعة السابعة والربع . وبحركة لا شعورية نظرت إلى ساعتها فوجدت أنها تقارب الخامسة . قالت : لم أكن أعرف أنك مسافر ؟

أجاب :

ـــ خفت ان اخبرك أمس فافسد علينا السهرة .

ـــ هل تمانع لورافقتك ، فمنذ زمن بعيد وانا افكر بزيارة سويسرا .

ـــ نعم أمانع ، فلدي عمل خاص .

حتى هوفوجىء بالطريقة الجافة التي أجاب بها ، عادت تقول :

ـــ كما تريد . . . هل لي ان اسأل متى ستعود ؟

ـــ لست ادري . على كل حال اتركي لي عنوانك اورقم تلفونك وسأتصل بك عندما اعود . . .

ـــ لن تتصل . . . انت كذاب .

ـــ لا اسمح لاحد ان يتهمني بالكذب . . .

ـــ لم اطلب اذنك عندما اتهمتك . على كل حال اذا كنت ذاهبا الى لوزان لتهرب مني فلا داعي لذلك ، سأتركك بعد قليل ، ولن ترى وجهي بعد الآن . . .

ـــ لست هاربا منك . . .

وسكت . ثم تابع وكأنه يحدث نفسه همسا :

ـــ انا هارب من نفسي . . .

ـــ لم افهم . . . لم اسمعك . . .

وقرر ان يلطف الجو ، قال :
— اسمعي يا جورجيا . ان الايام التي قضيتها معك . او بالاحرى الساعات ، هي من احلى الفترات التي مرت في حياتي . ولكن لظروف ، وظروف خاصة جدا انا مضطر للسفر ، لذلك أرجو المعذرة ، واتمنى ان نتقابل من جديد عندما تكون حالتي النفسية . . . اهدأ .
— قد استطيع ان اساعدك على اجتياز هذه المرحلة النفسية القلقة . هذا لو اردت . . .
— لقد ساعدت بما فيه الكفاية ، شكرا . . .

واراد ان يكمل ، لكن قرعا على الباب اوقفه . كان القارع الخادم يحمل القهوة .

وعندما اختفى الخادم قرر ان يتوقف عن الحديث ، فامسك بسماعة التلفون وطلب فندق «لوزان بالاس» بلوزان .

حجز لنفسه مكانا ، ثم نهض الى خزانة الثياب وبدأ يرمي دون ترتيب بثيابه في الحقيبة .

نهضت . واخذت الثياب من يده وبدأت تضعها بترتيب وعناية .

لم يتكلما ، جلس ينظر اليها ، وشعر بعد قليل بنوع من الحرج . شعر بأنه تصرف بقلة ادب وتهذيب ، وفتح فمه ليعتذر ، لكنه تراجع في اللحظة الاخيرة ، ونهض ليأخذ حمامه الساخن جدا .

عندما عاد . . . كان في انتظاره مفاجأة . فلقد وجدها تجلس عارية في السرير !

وقبل ان يسأل اويستوضح اويتكلم بادرته بقولها :
— اريد ان تنام معي للمرة الاخيرة . . . قبل الوداع . . .
وفتح فمه ليعترض . . .
فتوسلت . . .
— ارجوك ان لا ترفض طلبي . . . من أجل الايام الحلوة التي قضيناها معا .
واستجاب صاغرا .

. . . . . وعندما انتهـى كان ينتابه شعور بالقرف ! !

• • •

اخيرا رحلت . ذهبت . لم تقل وداعا . ارتدت ثيابها على عجل . . . ورحلت .
وشعر كأن عبئا قد ازيح عن كاهله . . . شعر بفرح مفاجىء .
كان يغني . . . ويصفر . . . ويرقص في الغرفة كطفل صغير .
رن جرس التلفون .
خاف . . . من الصوت . ظن انها هي تخاطبه من ردهة الفندق .
تردد في رفع السماعة . الح الجرس في الرنين .

رفع السماعة ، وارتاح عندما سمع صوت موظف الاستعلامات في الفندق يبلغه بأنه قد احضر تذاكر القطار الى لوزان ، وان عليه ان يكون في المحطة في تمام السابعة ، قبل ربع ساعة من قيام القطار . . .

سأله مستوضحا :
ـــ قلت تذاكر . لقد طلبت تذكرة واحدة فقط .
تلعثم الموظف وهو يجيب . . .
ـــ آسف . . . آسف جدا يا مسيو كمال . . . تذكرة واحدة .
ـــ وكم تستغرق الرحلة الى المحطة ؟ .
ـــ ربع ساعة . . . يا سيدي . . .
ـــ والرحلة الى لوزان . . .
ـــ لحظة واحدة يا سيدي ، سأستشير دليل القطارات . . .
ـــ ذلك غير ضروري . . . سانزل بعد قليل ويمكنك ابلاغي عندما أراك . . .
واقفل الخط . . .
شعر بغصة غريبة في قلبه ، لم يدرلها تفسيرا . . .

أزعجته المكالمة التلفونية رغم كونها عادية ... لا تحمل أية مفاجأة .

كان أمامه اكثر من نصف ساعة قبل الذهاب الى المحطة . . . كان قلقا يريد ان يمضي الوقت بسرعة ، يريد ان يمضي ، يرحل ، يستقل القطار . . . يسمع صفارة الرحيل ، ويترك وراءه باريس وجورجينا ، وأمها اليهودية . . . وكل . . . كل شيء .

لا بد وان ساعته توقفت . انها لا تتحرك . الوقت لا يمر .
اعصابه متوترة . . . قلقة .
سيذهب الى المحطة منذ الآن ، وينتظر هناك . . .

ولم ينتظر الخادم حتى يحضر ويحمل له الحقيبة ، بل حملها بنفسه ونزل الى الردهة . دفع حساب الفندق ، ثم استقل التاكسي وصرخ في السائق : الى محطة القطار . . . بسرعة ! !

القطار الذاهب الى لوزان لم يكن في المحطة .
سيأتي بعد دقائق . . .
وضع حقيبته امام مكان وقوف القطار . . . وبدأ يتسكع في المحطة .

شرب فنجانا من القهوة . تسكع امام واجهات المحلات الصغيرة . الوقت لا يزال يمر بطيئا ثقيلا . لمح من بعيد مكتبة . توجه اليها لشراء كتاب او مجلة تساعده على قتل الوقت في القطار . فوجىء بوجود صحف عربية ، اشتراها كلها بغير تحديد . كان في شوق لقراءة صحيفة عربية . وضع الصحف تحت ابطه وتوجه الى حيث ترك حقيبته ، فجلس الى مقعد مجاور لها وبدأ يلتهم الصحف التهاما .

هذه المرة مر الوقت سريعا . . .
القراءة دائما تمرر الوقت بسرعة . . .
قرأ مقالا عقائديا لكاتب عقائدي اسمه غريب يشبه مقالته .
وابتسم ، وهو يفكر كم من مرة تمنع عن قراءة مقال او تحقيق صحفي بسبب اسم صاحبه .
انه يعتقد ان اسماء الكتاب يجب ان تكون كأسماء نجوم السينما يجب تغييرها عندما يبدأ

الكاتب في الكتابة . يجب على كل كاتب ان يختار لنفسه اسما جديدا على وزن كلارك جيبل . . . اوعمر الشريف . كان يقول لنفسه ان كاتبا يحمل اسما قبيحا لا يمكن ان ينجح ، تماما كالنجم السينمائي . وقد جاءت هذه المقالة الاخيرة التي يقرأها تعزز نظريته . لقد اراد ان يغالط نفسه فقرأ المقال فاذا به تماما كما توقع ، معقد كاسم كاتبه .

هو يذكر أن صحيفة في لبنان توقفت عن الصدور بسبب بشاعة اسماء المحررين ابتداء من رئيس التحرير حتى اسم المصحح . طبعا كان هذا تفسيره الخاص لتوقف الصحيفة .

وقلب صفحات المجلة ، فوجد اسماء محرريها تشبه تلك التي توقفت ، فحكم عليها بالاعدام... سلفا . توقع ان يقرأ نبأ توقفها عن الصدور ، قريبا .

وقطع حبل افكاره صوت القطار وهو يهدر . . .

توقف القطار فاسرع يحمل حقيبته ، ويبحث عن رقم العربة التي على تذكرته . . . وعندما وجدها صعد فوضع الحقيبة في المكان المخصص لها ، ثم اتجه نحو مقعده وهو يشعر براحة غريبة . . .

ربع ساعة . . . ربع ساعة فقط ويهرب . من جديد يهرب . منذ سنة وهو هارب . هارب من نفسه . هذا القطار سيحمله من جديد . بعيدا عن تلك التي حاولت منعه من الهرب . . . بعيدا عن جورجينا .

ووجد مقعدا . . . فرمى بنفسه عليه وهو يزفر ارتياحا .

ونظر الى الشخص الذي يحتل المقعد المقابل له . . .

وندت عنه صرخة صغيرة .

كانت جورجينا تجلس هناك . وتبتسم . تبتسم ببلاهة !

• • •

حاول ان يهرب . . .

ان يتركها هناك ، تبتسم له ببلاهة ، ويهرب .

ونهض بالفعل ليأخذ حقيبته . وامسك بالحقيبة ، يبحث بذعر عن باب النزول . لكن القطار تحرك ، ووجد نفسه بعد دقائق يجلس أمامها سجين المقعد المرقم . . . وسجين القطار السريع الذي سيقذف به في لوزان بعد ست ساعات .

عاهرة . بنت عاهرة .

امها يهودية ، يجب اذن ان تكون عاهرة ، بنت عاهرة .

ولولا خوفه من الفضيحة لعاملها كما يجب ان تعامل العاهرات ، بصفعة على وجهها . تعلمها ان لا تلاحق الناس بهذه الطريقة الوقحة !

ولكن ما حيلته الآن ؟ . . .

لم يبق أمامه الا الصبر . . . والانتظار .

وقرر ان يهملها ، يهمل وجودها . كأنها لم تركب القطار . ولم تجلس في المقعد المقابل له . هي — بالنسبة له — ليست هنا .

لم ينظر اليها ، بالرغم من شعوره انها تحرقه بنظراتها . . . وتناول المجلة (العقائدية اياها) وبدأ يقرأ مقالا اسم صاحبه يذكره باسم احد الفراعنة المصريين .

الحروف كانت تراقص أمام عينيه . . .

لم يفهم شيئا . . .

هو في الاحوال العادية لا يفهم شيئا من هذه المقالات ، فكيف الآن ودماؤه تغلي في عروقه ، وفورة الغضب تعميه ؟ . . .

ماذا تريد منه هذه المرأة ؟ ، !

لقد طردها . . . وافهمها بانه يرفض ان يراها في حياته . هرب من باريس ، باريس التي يحب ويعشق . من أجل ان يهرب منها ، وها هي تطارده !

هل هي جاسوسة ؟ ! !

وكاد يضحك بصوت مرتفع . . .
جاسوسة ؟ ! عليه هو؟ ! هو بالذات . ومن هو حتى يصبح هدفا لملاحقة جاسوسة؟
هل من المعقول ان تكون قد أحبته . . .؟
مستحيل ، فالحب لا يولد في ساعات . . .
علاقته بها ، كانت ، وانتهت ، علاقة جنس !
لقد بدأت في سريره بالفندق ، وانتهت هناك .
بدأت بقبلة . . . وانتهت بقرف !
هي وحدها تعرف الجواب . . .
وهو يرفض ان يسألها . . .
سيتحملها ، سيتحملها هذه الساعات القليلة ، وعندما يصل الى لوزان فلتذهب الى الجحيم .

وارتعد عندما تذكر لوزان . . . فهي حتما قد حجزت لنفسها مكانا في فندق «لوزان بالاس» لانها سمعته وهو يحجز . . .

آه . . . فهم الآن لماذا اخطأ موظف الاستعلامات ، قال بأنه احضر التذاكر بدلا من تذكرة . لقد كانت هناك أمام الموظف وهو يتصل به . لا بد وانها قد غمزت له بعينها عندما ارتكب الخطأ . لقد وضحت له الصورة تماما ، لقد تركت غرفته ، ابلغت موظف الفندق ان يحجز لها أيضا تذكرة قطار . . . بجانبه !

اذن لا بد وانها حجزت مكانا في نفس الفندق .
سينام الليلة هناك . ومع الفجر سيستقل القطار الذاهب الى جنيف بدون ان يخبرها .
ما دامت تتقن لعبة المطاردة ، سيفهمها كم يتقن هو لعبة الهرب .
واسترق النظر اليها من وراء المجلة ، فاذا بها لا زالت تنظر اليه .
ايتها المرأة البلهاء . . .
ستكتشفين غدا من الأذكى . . .
ونهض بطريقة مفاجئة ، اتجه نحو البار ، ليهرب منها حتى يحين موعد العشاء .

على مائدة العشاء ، وجدها أيضا تجلس امامه .
يا رب
وكاد يقطع شعره
أيضا كانت تبتسم . . . ابتسامة بلهاء
وقرر ان يلغي العشاء . اتجه من جديد الى البار
هذه المرة لحقت به . جلست بجانبه . طلبت كأسا من الويسكي .
لا بد من المواجهة ! !
التفت اليها بعنف ، وقال :
— ماذا تريدين ؟ ! !
بهدوء اجابت :
— انا لا احب الذين يهربون مني . .
— ما دمت لا تحبينهم ، فلم تلاحقينهم بهذه الطريقة . . .
قاطعته :
— ان صوتك مرتفع جدا . . . ان الجميع ينظرون الينا . . . يظهر انك غاضب !
وقهقه :
— غاضب ! ! انا غاضب . . . انني فرح ، سعيد ، أكاد أجن من الفرح . . .
— اهذه هي الطريقة التي تعامل بها سيدة . . . تحبك ؟ ! !
— اولا ان السيدة المعنية لا تتصرف كسيدة . ثانيا انا لا أفهم قصة الحب الذري هذه ! !
— ستفهمها لو استمعت الي قليلا . . .
— لن استمع لحظة واحدة . . . انا عائد الى صالة الطعام وارجوك ان لا تتبعيني .
— لن تستطيع الهرب مني . . . على الاقل في هذا القطار !
— سنرى . . . سنرى . . .
قالها ، واسرع مبتعدا . . .

فعلا لم يستطع الهرب . . .

كانت باستمرار وراءه ، كظله . فهو لا يستطيع تغيير مقعده لانه مرقم . المكان الوحيد الذي يستطيع الهرب اليه هو بار القطار . وكانت تتبعه اليه كلما هرب .

وبعد ساعتين من الكر والفر ، قرران يعمل بالمبدأ المأثور : «اذا لم تستطع ان تهرب من المصيبة . . واجهها» لذلك ازاح المجلة من أمام عينيه ، وقال لها :

— ماذا تريدين ؟

بهدوء أجابت :

— ان نبقى اصدقاء . . .

— الصداقة شيء مشترك بين شخصين ، فاذا كان احدهما غير راغب في هذا الشيء ، الغي .

— سافرض عليك . . . صداقتي ، حبي ! !

— كل شيء في الدنيا يمكن ان يفرض الا الصداقة . . . والحب !

— انتم العرب دائما هكذا لا تقرون على رأي ، حتى في سياستكم ، فانتم اليوم تعبدون زعيما وفي خلال ساعات . . . تشتمونه .

— اننا نتصرف بعواطفنا .

— وانا هنا لاجعلك للمرة الاولى تتصرف بعقلك .

— الا تعتقدين بأنني كبرت ومن الصعب تغييري . . . ؟

— في العواطف الانسانية لا شيء مستحيل ، خصوصا اذا حكمت فيها العقل .

— العقل والعاطفة . . . ضدان لا يجتمعان .

— هذا ما تقوله انت ، أما انا فأقول ان أحلى وأبقى وأجمل العواطف هي تلك التي يتحكم فيها العقل .

— ان عقلي وقلبي واحساسي كلها ترفضك !

— وان عقلي وقلبي واحساسي كلها تريدك !

— لن نتفق . . . ابدا .

— سنتفق . . .

وانفجر . لم يستطع ان يحتمل اكثر من هذا ، صرخ :

— يا سيدتي . . . يا عزيزتي . . . . يا . . . ارجوك ان تتركيني وشأني ، لقد جئت الى اوروبا هربا من المشاكل ، لا اريد ان أصيف الى همومي هما جديدا . . .

وزاد في جنونه الهدوء الذي اجابت به على ثورته . مدت يدها فوضعتها على يده وقالت بصوت حنون :

— لو اخبرتني مشاكلك ، فقد اساعد . . .

وارتفع صوته بطريقة جعلت جميع الركاب يديرون وجوههم نحوه :

— لا اريد مساعدتك . . . ولا مساعدة أحد ، اريد فقط ان ابقى لوحدي . . .

— احيانا كثيرة تؤدي الوحدة مع المشاكل الى الجنون ، وانا لا اريدك مجنونا ، اريدك عاقلا من أجلي . . .

هذه ليست مصيبة ، فكر لنفسه ، هذه كارثة ، انها حتما ستدفعني الى الجنون !

لم يجب . . . بل امسك بالمجلة من جديد وبعصبية وأخفى وجهه من جديد .

حاولت هي عبثا ان تستأنف الحوار ، فلم يجبها ،.وبعد اكثر من ساعة اصابها اليأس والتعب معا ، فتناولت هي ايضا مجلة كانت بجانبها ، وبقيا كذلك حتى اعلن صوت نسائي في القطار . . . ان لوزان قد اصبحت على بعد ثلاث دقائق فقط !

تجاهل وجودها كليا في المحطة . . .

وركب التاكسي الى فندق «لوزان بالاس» . وحدث ما توقع ، فبينما كان يسجل اسمه في الفندق . . . وصلت هي ، وتجاهلته وبدأت تسجل اسمها .

• • •

لم يكن بحاجة الى ان يسأل عن هوية القارع على باب غرفته . . .

فتح الباب ، فوجدها أمامه !

اغلق الباب . . .

دخلت . بدأت تخلع ثيابها ، تعرت . اندست تحت الغطاء . ونادته .

استجاب . اندس . بجانبها . استجاب الى ندائها .
وللمرة الاولى في حياته . حياته كلها . يمارس الحب مع امرأة . . . يكرهها ! !
مقت نفسه . كره نفسه . . . نظر الى وجهه في المرآة ، وبصق ! !
كل ارادته . كل عزمه . كل تصميمه ، انهار في لحظة عندما شاهد امرأة شقراء عارية في فراشه .
واي امرأة ؟ ! !
امرأة يكرهها . . .
من اجلها هرب من باريس .
وبصق مرة ثانية .
وسمعها تناديه . . .
ليس باسمه . لم تقل كمال . نادته ب : «حبيبي . . . دارلنغ» .
وكالكلب استجاب . ذهب اليها . . . صاغرا ، جاثيا . . . ذهب اليها .
أمام المرأة . والجنس . والفراش . تنهار مقاومة أي عربي .
فتوحات العرب ، وهزائم العرب . . . كان يقف وراءها : المرأة . . . والجنس .
تاريخ العرب ، فيه ملايين النساء ، وقصص النساء ، والعطر ، والمخادع . . .
هو كأي عربي منذ فجر التاريخ لا يملك المقاومة .
. . . . . وهجم العرب من جديد ! !
. . . . . وعاد الى المرأة بعد نصف ساعة وبصق من جديد .

* * *

صالونات فندق «لوزان بالاس» تذكره بصالونات فندق شبرد بالقاهرة أيام الملك فاروق .
فجميع رواد فندق القاهرة ، انتقلوا الى فندق لوزان . . .
الشيء الوحيد الذي تغير هو اعمارهم . . . هناك كانوا يمشون بقامات مستقيمة ، وغطرسة . . .
وهنا يمشون على عكازة . . . مع غطرسة .

المكان الوحيد في اوروبا الذي تسمع فيه أذنك كل لحظة كلمة «بيه . . . وباشا وبرنسيس»
هو في لوزان بالاس
اوعلى الاصح المكان الوحيد في العالم .
ثم جلسات الشاي . . . بعد الظهر .
وجلسات «البريدج» في المساء .
والكأس اليتيمة . . . قبل الغداء .

. . . ومع انتهاء اليوم الاول شعر بأنه يعيش في متحف ، وانه يلعب دور الحارس . وكاد يشكر «جورجينا» على وحودها معه ، على الاقل انها تلعب دور زوجة الحارس . لم يشكرها لانه تذكر أن من المفروض ان «يكرهها» .

يكرهها ؟ نعم .. ولكن لا مانع من أن يمارس الحب معها ، كلما سنحت الفرصة (وقد سنحت ثلاث مرات منذ وصولهما ليلة امس) .
ولا مانع ايضا من أن يعترف بانها «لذيذة» في الفراش .
ويبدو انها تشعر نحوه بنفس شعوره . لذلك لم تمانع عندما غمز لها بعينه قائلا قبل العشاء : لم لا نستريح قليلا في الغرفة ؟

عصر اليوم التالي كان يتوجه — مع جورجينا — في القطار الى جنيف ، بعد أن حجز لهما غرفة مشتركة في فندق «الانتركونتيننتال» .
والمسافة قصيرة بين البلدين . نصف ساعة بالقطار . لذلك ما أن مضت ساعة حتى كانا قد اصبحا في غرفتهما في الفندق الجديد .
وكانت جورجينا فرحة . فرحة الانتصار . لقد اجبرته على العودة اليها ، وأصبح وجودها معه شيئا عاديا ، تماما كأنها زوجته .

تركها في الغرفة ونزل الى الطابق الاول حيث صالونات الفندق ، وبعد جولة سريعة في الصالونات ، ونظرة الى المسبح ، اكتشف انه لو وجد نفسه فجأة هنا بدون ان يعرف المكان

او المدينة لظن نفسه في فندق عربي وعاصمة عربية . فخلال دقائق قليلة قابل عشرة أصـدقاء او معارف من بيروت وعمان ودمشق والقاهرة والرياض ، الحديث الدائر في كل مكان كان بالعربية . خيل اليه أن العرب قد احتلوا فندق «الانتركونتيننتال» بجنيف وحولوه الى «مجلس» او «ديوانيه» يلتقون فيه كل يوم .

ورغما عنه وجد نفسه في دوامة الاخبار والتعليقات ، فقد التقى بصديق من بيروت . والصديق كان معه صديق . . . وانضم اليهم بعد قليل اكثر من صديق فاذا بهم شلة كبيرة ، وبدأ احدهم الحديث بالسؤال التقليدي : شو الاخبار ؟

وتدفقت الاخبار كالنهر الهادر ، وحاول ان يبقى بعيدا عن مجرى النهر . فجرفه التيار ، وقبل ان يغرق ، قرر ان يهرب من جديد . . . فانسحب من الجلسة ، وعاد الى الغرفة ، الى جورجينا ، حيث لا عرب ولا عروبة ، ولا اخبار ولا من يخبرون !

قضى في جنيف ثلاثة أيام ، النهار يقضيه متجولا في سيارة استأجرها ، والليل يبدأ وينتهي في البار الانيق بالطابق الاعلى من الفندق ، يجلس مواجها المدينة المتلألئة بالانوار ، المنعكسة على البحيرة الهادئة . وبجانبه جورجيا يشربان ويتحدثان ويصمتان ثم يشربان ويتحدثان حتى موعد اغلاق البار . فالى الغرفة . والحب . . . والنوم .

من جنيف طار الى لندن . . .
من لندن عاد الى قواعده في «باريس» سالما . . .

الذي بقي في لندن كان جورجينا «بضعة ايام لرؤية الاهل والاصدقاء . وسألحق بك» .

وتمنى ، فعلا ، لو امتدت هذه الايام الى شهور ، فقد مل رفقتها ، وهو الذي لو اراد رفقة دائمة . لتزوج !

وعندما خرج من باب الفندق في الليلة الاولى لعودته ، احتاحه الشعور بالتحرر . كان يبحث

عن شيء مجهول ، شيء جديد ، غامض ، مثير . . . شيء يبعث الحياة الى صدره ، والى قلبه .

كان قد قرأ في الصباح ان الحكومة الفرنسية قد سمحت ، وللمرة الاولى في تاريخ باريس ، لملهى «الكريزي هورس» بأن يقدم عرضاً عاريا مئة بالمئة حتى من ورقة التوت ، وان العرض كان مثار جدل طويل ، وانه يلاقي اقبالا كبيرا .

وكان الفندق لا يبعد عن «الكريزي هورس» اكثر من مئتي متر ، فبدأ يمشي الى هناك وبوده لو خطرت له قبل الوصول فكرة اكثر اثارة لتمضية السهرة .

في خلال دقائق وجد نفسه أمام الملهى ، وبدافع من الملل وحب الاستطلاع وجد نفسه يقف في الصف الطويل ينتظر دوره للدخول . وبعد فترة خالها دهرا باكمله وجد نفسه في الداخل «والميتر» يسأله اذا كان هناك حجز باسمه ام لا . وكاد يطرده عندما أعلمه بعدم وجود حجز له . لولا ان تدارك الامر ، ووضع في يده ورقة مالية عرفها «الميتر» فورا فاتسعت ابتسامته وهو يقول : اتبعني . . . يا سيدي .

لم ينتظر طويلا حتى رفع الستار ، وبدأ العرض .

عرض كعشرات مثله ، شاهده في اكثر من عاصمة اوروبية ، لم يختلف شيء الا المكان : لذلك انتابه الملل في الدقائق العشر الاولى وبدأ يبحث عبثا عن خادم يدفع له الحساب . ويهرب .

ولكن من أين له بخادم في هذا الازدحام الذي يكاد الناس فيه يجلسون فوق بعضهم البعض ، والدخان يعمي العيون ، والنساء العاريات على المسرح يتلوين كالثعابين .

واستكان لمصيره ، وراح يتابع العرض حتى لاحت بارقة أمل خلال فترة استراحة قصيرة ، ورأى احد الخدم من بعيد ، فوقف يلوح له بيده بالحاح . . . ورآه الخادم فاتجه نحوه . . . ومد يده الى جيبه ليخرج النقود . . . وفي اللحظة التي وقف فيها الخادم امامه ، سمع صوتا يصرخ من بعيد :

كمال . . . كمال . . . كمال . . .

ونظر من خلال الدخان ، وشاهد شابا يلوح بيده ويصرخ · كمال . . .

وتبين وجه الشاب . . .

وشهق . . .

اكمل الشاب نداءه : كمال . . . كمال ، ثم بدأ يشق طريقه بين الموائد المرصوصة في محاولة للوصول اليه .

وكلما اقترب منه ازدادت محاولة كمال ليتذكر صاحب الصوت .

وكعادته ، في السنة الاخيرة ، تذكر الوجه . لكنه نسي الاسم ، ونسي مع الاسم العلاقة التي كانت تربطه مع الوجه المألوف .

ووقف الشاب امامه ، ومد يده مصافحا وهويبتسم ابتسامة عريضة .

ــ اهلا كمال . . . الا تذكرني !

وبانت الحيرة على وجه كمال ، فقتلها الغريب القادم من خلال الدخان ، بأن احتضنه بين دراعيه القويتين ، و «هات» يا قبل من هذه الوجنة وتلك ، ثم دفعه بعيدا وهو يقول : لم تتغير مطلقا يا كمال . . . منذ اكثر من خمسة عشر عاما لم تتغير .

ولاحظ اخيرا ان الحيرة لم تزل تكسو وجه كمال ، خصوصاً وان الاضواء قد خفتت من جديد ، وبدأت الموسيقى تعزف معلنة بدء الجزء الجديد من البرنامج .

اضطرا للجلوس ، للسماح للموائد الاخرى بمشاهدة العرض . وهنا قال الغريب :

ــ لقد تأكدت الان بانك لا تعرفني !

ــ اعرف الوجه جيدا . . . ولكن الاسم . . . واين . . . و . . .

ــ انا راؤول . . . هل تذكرت . . .

ــ راؤول . . . راؤول . . .

فكر كمال . .

راؤول . . . اسم يهودي ؟ !
هل من الممكن ان يكون احد الذين كان يعرفهم في القدس قبل الهجرة عام ١٩٤٨ ؟
راؤ..و..ل .
واخرجه الرجل من حيرته عندما قال :
ــ ولو . . الا تذكر بار فندق «الاكسلسيور» في بيروت !
وتذكر فجأة كل شيء !
طبعا . . . هو يعرف راؤول !

راؤول الشاب اليهودي اللبناني الذي كان يجلس معه ومع «شلة» الاصدقاء كل ليلة في بار فندق «الاكسلسيور» ببيروت ، والذي كان الشباب ينسون في معظم الاحيان انه يهودي نظرا لقربه من قلوبهم وعقليتهم .

طبعا هو يذكر . . . راؤول !

أليس هو الذي اختفى فجأة من بار الاكسلسيور ومن بيروت كلها بعد حرب السويس عام ١٩٥٦ .
واثار اختفاؤه اكثر من علامة استفهام .
من الشباب من قال انه ذهب الى اوروبا ، والى سويسرا بالذات .
ومنهم من اكد انه في اسرائيل !
لكن احدا منهم لم يعرف الحقيقة . . .
ولم يكتب راؤول . . . لاحد !
ولم يره احد . . .
وها هو اليوم يراه : عام ١٩٧٠ !
والتفت اليه فوجده يحدق فيه بسرور كبير . . . فقال :
ــ طبعا . . . طبعا . . . تذكرت ، كيف انت يا راؤول .
واين انت ؟ . . .
وقبل ان يجيب ، كان الناس حولهم قد بدأوا يتذمرون من هذا الحوار المرتفع ، فقال كمال :

ـــ تعال نهرب من هنا . . . هل دفعت حسابك ؟
ـــ ان معي بعض الاصدقاء ، ساعتذر منهم ، والحق بك على الباب .
وتوجه كمال . . . الى الباب .
وفجأة وجد نفسه يبتسم ، ثم يضحك بصوت مرتفع .
لماذا ـــ سأل نفسه ـــ يلاحقه «اليهود» في هذه الرحلة ، وفي كل مكان ! ؟
هرب من جورجينا لان امها يهودية . . .
فوقع في احضان راؤول . . . اليهودي !
وقبل ان يجيب نفسه على السؤال ، كان راؤول يقف بجانبه وهويقول :
ـــ يا اهلا بكمال . . . انتظرت ان اقابل جميع خلق الله هنا . . . الا انت .
ـــ وانا ايضا لقد كان لقاؤك من اغرب مفاجآت حياتي . . .
ـــ هناك مليون سؤال أود ان اسألك اياها مرة واحدة . . . وانا حائر كيف ابدأ ؟
ـــ وانا ايضا . . . ولكن دعنا نجد مكانا نجلس فيه ونشرب كأسا ، ثم نبدأ بتبادل الاسئلة .
ـــ ما رأيك لو ذهبنا الى بار «اسكوت» انه قريب من هنا في شارع «بيارشارون» .
ـــ لا اعرف البار . . . ولكنني . . .
قاطعه راؤول :
ـــ انه بار هادىء . . . وعازف البيانو فيه رائع .
وصمتا فجأة . . .
كأن الاعوام الطويلة قد وضعت بينهما ما يشبه الحاجز . . .
وشاهد كمال يافطة البار على بعد امتار فقطع الصمت بقوله :
ـــ انه فعلا قريب . . .
ـــ وسيعجبك . . .
ودخلا البار . . .
وكان بالفعل كما وصفه راؤول هادئا ، اضواؤه خافتة ، الموسيقى رائعة . . .
وطلب كأسا من «الدراي مارتيني» .

واكتفى راؤول بقدح من البيرة وهويقول :
— لقد توقفت عن الشراب منذ زمن بعيد ، ان صحتي لم تعد تساعدني . . .
— غريب لقد كنا نسميك «الغول» في بيروت من كثرة قدرتك على احتمال المشروب . . .
— لقد انقلب الغول فأرا . . . انسيت اننا ندق ابواب الاربعين ؟ . . .
وضحكا معا . . .
وفجأة سأله كمال :
— اين كنت طوال هذه المدة ؟
— في اسرائيل . . .

وانفجرت قنبلة . او هكذا خيل لكمال . . .
وشعر ان شظايا القنبلة قد اصابته ، اصابته في رأسه . وان دمه يسيل ، وانه يملأ عينيه . . .
وحار كيف يتصرف . . .

فبالرغم من شعوره ان عليه ان يفعل شيئا ، كالهرب ، او الاحتماء من القنبلة . وجد نفسه مسمرا في مقعده ينظر الى راؤول فيراه ، ولا يراه ، كأنه سبح او صورة في فيلم . او حلم ثقيل بوده لو ينتهي !

الحركة الوحيدة التي استطاع القيام بها هي أنه مد يده ، وتناول الكأس ثم جرعه جرعة واحدة .
احس بعدها بدبيب النار يسري في شرايينه !
وفتح فمه ليتكلم ، فلم يجد صوته . . .
حاول من جديد . . .
خرجت الكلمات ، او الكلمة متقطعة ا..س..را..ئيل !
اجابه راؤول بهدوء فيه الكثير من التحدي :
نعم . اسرائيل ، انسيت انها دولة مستقلة على حدود لبنان !
قنبلة جديدة . . .

ماذا يفعل الانسان — فكر كمال — امام شاب ربطته به معرفة ، وبعض صداقة ، يوم كان يحمل الجنسية اللبنانية . واذا به يلقاه بعد ان اصبح مواطنا لدولة اسرائيل ؟ .

الانسان نفسه لم يتغير . . .
تغير جواز السفر الذي يتنقل به بين دولة واخرى . . .
ان راؤول الذي عرفه في بار الاكسلسيور ببيروت هو نفسه راؤول الجالس امامه في بار «الاسكوت» بباريس .
ومع ذلك فقد تغير . . .
بالامس كان صديقا واليوم هو عدو . . .
هل هو عدو ؟ !
على الصعيد الشخصي هل اصبح عدوه بمجرد ان حمل الجنسية الاسرائيلية ؟ .
اسئلة طافت برأسه وهو مسمر الى كرسيه . . .
وتدفقت الاسئلة على شفتيه مرة واحدة .
— ولكن لماذا تركت لبنان ، ولماذا ذهبت الى اسرائيل ، لم اخترت اسرائيل من بين دول العالم . . . ؟
— تركت لبنان لانني يهودي ، واخترت اسرائيل لانها وطن اليهود . . .
— ولكن لبنان كان وطنك ، وما زال حتى الان وطن آلاف اليهود . . .
— بعد حرب السويس شعرت فجأة بانني غريب في لبنان ، مرفوض ، لقد رفضني مجتمعكم . . . اصبحت وحيدا . . .
— هل كنت تشعر بهذه الغربة وهذا الرفض وانت بيننا في بار الاكسلسيور . هل عاملناك كغريب عنا ، هل . . . هل . . . عاملناك ابدا كيهودي ؟ .
— شعرت بان معاملتكم لي كانت نوعا من التهذيب . . . في قرارة انفسكم كنتم دائما تفكرون وتشعرون بانني غريب ، بانني يهودي .
— انت مخطىء ، مخطىء جدا .

ـــ يجور . . . ولكن هذا ما شعرت به . بعد انتهاء العدوان ، أصبحت اخشى النزول الى الشارع في بيروت ، تحاشيت الاتصال بكم ، شعرت بأن هذا البلد الذي ولدت وتعلمت وتربيت فيه اصبح بعيدا عني ، غريبا . . . فجأة شعرت كأنني اعيش في «بانسيون» مؤقت مؤقت قد يطردني صاحبه في اية لحظة .

ـــ وماذا وجدت في اسرائيل ؟

ـــ وجدت الوطن الذي لا اشعر فيه انني في «بانسيون» ومهدد بالطرد في اية لحظة .

ـــ وهل يشعر كل يهودي في لبنان والعالم بنفس شعورك . . .؟

وانتفض راؤول وهو يجيب :

ـــ انا لا امثل يهود العالم ، ولا انطق باسمهم . انا امثل نفسي . . . واتحدث عن شعوري الشخصي !

ـــ وامك وابوك . . . هل تبعاك الى اسرائيل . . . ؟

ـــ لا . . . لا . . انهما في بيروت

ـــ ولم لم يتبعاك الى الوطن الذي اخترته . .

ـــ ان نظرتهما الى الامور تختلف عن نظرتي . . .

ـــ لم افهم . . .

ـــ سأختصر لك نظرتهما . انهما يشعران بان وطنهما هو حي «وادي ابو جميل» في بيروت .

ـــ وهل اضطهدهما احد في . . . وطنهما !

ـــ اطلاقا ، كما لم يضطهدني احد انا شخصيا ، ولكنها قضية الشعور بالانتماء . في لبنان لم اشعر بالانتماء الى وطن ، وهذا ما اشعر به في اسرائيل . . .

ـــ انت صريح جدا معي . . .

ـــ انسيت انك صديقي . . .

ـــ ولكنك اخترت ان تكون عدوا لي !

ـــ اولا انا لست عدوا لك انت بالذات ولا لاي عربي ، وثانيا لم يكن لدي اي خيار . ان الشعور بانك احد افراد اقلية معرضة للاضطهاد في اية لحظة ، هو شعور تعيس قاتل .

— كان في امكانك الهجرة الى اميركا . أو كندا . . .
— سأكون ايضا جزءا من اقلية . . .
— اتعتبر اليهود في اميركا ، مع كل سطوتهم ونفوذهم ، اقلية ؟ !
— انهم اقلية ، وغرباء في كل مكان مهما بلغ نفوذهم . . . ما عدا اسرائيل .
— وهل توافق على سياسة اسرائيل التوسعية . . .؟
— انا لا ارسم سياسة اسرائيل . . .
انا فقط مواطن عادي ، انفذ السياسة التي ترسم لي ، ولغيري . . .
— سأسألك سؤالا ارجو ان تكون صريحا في اجابتك عنه . . .
— ألم اكن صريحا حتى الآن ؟
— طبعا . . . طبعا . . . السؤال هو ، هل . . . هل حملت السلاح ضدنا في حرب ١٩٦٧ .
— لا . . . لم احمل السلاح ، ولكنني ساهمت في المجهود الحربي بطريقة اخرى .
— ألم تشعر بأي تردد ، او تبكيت ضمير ، وانت تحارب اصدقاء لك . . . في الجهة الثانية من الحدود . . . ؟
— لم افكر اطلاقا في هذا . . . كنت ادافع عن بقائي وبقاء وطني .
— هل تعتقد ان اي عربي من الذين كنت تعرفهم كان من الممكن ان يؤذيك لو انقلبت الآية وانتصرنا ؟ .
— اتريدني ان اكون فظا في صراحتي . . . ؟
— نعم . . .
— لو انقلبت الآية ، وانتصرتم ، ورآني اي عربي من معارفي . . . لذبحني !
— ان اسرائيل قد غسلت لك دماغك . . . انك لست راؤول الذي اعرفه .
— انني اتكلم معك بمنتهى الهدوء . . . وعن اقتناع كلي بما اقول .
— اذن انت لا تجد اي خطأ في فكرة دولة اسرائيل ، والطريقة التي قامت بها . . .
— هذا ايضا لم يكن لي يد فيه ، انا اليوم ادافع عن بقاء دولة هي وطني .
— باختصار انت عدوي . . .

— لا . . . انت في نظري ما زلت صديقي ، انني عدو الدول التي تحاول محونا من الوجود . . . انت لست دولة ، انت مواطن مثلي ، ولو استطاع كل مواطن مثلي ومثلك ان يناقش القضية كما نفعل الآن ، لاختصرنا اكثر من مشكل : ولوصلنا الى حل .
— انك تنسى ، اوتتناسى مشكلة المليون مشرد الذين خلقتهم اسرائيل . . . هؤلاء هم اصحاب الارض ، وهم الذين سيتولون «النقاش» من الان وصاعدا .
— انت من فلسطين . . . ولكنك لا تحمل السلاح !

هذا اليهودي القذر ، لقد اضاع صوابه ، انه يحمل مجموعة من القنابل يفجرها بين فترة . . . وفترة . وكانت القنبلة الاخيرة من النوع المحرق ، انها تحرقه الان .
وحاول ان يجيب . . . ففشل !
معه حق ، هذا اليهودي ، انه من فلسطين ، ومن القدس . . . ولكنه لم ولن يحارب .
وهذا اليهودي ، من لبنان ، ومن مواليد بيروت ، «هاجر» الى اسرائيل وانتمى ، وجاهد في اول حرب شنتها بلاده .
كان رده ، عندما اجاب غريبا . . . بلا منطق ، قال :
— من يدريك ، فقد احمل السلاح غدا . . .وقد اقتلك !
ابتسم راؤول . واجاب :
— لا لن تحمل السلاح ، لا اليوم ، ولا غدا ، انك تنتمي الى طبقة من البورجوازية الفلسطينية التي تعلن الحرب في بارات بيروت ولندن وباريس فقط . واؤكد لك لولا معرفتي من قبل بانك فلسطيني لانكرت ذلك .

هذه المرة لم يرم راؤول بقنبلة في وجهه ، لقد ذبحه . . . بسكين .
وقاوم . . . حادل . . . قال :
— انت مخطىء . . . انت تعرفني من قبل ، وليس الان . لقد تغير كل شيء بعد حرب حزيران ، لقد حملنا جميعا السلاح .
— الذي حمل السلاح هوالفلسطيني الذي بقي في الخيام منذ عشرين عاما ، الفلسطيني المشرد ،

الجائع ، الناقم ، الذي يحلم بالعودة ، وليس الذي لا يرضى الا ان ينزل في فندق «جورج الخامس» بباريس .

— انا امنعك بان تحدثني بهذه الطريقة . . . من انت حتى تحدثني . . .

قاطعه راؤول بحدة :

— ألم نتفق على الصراحة . . . ثم انسيت اننا اصدقاء ؟

— لقد انقطعت هذه الصداقة منذ ان رحلت الى اسرائيل !

— ولكنك لم تعرف عن رحيلي الى اسرائيل الا الليلة . . .

— والليلة قررت انك لم تعد صديقي . . .

— ان عواطفك هي التي تتكلم الان . . . وليس عقلك !

— وهل تركتم لنا عقلا لنفكر به . . . لقد فرضتم على العالم باطلا اصبح مع الزمن حقا مكتسبا . . .

— على الاقل نحن نحمي هذا «الحق» بدمائنا . . .

— انت . . . انت . . . وكل امتك مجموعة من المجرمين . . .

— كمال . . . انك تصرخ ، جميع من في البارينظر الينا . . .

— لا يهمني . . . انت عدوي ، وانت مجرم . . . وارجوان لا ارى وجهك بعد الان ، لانني سأتوقف عن اسلوب الحوار معك . . . واستعمل اسلوبا آخر . . .

نهض راؤول ، بدون كلمة ومشى .

وجلس هوبدون كلمة يهدىء اعصابه بكأس جديدة .

◦ ◦ ◦

في الصباح كان في رأسه صداع . . .

وبجانبه سمراء صغيرة الحجم كطابع البريد . . .

وعلى الارض صحيفة «الهيرالد تريبيون» .

التقط الصحيفة وقرأ على الصفحة الاولى :

الفدائيون يخطفون اربع طائرات نفاثة . . .
وطار الصداع . . .

كان شعوره مزيجا من الخوف والقلق والدهشة . . . والاعتزاز معا .
الخوف مما سيحدث .
والقلق على . . . ما سيحدث .
والدهشة . . لما حدث .
والاعتزاز . . . بما حدث .
اربع طائرات دفعة واحدة .
وراح يلتهم الصحيفة بعينيه ويديه وقلبه معاً .
قرأ كيف تفجرت اكبر طائرة في العالم في مطار القاهرة .
وكيف انتهت الثانية والثالثة في مطار صغير بالاردن .
وكيف فشلت المحاولة الرابعة .
في المرة الاولى قرأ الاخبار ، والتعليقات . . . بسرعة . بسرعة المتلهف على معرفة كل شيء دفعة واحدة .
ثم بدأ يقرأ من جديد ، كي يعي ، ويهضم ما قرأ .
وعندما ازاح الصحيفة عن عينيه ، قفز الى ذهنه فورا ، راؤول .
ذلك اليهودي المتعجرف الذي اراد امس ان يلقي عليه دروسا في المقاومة والوطن والارض .

اراد ان يضع الصحيفة امامه ، ليرى وقع الخبر عليه .
ففي عينيه يستطيع ان يقرأ وقع الخبر ، هناك ، في اسرائيل
ولكن . اين يجد راؤول بين ملايين البشر في باريس . فلقد نسي مع حدة الحوار ان يسأله عن اسم الفندق الذي ينزل فيه . وفنادق باريس تعد بالمئات . وفكر في جورجينا ، وامها اليهودية التي تعيش في اسرائيل ، وود ايضا لو كانت هنا ليرى وقع الخبر عليها .
باختصار كان يريد ان يرى وقع الخبر على اي انسان .

وقرر اخيرا ان ينزل الى الشارع ليرى وقع الخبر على الناس .
ولم يطل انتظاره ، فبينما كان يضع مفتاحه امام موظف الاستقبال في الفندق فاجأه هذا بقوله :
— هل قرأت الاخبار يا مسيو . . . كمال ؟
— نعم . . . قرأتها .
— وما رأيك ، انه شيء لا يصدق.
ووجد نفسه يقول له بلهجة لا تخلو من التحدي :
— ما دامت قد حدثت ، فانها تصدق اليس كذلك ؟
ولم ينتظر جوابه ، بل اتجه مسرعا الى الباب .

من عادة الكثيرين في باريس ، ان يقرأوا الصحف وهي معلقة عند الباعة .

منظر مألوف ان ترى بضعة اشخاص ، يحملقون في الصحف . لكن ان ترى مئات الاشخاص يقفون وهم يقرأون وعلى وجوههم امارات الدهشة . . . والاستغراب ، فهذا ليس بالمألوف الا في الاحداث الكبرى ، كاستقالة ديغول ، اوموت كنيدي .
ورآهم بالمئات ، يقرأون ، ويتحدثون ، ويهزون رؤوسهم .
ورآهم بالمئات يجلسون على المقاهي يلتهمون الصحف باعينهم وحواسهم .
ورآهم بالمئات يناقشون الحدث ويحللون .
وشعر بأن الحدث اكبر مما تصور ، واضخم مما تخيل وهو يقرأه في غرفته بالفندق .

وكاد يقف في وسط الشارع ويصرخ : انا عربي ، انا فلسطيني . . . انا من بلد الثوار الذين تتحدثون عنهم .
ومع جهله بالفرنسية ، فقد انتهى واقفا مع الواقفين ، ينظر الى الصحف ، الى الصور ، الى الكلام الذي لا يفهم .
ولم يستطع الانتظار اكثر من ذلك . كان في صدره رغبة كبيرة بالتحدث ، بمناقشة ما حدث .
ان ما حدث اكبر من ان يتحمله لوحده .
ولكن مع من يتحدث ؟ والى من ؟ وبأية لغة ؟

وبدأ يبحث عن اي انسان يقرأ ، كما قرأ ، «الهيرالد تريبيون» بالانجليزية .

وقادته قدماه الى مقهى وبار «الرد ليون» (الاسد الاحمر) في الشانزليزيه ، حيث يلتقي القادمون من لندن ، لانه يذكرهم ببلادهم ، بجوه وطريقة الخدمة فيه . فهويشبه او على الاصح صورة طبق الاصل عن بارات لندن التي تسمى «بالبوب» .
وصح ما توقع ، فقد وجدهم بالعشرات ، ولكنهم كانوا يقرأون بدلا من «الهيرالد» جرائد بلادهم «كالتايمز» و«الدايلي تلغراف» .
وجلس بجانب احدهم . شاب شعره احمر . لا يظهر عليه انه حلق اويحلق ذقنه .

ولم يظهر على الشاب الاحمر الشعر ، انه انتبه لوجوده ، بل تابع قراءة الصحيفة التي في يده باهتمام كامل .
واستجمع شجاعته ، وتنحنح ، ثم قال بصوت خاله همسا :
— ما رأيك بالاخبار ؟
ايضا لم ينتبه الشاب الى وجوده .
اعاد الجملة بصوت مرتفع .
وهنا التفت اليه الشاب ، وسأله بهدوء :
— استميحك عذرا سيدي ، هل كنت توجه الحديث الي ؟
— نعم . . .
— هل من خدمة استطيع ان اقدمها لك ؟
— كنت اسألك عن رأيك بالاخبار . . .؟
— اية اخبار تعني . . .؟
— اخبار خطف الطائرات . . .
— آه . . . هذه الاخبار . انها قرصنة !
اختصر الانجليزي البارد الاحمر الشعر ، رأيه بكلمة .

وارتج عليه . للحظات خيل اليه ان حبل النقاش قد انقطع ، لولا انه لاحظ ان نظرة الانجليزي

قد تركزت عليه من خلف النظارة وكأنه يتحداه ان يكون لديه رأي آخر .

واشعل سيجارة بيد مرتجفة ، ثم قال :

ــ ولكن هؤلاء الناس يدافعون عن حق . . .

ــ ليس بخطف الطائرات ، وارهاب الناس الابرياء . . . والتهديد بقتلهم .

ــ منذ ربع قرن تقريبا وهذا الشعب يهدد ويقتل ويشرد ولم ينتبه لقضيته احد .

ــ اي شعب تعني . . . ؟

ــ الشعب الفلسطيني . . .

ووجد نفسه يندفع ليروي بجمل متقطعة ، وافكار متقطعة ، القصة كلها . من اولها . والانجليزي يستمع اليه بهدوء حتى انتهى .

وبهدوء ايضا سأله عندما انتهى :

ــ ولم لا تكتبون القصة في الصحف . هذا الكلام الذي قلته لي ، لم لا ترويه للعالم ، للناس عن طريق الصحف والاذاعة والتلفزيون ؟

ومن جديد انطلق يروي له مأساة اجهزة الاعلام في العالم بالنسبة لقضية فلسطين . وسيطرة الصهيونية على هذه الاجهزة .

وكاد ان ينفجر ، عندما قال الانجليزي بعد الشرح الطويل :

ــ انا لا اصدق ما تقول . اعتذر . ولكنك تبالغ الى حد كبير .

فجأة وجد نفسه وجها لوجه امام المأساة الكبرى .

هذا الاجنبي ، الغريب عنه وعن فلسطين ، قد تعرض منذ صغره لعملية «غسيل دماغ» فهو مهما كلمه لن . . . يقتنع . الطريقة الوحيدة لاقناعه هي لغة الارقام والحقائق المجردة . وهذه الارقام والحقائق لن تجد طريقها اليه لان ليس هناك من هو على استعداد لان ينشرها .

ووجد نفسه يتذكر قصة الصحفي والكاتب الانجليزي «مايكل ادامز» وكيف منع ، ثم طرد من الصحيفة التي يعمل بها ، عندما حاول ان يكتب الحقيقة عما يجري في الارض المحتلة .

وروى القصة للغريب الجالس معه .

تهذيبا ، هذه المرة ، لم يقل له انها قصة مختلقة ، ومبالغ فيها ، بل اكتفى بأن قال :
— على كل حال . . . لا زلت اقول انها قرصنة !

وبدأ يستعد للرحيل . لولا ان انضمت فجأة الى الانجليزي فتاة يبدو انه كان بانتظارها . ولما سمعت جملته الاخيرة سألته عن معناها ، فاختصر لها حواره مع كمال . والتفتت هي الى كمال لتسأل :

— أأنت عربي ... ؟

— نعم . . .

— لولا الحياء لقبلتك امام جميع الناس . اخيرا تحركتم ، وجعلتم العالم ينتبه الى عدالة قضيتكم.

وكالغريق الذي انقذ في اللحظة الاخيرة ، أمسك بخشبة الخلاص واندفع يقول :
— ولكن صديقك لا يعتقد ذلك . . .

— انه عبي كمعظم شبابنا . لا يهمه الا اخبار كرة القدم . . . والسباق وبعض اخبارنا الداخلية .

وحاول الانجليزي ان يدافع عن نفسه . فاسكتته باشارة من يدها ، ثم تابعت حديثها مع كمال :
— لقد عرفت عن قضيتكم عن طريق صديق لي فلسطيني كان يدرس في انجلترا . في البدء كنت صورة طبق الاصل عن «عافين» — واشارت الى صديقها — ولكنني عن طريق الحديث مع صديقي ، ثم مطالعة الكتب التي زودني بها ، آمنت بعدالة قضيتكم ، وكذلك آمن العشرات من صديقاتي واصدقائي ، اسمع . . .

وسكتت . ثم نهضت فجأة وهي تقول :
— لقد غيرت رأيي ، يجب ان اقبلك .
وطبعت على وجهه قبلة مسموعة ، اثارت انتباه بقية الموجودين .
— هذه لكل العرب ، وخاصة للفلسطينيين .

وفوجىء . خصوصا عندما ظلت واقفة وهي تقول :

ـــ الا تريد ان ترد لي التحية ؟

ورد التحية ، ولكن بحياء وخفر ، كخفر العذارى .

وغافين ، صديقها الانجليزي ، ينظر الى ما يحدث وكأنه يشاهد فيلما سينمائيا ممتعا .

وتابعت هي الحديث :

ـــ والان لنشرب نخب العرب .

ونهضت الى البار ، وعادت بثلاثة اقداح من البيره وهي تقول :

ـــ الى القراصنة الذين احب .

وشربوا النخب واتبعوه بنخب آخر ، وعادت لتتحدث ، سألته :

ـــ ما هي اخباركم ، اخبار المقاومة ، الابطال . . .

ـــ يبدولي انك تعرفين عنهم ، اكثر مما اعرف .

ـــ اعرف الكثير ولكن هذا لا يكفيني ، لا يشبعني . . . حدثني .

وخجل ان يقول لها انه يتحاشى ، ويهرب من سماع اخبار المقاومة . خجل ان يخبرها انه هارب من عالمه الى عالم الضياع هنا في باريس . شعر بانه صغير ، تافه ، امام هذه الفتاة التي تحب بلاده ، وابطال بلاده ، وتعرف عنهم اكثر مما يعرف .

وتركها تتحدث ، تنطلق في حديثها .

قالت :

ـــ سأختصر لك لمَ احب واؤمن بعدالة قضية فلسطين . انا من قرية صغيرة في ايرلندا . تركتها مع والدي وانا لم ازل في الخامسة من العمر ولم أعد الى هناك . ولكنني مع ذلك اذكرها ، واخبىء لها في صدري حنينا خاصا . وذكريات طفولة ، عندما افكر فيكم افكر في قريتي . واسأل نفسي : ماذا يحدث لو سمعت ان غريبا جاء ليحتل قريتي بالقوة . اتعرف ماذا سيحدث . سأحمل السلاح ، واذهب لطرد هذا الغريب . لن افكر . سأحمل السلاح واقاتل وهذا ما يجعلني افهم حقيقة شعور المقاتل منكم وهو يحمل سلاحه ليدافع عن بلاده . ويطرد الغريب .

وتدخل غافين في الحديث ، ليقول :
— ولكنهم ، اعني الذين احتلوا ليسوا غرباء انهم اهل البلاد . . . الاصليون .
مرة اخرى وجد نفسه امام المأساة الكبيرة .
ومرة اخرى حاول ان يخفف منها ، لكنه في هذه المرة لم يكن لوحده ، كان معه الفتاة التي لم يعرف اسمها بعد . . . هي التي تولت الاجابة . والشرح . والدفاع .

وعندما انتهت . لم يعلق صديقها ، بل اكتفى بأن نظر الى ساعته وقال لها :
— علينا ان نتحرك . . . لقد تأخرنا عن موعدنا .
وتركاه لوحدته . . . وافكاره .

عاد الى الشارع . الى الناس . نظر اليهم وكأنه يراهم للمرة الاولى . اصبح ينظر اليهم من خلال نظرة «غافين» الانجليزي اليه . انهم مثله ، مثل الانجليزي ضحية معلومات خاطئة او ناقصة .
خيل اليه انهم جميعا يعتبرون خطف الطائرات قرصنة !
انهم اغبياء لا يفهمون . ولا يهمهم ان يفهموا . مشاغلهم تمنعهم من التفكير بالعرب . ومشاكل العرب . وفلسطين ، وقضية فلسطين . مرة اهتموا بالموضوع . سمعوه من وجهة نظر واحدة . ثم توقفوا عن التفكير .
اليوم ، اليوم فقط ، عادوا الى التفكير . فرض عليهم ان يعودوا .
مصير الطائرات الغامض مصير الركاب فرض عليهم التفكير . وفرض عليه هو متابعة الاخبار .

بدأ يعيش معهم من خلال هذا الاهتمام .
الصحف . الاذاعة . التلفزيون ، عاشت الحدث لحظة فلحظة .
الحدث شد الناس الى الصحف والاذاعة والتلفزيون . الملايين خطر لهم ان يسألوا للمرة الاولى :
ما هي قصة الخاطفين . لا بد وان لهم قضية ؟ !
وتطوع اكثر من معلق لشرح القضية .
قليلون هم الذين انصفوها . ولكنها مع ذلك اصبحت قضية القضايا ، وشغلت الناس .
وقضى هو الايام التالية مشدودا معهم .

وجد نفسه يلهث مع الاخبار .
وعادت جورجينا من لندن لتلهث معه .
كل جمالها . وانوثتها ، والدفء الذي تبعثه في الفراش ما كانت لتنسيه الذي يحدث .
وشعر كيف انقسم الناس في كل اوروبا حول الحدث .
وارداد شعوره ، بما يعانيه ، وهو يخضع لتفتيش مذل في مطار لندن عندما اضطر للذهاب إلى هناك لليلة واحدة .
بدلا من ان يفتش عن اناس يناقشهم بالذي حدث . اصبح يهرب من الناس . فور ان يعرف اي واحد انه عربي يبادره هوبالتعليق او السؤال .
وتعود ان يجلس كل ليلة امام شاشة التلفزيون ، وبجانبه من يترحم له ، ليتتبع الاخبار .

لمدة ايام طويلة ، اصبح هو يلاحق الزنجي العملاق بائع «الهيرالد تريبيون» يختطف الصحيفة من يده . يقرأها ، يلتهمها . قبل ان ينام . عبثا حاول ان يبعد الصورة عن ذهنه .
يسهر حتى الصباح . يشرب حتى الثمالة . ينهك جورجينا بحبه . ولكن ليعود الى التفكير .
ومن التفكير ، انتقل الى التمزق . اصبح يقضي الليالي ساهرا . يأباه النوم . الارق يهد اعصابه . يفكر ، يتقلب .
وفكر جديا في العودة الى بيروت ، اوالى الصحراء . او في العودة . . الى باريس .

صحيح انه في باريس . ولكنه ليس فيها . انه هناك ، في بقعة صغيرة من الارض اطلق عليها اسم مطار «الثورة» . يرى بخياله طائرات نفاثة ضخمة يحرسها اناس من وطنه . وبداخلها اناس غرباء من هنا . . . مصيرهم مجهول ، كمصير وطنه .

ويوما بعد يوم ، ومع كل صحوة شمس ، بدأ يعتاد الحدث . وبدأ يعود . . . الى باريس . باريس الحلوة المشرقة اللاهية .
باريس التي تهتم بكل شيء ، وبلا شيء .
كأهل باريس بدأ يعيش . يأخذون كل شيء بجدية مطلقة . لكنهم ليسوا على استعداد ابدا لنسيان زجاجة النبيذ مع العشاء ، والسهرة الحلوة .

اكتشف ذات ليلة ، انه لم يقرأ الصحيفة ، ومع ذلك استطاع ان ينام . . . بدون ان يفكر .
فكر قليلا تساءل بينه وبين نفسه ، عما حدث . ثم احتضن جورجينا ونام .
لم يعد يتوقف أمام «اكشاك» باعة الصحف . وان توقف فللحظات .
اذا ناقشه أحد ، استمع اليه ، ثم اجابه وكأنه ليس من هناك ، من البلد الذي تقف فيه الطائرات .

يعلق على الموضوع ، ولكن بلا اندفاع اوعاطفة .
وغرق في باريس . . . ومع باريس :
واغرق تفكيره في سحرها . وعب منه ولما يرتو .
سهر كالمراهقين . ورقص كالمراهقين . واحب كالمراهقين .
اصبح وجهه مألوفا في دنيا الليل في باريس .

انه الاسمر القادم من الشرق ، الذي يدفع بسخاء ، ولا يغادر الملهى الا بعد ان يكسر الاقداح على انغام الكمان .

انه الشرقي الذي يجلس على احسن مائدة . ويشرب أفخر انواع الخمرة . ويتصرف وكأنه فطم على «الكافيار» .
انه السائح «المغفل» الذي يساوي الف سائح اميركي ، ومليون سائح الماني .
في الليالي التي يسهر فيها وحيدا بعد ان يهرب من جورجينا ، انه الذي تتهافت على مجالسته فتيات الليل ، فهو كريم في العطاء ، ككرمه في الحب .

جميع نساء باريس ، غانياتها ، اعجز من اطفاء اللهيب المتوقد في داخله منذ ان عرف معنى الحرمان في الصحراء .

المرأة التي تعيش معه ليلة ، تشعر بأنها أول امرأة في حياته .
في قبلاته عبادة . وفي حبه وله . وفي عشقه . . . صلاة .
اللواتي عرفنه اعتقدن انه يعيش لشيء واحد . . . الحب .
وهو بالفعل عاش تلك الفترة لشيء واحد : اسمه . . . الحب .

كلما قرأ خبرا عن الطائرات الرابضة في مطار الثورة . احضر آخر الليل «نفاثة» جديدة لتستريح في مطار . . . سريره .

اصابه جنون . اوما يشبه الجنون . . . الحاد . . . كالذي يصيب المؤمن ، غفلة .

انطلق كالمسعور ، يصل نهاره بليله ، فيختلط عليه النهار والليل ، وكلاهما سواء ، ففي النهار نساء ، وفي الليل نساء .

فترة الهدوء الوحيدة التي كان يقضيها ، كانت عندما تأتيه جورجينا . فقد تعودت عليه وتعود عليها ، وأصبح حبه لها نوعا من الاستراحة ما بين امرأة . . . وامرأة .

هي الوحيدة التي كان يجلس اليها احيانا لفترات طويلة يناقش مواضيع عامة لا علاقة لها بالحب . . . او السياسة .

في حبه لها ابتعد عن الشبق .

أصبح يعاملها كرفيقة قديمة ، لها حقوق الرفاق القدامى .

ما عدا ذلك . . . فكل ما يفعل جنون .

منظره آخر الليل ، واقفا على مائدة يغني ، ويكسر الاقداح ، ويضحك حتى يبكي ، لم يعد يثير الانتباه .

لم يعد يرعبه ان يستيقظ في شقة غريبة ، مع امرأة غريبة ، في فراش غريب ، بدون ان يذكر كيف ومتى ولماذا جاء الى هنا .

لم يعد يخجل ان يسأل الفتاة النائمة الى جانبه عن اسمها واين قابلها وكيف احضرته الى منزلها ومن أين !

اصبح فقدان الذاكرة ، آخر الليل ، شيئاً يشبه العادة في حياته .

مرارا تحييه فتاة في الشارع . يرد التحية ، يتذكر انه يعرف هذا الوجه ، ولكن الاسم ، وصاحبة الوجه ، واين قابلها ، فهذا مستحيل عليه ان يتذكره .

ضحك مرة عندما تذكر واحدة ، ليس من وجهها . ولكن من الطريقة التي تمشي بها . . .

وتهتز . اغمض عينيه وتذكرها تمشي عارية في غرفته بنفس الاهتزازفصرخ بلا وعي : نيكول ؟؟
فاذا بها نيكول . وعندما اخبرها عن الطريقة التي تذكرها بها كاد أن يغمى عليها من الضحك .
ووصل به الشذوذ ان أصر عليها ان ترافقه فورا الى غرفته كي «تهز» وهي عارية من جديد .
وكلفه الهوس هذا خمسماية فرنك فرنسي جديد .

الخادم الذي يحضر له القهوة عندما يستيقظ ، تعود ان يدخل الغرفة ويقول بدون ان ينظر :
صباح الخير مدام . . . مسيو .

مرة ، بالصدفة ، عندما لم يجد «مدام» توقف وسأله اذا كان مريضا ، وهل ثمة ما يدعولاستدعاء الطبيب ؟

طابت له هذه الحياة . انسته كل شيء حلقة كبيرة مفرغة لفته في اطارها الكبير حتى أصبح جزءا منها .
ونسي الطائرات والركاب . وفلسطين والعرب ، والقتال والمقاتلين . . .
ونسي الايام والتواريخ . . . وكل شيء .
وتباعدت لقاءاته مع جورجينا .وان كانت تتصل به باستمرار في التلفون .
لكنه استغرب ان يسمع صوتها مع الفجر ذات يوم ، وزاد استغرابه عندما سألته اذا كان قد قرأ الصحف ، فأجاب بالنفي ، وحاول ان يقفل السماعة .

لكن السماعة بقيت معلقة في يده عندما سمعها تقول ، وكأنها تتكلم من عالم آخر ، ألم تقرأ ، لقد نسفوا الطائرات .
وصرخ : والركاب ؟ ! !
بقيت السماعة باردة في يده . فلقد اقفلت جورجينا الخط .

بقيت السماعة في يده مدة لا يعرف طولها . ولكنه شعر بانها مدة طويلة . ظل يحلق فيها .
ذاهلا ، وصوت جورجينا يدور في رأسه : لقد نسفوا الطائرات .

الصوت كان أقوى من الصداع الذي يمزق رأسه .

وايقظه صوت عاملة التلفون تسأله :

مسيو كمال ، لم ترفع السماعة ، اتريدني ان اطلب لك رقما ؟

ــ لا شكرا ، ارجو ان تطلبي من موظف الاستقبال ان يرسل لي جريدتي .

ــ هل اصلك به لتحدثه انت ؟

ــ لا . . . ارجوان تريحيني من ذلك .

واقفل السماعة . وتناول سيجارة .

من النادر ان يدخن قبل ان يشرب القهوة . لكنه اليوم لم يفكر حتى في طلب القهوة . واحرقت السيجارة فمه ، كان طعمها مرا ، كمرارة فمه ، وتسلل دخانها الى صدره فشعر به لهيبا ساخنا ، اما حلقه فاصبح كرة من نار ، ثم هاجمه السعال فانتفض ، وظل يسعل حتى شعر بأنه يكاد يختنق ، ان لم يكن قد اختنق فعلا .

عاد الى التلفون ، يطلب القهوة .

واطفأ السيجارة . . . ثم اشعل سيجارة ثانية ، عاد ليلحقها بالاولى بعد لحظات .

نسفوا الطائرات ؟ ؟

ستقوم القيامة من جديد . . .

لقد ضاع الانتصار. وسيضيع كل أثر للحدث مع صوت الطائرات المفرقعة !

قراصنة ؟ ؟

واستقر امامه وجه «غافين» الانجليزي ينظر اليه ببرود .

هل كان على حق . . . ؟

هل هم فعلا قراصنة ؟ ؟

ولكن . . . . . .

وقرع الباب . ووصلت القهوة ، والجريدة معا .

على الصفحة الاولى من «الهيرالد تريبيون» قرأ الخبر ، وشاهد الصور.

بقايا طائرات نفاثة تجثم على ارض مطار الثورة ، مهشمة ، محطمة .

والركاب ؟ ؟

لقد نقلوا الى جهة مجهولة ، بعد ان اطلق سراح النساء . . . والاطفال .
وهجوم صاعق في صفحة التعليقات ، ما عدا تعليق واحد ، صغير ، في زاوية الصفحة ، انه يقول باختصار : ان الظلم يولد الظلم ، والقرصنة تنتج القرصنة ، والجريمة تؤدي الى الجريمة ، وبأنه لولا مأساة أبناء فلسطين وحقوقهم التي بقيت مهدورة طوال هذه السنوات ، واهمال مجتمع العالم لهم وتشردهم ، لما كان حدث . . . ما حدث .

غريب ما يقوله هذا المعلق . وغريب نشره هنا .
ولكنه ، لا يلوم مجتمع العالم لاهماله ابناء شعب فلسطين .
هو نفسه قد اهملهم ، ونسيهم ، وتوقف عن التفكير فيهم . ولو حدث وعاش في بلد لا صحف فيه ولا اذاعات لنسي انهم موجودون اصلا .
من يصدق انه هو نفسه من هذا الشعب «المشرد» .
لو اقسم ، وبح صوته وهو يقسم لاي انسان انه قد خرج من فلسطين عام ١٩٤٨ ، لا يحمل في جيبه من النقود الا ما يكفيه لايام ، ومن الثياب الا الذي يلبسه ، لما صدقه احد !

مستحيل ان يكون هذا الرجل الانيق الى درجة التبرج ، المسرف الى درجة الجنون . اللاهي الى درجة العبث .

مستحيل ان يكون هذا الرجل الذي لا يشاهد كل ليلة الا وفي يده امرأة . كالسيجارة في يد مدمن التدخين .
مستحيل ان يكون هذا الرجل الذي يعيش كالامراء في افخم فنادق باريس ، يوزع الفرنكات وكأنه مهراجا هندي وارث من حديد .
مستحيل . . . ان يكون «مشردا» ، من فلسطين !
هل ينتمي هو الى نفس الشعب ، الذي يفجر القنابل في تل ابيب ، ويدك بالصواريخ مستعمرات اسرائيل ، ويشتبك كل ليلة بمعارك ضارية مع جنود اسرائيل . ويخطف الطائرات من سماء اوروبا ، وينزلها في مطار صحراوي ، ثم ينسفها فتتطاير . . . كالفقاقيع . يهز العالم . . . يجبر دولا من اكبر دول اوروبا ان تفاوضه ، ان ترجوه ان ترسل له الرسل ، لكي يصدر عفوه

عن طائراتها وركابها ، مقابل ان تصدر عفوها عن مقاتليه المحكومين في سجونها ؟
هو نفسه يكاد لا يصدق انه ولد هناك في ارض البطولات والابطال .
لا بد وان هناك خطأ في شهادة ميلاده .

لو كان قد ولد في القدس كما جاء في الشهادة ، وكما هو مثبت على جواز سفره . . . اللبناني ، لما كان الآن هنا . لكان شارك بطريقة من الطرق ، في الحرب الدائرة في بلاده .

ليس من الضروري ان يحمل بندقية ، او يلقي قنبلة .
هناك الف طريقة يمكنه فيها ان يساهم في المقاومة .
كل انسان يمكن ان يساهم في المقاومة .
الفتاة الصغيرة التي تبيع بطاقات المعايدة ، او تحمل صندوق التبرعات . . . هي ايضا تساهم في المقاومة ، تماما كالمقاتل الذي يرمي بنفسه في النار وعلى النار . . ليقتل !
مجموع ما صرفه في رحلته هذه ، كاف لشراء مدفع .
لا يكفي ان «ينفعل» احيانا عندما يقرأ خبرا مثيرا .
خبر مثير . . . من فيتنام ، يثيره ايضا .
لا يكفي ان يبكي كالارامل مرة كل شهر ، ليكون قد ادى واجبه .
هو لا يعرف بالضبط . . . متى مات شعوره .
ولا يعرف ايضا لم مات . . . شعوره .
هل هو ردة فعل لما حدث عام ١٩٦٧ ؟
ام هو اقتناع بعدم جدوى اية محاولة ؟
يذكر انه في اعوام الهجرة الاولى ، يوم كان مشردا في شوارع بيروت ، انه كان «مهووسا» بحب بلاده .
اذا رأى صورة للقدس ، نام ليلتها وقد اغرق وسادته ببحر من الدمع .
كان يرى في كل حجر من حجارة بيروت . . . ما يذكره بطفولته ، وببلاده .
يتابع اخبارها . يضم ، يقبل ، يشم ، اي انسان قادم من هناك . كما يضم ويقبل ويشم الحبيب

حبيبا قديما عاد بعد طول عياب .

بيت شعر ، مقطع اغنية ، يثير في قلبه حنينا كالالم يمزق ضلوعه .

ما الذي حدث . . . ؟ ؟

وكيف حدث ؟ ؟

هل هو الثراء الذي بدأ يتسلل الى حياته ؟ أم هو تلك الدوامة الحلوة من حياة بيروت : بكل ما تحمل من معاني النسيان . . . والتي عاشها بكل ما فيها من معانٍ ، فبدأت تسدل مع الزمن ستارا كثيفا بينه وبين ماضيه ، وبينه وبين طفولته ، وبالتالي بينه وبين . . . وطنه .

أم هو استبدال وطن . . . بوطن .

هل خلع «فلسطين» . . . ليلبس . . . «لبنان» .

وهل الاوطان تغير كالقمصان ، نختار منها ما يناسب «سهرة» الليلة .

صحيح انه احب لبنان الى درجة الوله .

واصبح يشعر بانه جزء لا يتجزأ من هذا الوطن الجديد الحلو . . . وان مشاكل لبنان مشاكله ، وهمومه همومه ، ينفعل معها ويتفاعل ، ويحارب من احلها .

ولكن ايكفي هذا ، لينسى وطنه الاول .

وهل تنسى الاوطان بهذه . . . السهولة !

هل نسي وطنه ، كجزء من النسيان الكبير الذي اصاب الجميع .

النسيان الذي لف الجميع ، من اكبر زعيم عربي الى اصغر طفل ، حتى اصبحت فلسطين ، او كادت ان تصبح ، ذكرى تصلح كموضوع لكاتب قصة اولشاعر حائر . . . تماما كالاندلس .

حلوة فلسطين . يقولها شيخ فلسطيني ، يحن الى «طقطقة» نارجيلة على شاطيء البحر في يافا . . .

«آ . . .ه ، والله ، حلوه»

تجيبه مجموعة السامعين .

وتجمد العيون ، وتزفر الانفاس . . . وينتهي الموضوع . يقف . يعرق .

صعد الى السطح مرة ، اومرتين ، ثم غرق نهائيا .

مرة اثناء حرب السويس .

ومرة اخرى عندما قامت اسرائيل بعملية «تأديبية» فابادت قرية عربية على حدودها مع الاردن .

ولا شيء . . . .

اخبار كثيرة . تسلح . جيوش . حطابات . اناشيد . ولا شيء .

زعامات تطفو . وزعامات تغرق .

ويذكر اسم فلسطين في حالة الطوفان والغرق .

ثم لا شيء .

احتجاج لوكالة الغوث . اضراب بسيط . مطالبة ببعض «الغرامات» من الزبدة . ثم لا شيء .

لجان عليا لفلسطين ، ولجان متوسطة ، ولجان صغرى ، واجتماعات مغلقة ، واجتماعات مفتوحة .

ثم . . . لا شيء .

خطاب لمندوب عربي يهوى الخطابة في هيئة الامم . تنشره بعض الصحف بطريقة تشبه الاعلان . ثم لا شيء .

وفي النهاية . اصبحت القضية كلها ، لا شيء !

مرة كل عامين او ثلاثة ، يركب الطائرة ، ليهبط في مطار القدس ، والى منزل والده الجديد في القدس القديمة ، يقبل يده ويد والدته ، ينال رضاهما ، يبكيان ، يسهر سهرة مع الاقارب والمعارف ، يسألونه عن بيروت . عن وطنه الجديد ، فيجيب بكلمات قليلة مبتورة ، حتى اصبحوا مع الزمن يعاملونه كغريب ، ويتصرفون معه كضيف .

مرة طلب منه صديق احنبي ان يذهب معه في جولة بالبلدة القديمة ، او القدس العتيقة كما سماها ، فاضطر الى الاستعانة «بدليل» وكأنه سائح قادم من البرتغال .

زار كنيسة القيامة والمسجد الاقصى ومشى في طريق الآلام التي مشى فيها المسيح قبل مئات الاعوام ، وكأنه يتعرف عليها لاول مرة . ذكرياته عنها ذكريات طفولة ، مليئة برائحة الزيت والفلافل ، والرطوبة التي تملأ «الحارات» التي لم تر الشمس منذ ان وحدت .

قداس منتصف الليل ، في كنيسة القيامة ، يوم كان ينام على اصوات الجوقة . وابوه يهزه كي يستيقظ . . . ليصلي .

آذان المسجد الاقصى يوم الجمعة ، يسمعه بأذنيه ، اوعن طريق الاذاعة المنقولة .

بائع كعك «السمسم» والزعتر . والبيض . طعمها هوالوحيد الذي لم ولن ينساه في حياته . كالصغار يشتري كعكة يقضمها كلما ذهب الى . . . القدس .

احيانا ، وهو في طريقه من المطار الى القدس القديمة . كان يقف في «الشيخ جراح» ينظر من بعيد الى القدس الجديدة ، يرى ، او يخيل اليه انه يرى منزله القديم . حيث ولد . يكاد يجلس بداخله بعين خياله ، يتجول في الحديقة الصغيرة : يلعب ، يضحك ، يقرأ . . . يحلم .

يضج الحنين في صدره . ساعة اوبعض ساعة ثم يخفت ، ثم يموت .

في الاعوام القليلة التي سبقت حرب حزيران ، اوما يسمونه حرب الأيام الستة ، خفت زياراته حتى كادت تنقطع . اصبح يدعو اهله الى زيارة لبنان . بدلا من ان يذهب هو الى زيارتهم . ما كان يضايقه من والده ، هو مقارنة لبنان ، ومناظر لبنان . وجمال لبنان ، بفلسطين ومناظر فلسطين وجمال فلسطين .

«الروشة . . . هه . . . انت لا تعرف الشاطيء في حيفا» .

«فيلل الجبال . . . القرميد الاحمر ، لورأيت الفيلل في البقعة اوالقطمون» .

ويود لو يجيبه . يقول ، ولك حيفا والقطمون والقدس ضاعت ، وهذه هنا باقية . مهما كان خيالك مترفا فالواقع اجمل من الخيال . والباقي حتما احلى من الضائع .

لكنه لا يجيب يكفي هذا الرجل . والده . ان الحزن ، الحزن الدفين العميق ما زال دفينا في عينيه منذ الهجرة الاولى . منذ ان ترك منزله في القدس الجديدة . منذ ان اضطر للهجرة ، خائفا مرتعدا مذلولا .

دعه لخياله . دعه لاحلامه . لاحلام العودة يوما ما .

في قرارة نفسه ، يشعر ، يعرف ان هذا «اليوما . . . ما» لن يأتي . ما ضاع ، ضاع . المهم ان لا يضيع هو كما ضاع والده ، وكما ضاع معه عشرات الالوف الحالمون برحلة العودة في الطريق المقطوع .

كان والده ووالدته واخوته هم الخيط الرفيع الذي بقي يربطه بماضيه ، ووطنه .

خيط لا يذكره الا معهم ، اوعندما تأتيه رسالة ، اويكتب اليهم . . . رسالة .

اما بقية الوقت فهو مع الدوامة ، وفي الدوامة ببيروت ، يعيشها ، ويحبها ، ويحياها ، يوما فيوما ، ولحظة . . . فلحظة .

هوالان ، في باريس ، لا يذكر ما الذي اضطره للذهاب الى القدس في مطلع حزيران عام ١٩٦٧ .
لقد مر عليه منذ ذلك الوقت من الأحداث ، ما جعله ينسى السبب الحقيقي لزيارته .
لم يكن في اجازة . ولم يكن في عمل .
قد يكون عرساً لأحد أقربائه . أو مجيء شقيقته من الولايات المتحدة الامبركية حيث تعيش .
هو لا يذكر ، وإن كان يذكر أن اسم فلسطين قد بعث من جديد ، بقوة ، بعد انسحاب قوات الطوارئ من غزة وسيناء . واستنفار الجيوش العربية ، واغلاق الممرات المائية و .. التهديد بالحرب

في قرارة نفسه كان يهزأ من الحرب ، وفكرة الحرب . من الذي يريد أن يحارب بعد هذا العمر الطويل من الهدنة . والسلام ؟

ذهب إلى هناك ، بالسيارة من بيروت ، ليقضي اسبوعاً ويعود .
طبعاً ، طوال الطريق من بيروت إلى دمشق ، كان كل شيء يوحي بالحرب . الجنود . الدبابات . الأناشيد العسكرية . أم كلثوم و... « راجعين بقوة السلاح » التصاريح ، المؤتمرات الصحفية .
لكنه كان يعرف بأن كل هذا سينتهي فجأة ، كما بدأ ، ويموت . كعادة الأشياء بالنسبة لفلسطين .

الكلام عن أساطيل تفتح السويس ، والممرات المائية ، كلام بعيد عن التحقيق ... والواقع .

وعندما وصل إلى القدس ، واستقر في منزل والده ، وحديث الحرب في الصالون الطويل العتيق ، سألوه عن رأيه ، فأكد لهم أن لا حرب هناك ولا من يحاربون ، وأنها زوبعة ستنتهي كما انتهى غيرها .

حتى عندما تصاعدت التصاريح ، وارتفع صوت الأناشيد ، وبدأت عواصم العالم تتدخل ، أكد لنفسه وللناس ، أن لا حرب هناك ، ولا من ... يحاربون ! !

تضايق كثيراً من والده عندما صحا أكثر من مرة في الليل ليجده جالساً كالتمثال بجانب الراديو ، الابرة من اذاعة إلى اذاعة يستمع ، ويدخن ، ويستمع .

هل يصدق والده ، هذا الكلام ، وهو الذي عاصر قصة فلسطين من وعد بلفور حتى اليوم .
خمسون عاماً من الهزيمة ، لم تعلمه ؟ !
ألا زال يأمل في حرب ؟؟
ينتصر فيها العرب ؟ !
مسكين والده ، انه يحبه ، ويشفق عليه .
خمسون عاماً ، وخمسون مصيبة ، ومع ذلك يتأمل ويأمل ... ويرجو . ويبتهل ، ويحلم ببيته القديم في القدس الجديدة ، وبالعودة إليه .

إكراماً له . كان والده يقفل الراديو . وينتظره ساعة . ثم يعود ليفتحه ويسمع . وكأنه ينتظر النصر من خلال التعليقات الساخنة ، والأخبار الحامية .

وينام ، ينام والده كل يوم ، ولمدة ثلاثة أيام بجانب الراديو . لا ينهض إلا إذا ايقظته والدته مع فنجان القهوة ، ويمد يده إلى الابرة من جديد .

الناس ، كل الناس في القدس وبيت لحم والخليل ورام الله ونابلس وكل مدينة وقرية . توقفوا عن العمل . تحلقوا حول أجهزة الراديو ، أو حول بعضهم البعض في المقاهي ، ينتظرون ... الحرب .

كانوا يريدون الحرب . لأن مع الحرب ، النصر . ومع النصر ، جواب لأيام القهر والتشرد والذل ، والعودة إلى الرياحين وأشجار البرتقال والمنزل القديم .

بريق غريب في أعين الناس .
مسح الذل والحزن والقهر في ساعات .
العجائز والشيوخ ، الذين أحنى الذل واللجوء والأيام ظهورهم ، شدت قاماتهم فجأة كأنما مسها تيار من كبرياء ... وعزة .

ألم يقل لهم الراديو ، والأناشيد ، والتعليقات أن النصر على الأبواب وأن تل أبيب « مربط خيل العرب » القادمة .

الدعاءات بالنصر ارتفعت من المساجد .
الصلوات بالنصر انطلقت من الكنائس .
رائحة النصر في كل مكان ، وعلى كل شفة ولسان .
وهو ينظر ويسمع ، ولا يصدق .
هل يصدق كل هؤلاء الناس كل ما يسمعون ؟
هل فقدوا الذاكرة ؟ هل نسوا ما حدث عام ١٩٤٨ . وكيف انقلب النصر المؤكد إلى هزيمة مؤكدة . وهرب الناس بالبر والبحر ، لا يطلبون من الدنيا إلا الحياة ... والنجاة ؟

هل نسوا أو تناسوا معارك الهواء وحرب الطواحين وانتصارات ... الكذب ؟

معلق اذاعة القدس ، ألم يشاهدهم عام ١٩٤٨ ، « يهربون كالجرذان » ، فكانت النتيجة أن هرب هو كالغزال ؟ .

هم أحد اثنين ، أما ضعاف الذاكرة ، أو كبار الإيمان بما يسمعون .
مساكين ...
وتركهم لآمالهم ، وأحلامهم ، وبدأ يعد الساعات لينهي زيارته ، ويعود إلى بيروت ، حيث هموم الناس بعيدة كل البعد عن النصر أو ... الهزيمة .

كثيراً ما كان يسرح والناس يتحدثون عن الحرب ، وينتقل بخياله إلى بيروت ، يتمنى لو كان في تلك اللحظة هناك . في « الكاف دي روا » يحتضن شقراء ، رائحة عطرها تملأ أنفه ، تغرق وجهه ، يضمها بيديه ، يشدها إليه ، ويكذب عليها قليلاً . كلمات حلوة يتقنها ، وتحبها كل امرأة .

أو يجلس إلى بار ، يكتشف امرأة جديدة ، قادمة من بلاد الضباب تبحث عن الثروة . فيستبدل هو بعض ثروته ، بساعات من النسيان ، والحب .

ليل الخامس من حزيران ، تعرف إلى فتاة في القدس . أصر على دعوتها إلى سهرة في فندق « عوده » برام الله .

يريد أن يسهر ، لا يستطيع أن يحيا بدون سهر .
قبلت الفتاة . واتجه معها في سيارة استعارها من قريب له .

استغرب وهو يقطع المسافة بين القدس ورام الله ، عدم وجود أي سيارة ، سوى بعض سيارات الجيش ، كأنما الدنيا ماتت ... فجأة .

حتى الفندق كان يخيم عليه الظلام . وشيء كئيب كالموت .
جلس وحده معها ، في البار .
حتى قبلتها ، عندما سرق منها قبلة ، كانت باردة كالموت .

مع منتصف الليل ، كان يعود إلى القدس ، وفي قلبه كآبة وحزن ... وموت ! !
وعندما دخل إلى المنزل ، وجد والده ، كما توقع أن يجده ، جالساً بجانب المذياع . لا شيء جديد ، قال والده ...
بلاغات . أناشيد . و... « راجعين بقوة السلاح » .
وجلس مع والده .
للمرة الأولى منذ سنوات شعر بقرب غريب من والده . يشبه القرب الذي كان يشعر به أيام طفولته .

الصالون ، كان يغرق في الظلام .
النور الوحيد كان يبعث من الراديو .
نور شاحب يلقي بظلاله على وحه والده .
قرأ تاريخ بلاده ، في وجه والده .
الأيام مكتوبة على جبهته ، وتجاعيد وجهه ، والشيب الذي يكلل رأسه .
فجأة . أحب بلاده ، أو عاد إليه حب بلاده ، من خلال حب والده .
وفجأة ، وقف كما كان يفعل خلال طفولته ، واحتضن رأس والده بيديه ، ثم قبله في جبينه .

أبقى شفتيه على جبين والده .
كالمتعبد أبقى شفتيه . ثم أنزلهما إلى عينيه ، ولم يقبلهما . راعه أن الدمع يتساقط منهما ، بهدوء .

كان والده العجوز ، يبكي . وشعر برغبة في البكاء ، وهو الدي لا يبكي . وركع على قدميه ، وأمسك بيد والده المعروقة وقبلها .

ومد والده يده ، يتحسس شعره ويتمتم « الله يرضى عليك ... الله يرضى عليك » . واستودعه لينام .

° ° °

استيقظ في الصباح . على ضجيج في المنزل الكبير ، وصوت يهدر من الراديو .
ودخلت أمه تحمل فنجان الحليب . فهي تصر على أن تسقيه فنجان الحليب كلما عاد إلى المنزل القديم . تماماً وكأنه لم يزل في أعوامه الأولى .

سألها : ما الخبر ؟ .
نظرت إليه بحنان وهي تقول : لا شيء ... اشرب حليبك ، يقولون أن الحرب قد بدأت ! !

الحرب ؟ !
للكلمة دوي كالهدير ...
الحرب ؟ !

وجلس في فراشه ، بعد أن اختفت والدته خلف الباب الكبير .
الحرب ؟ !
هل ما قالته والدته . هو الحقيقة ؟
وقفز من الفراش ، ووحد والده كما تركه ليلتها ملتصقاً بالراديو ...
لكنه لم يكن تعباً ، ولا حزيناً ... كان في عينيه بريق لماع . بريق هو مزيج من الأمل والفرح وزهو النصر ...

ولم يكن بحاجة لأن يسأله عن سر هذا البريق . لطالما تمنى ، وصلى ، وابتهل أن تقع الحرب ، حرب الثأر ، واستعادة الوطن السليب .

وها هي قد وقعت ...
والراديو يقول : أن طائرات العدو تتساقط كالذباب ...
إن هي إلا أيام معدودات ويعود إلى منزله القديم في القدس . ويسبح في يافا . ويصطاف في جبل الكرمل في حيفا .

وجلس بجانب والده . يستمع .
أخبار هائلة . رائعة . لا تصدق .
عشرات الطائرات ، والقوى البرية تتقدم . ساعات وتدخل كل الجبهات العربية في المعركة ، وتطبق « الكماشة » على إسرائيل من جميع الجهات . وتستسلم .

ومرت ساعة .
وساعة ثانية ، وهو مسمر بجانب الراديو .
والأخبار كلها مطمئنة .

بدأ ينتشي . لولا الحياء لصفق . لطار فرحاً . أخيراً جاءت نهايتكم يا أعداء الله .
« اضرب ... اضرب ... اضرب »
يقول الراديو .

وأناشيد . وأغاني . وأجواء النصر تملأ الغرفة ، ويكاد يشعر بها تملأ العالم العربي كله .
أعوام طويلة ، طويلة ، كأنها الأبد ، انتظرها الناس هنا بحزن وحرقة وانكسار .
الأطفال كبروا وهم ينتظرون . الشباب شاخوا وهم ينتظرون . الشيوخ ماتوا وهم ينتظرون .
وانتهى الانتظار . بدأت المعركة .
الحرب !

ودوى هدير كقصف الرعد ...
وأسرع يفتح النافذة ... يستطلع الأمر ...
ودوى الهدير من جديد .
ودوى صوت والده هذه المرة يقول :
إنها مدافعنا تدك إسرائيل .
وهرولت والدته من المطبخ تسأل .
هي الوحيدة التي لم تنفعل .
هزت رأسها ، ثم عادت إلى المطبخ .
واستمر الهدير .
وكان قلبه يطير من كل طلقة مدفع .
يطير مع الطلقة ، إلى حيث تدك معاقل إسرائيل .
واستمر الهدير ... طوال فترة الصباح . وامتد إلى ما بعد الظهر . وإسرائيل ، صامتة لا ترد .
وكأن هذه المدافع تطلق على مدينة ميتة ... لا إنسان فيها ولا حياة .

تساءل ، بقلق ، عن سر هذا الصمت .
ولم يطل تساؤله .
فقد جاءه الجواب في شكل أزيز ، أعقبه انفجار قلبه من مكانه .
وأزيز جديد ، وانفجار جديد .
ثم صوت طائرة .

وقامت القيامة .

للوهلة الأولى أصابه رعب مفاجئ .

رعب هائل .

شعر بألم كبير يمزق ظهره ، وكأن سيفاً حاداً كبيراً قد اغمد هناك .

وبدأت الطائرة تلقي قنابلها .

لا شيء في الدنيا يشبه صوت قنبلة الطائرة عندما تنفجر . إنه الموت .... في صوت .

وتوالت القنابل .

وبحركة لا شعورية حاول أن يختبئ منها .

بذعر تلفت حوله . خطر له ، أول ما خطر أن يختبئ تحت مائدة الطعام . ثم ركض يقف تحت باب من أبواب المنزل الداخلية .

مرة في طفولته ، سمع أن الأبواب هي آخر شيء ينهدم من المنزل إذا وقعت عليه قنبلة . ولم يستطع الوقوف طويلاً ، شعر بوهن في قدميه . فجلس .

الكلام مات على شفتيه . جف ريقه . شعر بعطش لا يرويه ماء . خاف أن يمشي الخطوات القليلة التي تفصله عن الثلاجة . خاف أن تسقط القنبلة على رأسه وهو في طريقه إلى الثلاجة .

للمرة الأولى في حياته ، يعرف معنى الخوف . الخوف الحقيقي . الرعب . كل الكلام الذي قرأه عن الخوف ، وذكرياته عنه ، والأفلام التي شاهدها عن الحروب ، هي لا شيء ، أمام الشعور . الذي يبتلعه الآن .

إنه الشعور بعدم القدرة على الحركة ، أو التصرف ... أو حتى التفكير ، أمام الموت القادم من السماء ... ومن الأرض معاً .

وانتهت الغارة الأولى ، كما بدأت ، فجأة .

وساد صمت رهيب ، ودبت الحركة في المنزل ، وشعر بالخجل من نفسه . فقد لاحظ أن والده ، العجوز ، لم يتحرك من مكانه . لم ينتابه الذعر كما انتابه هو . أما والدته فقد بقيت

واقفة في مكانها في المطبخ .

هو الوحيد ، الذي أفقده الذعر عقله .
وحتى اليوم . وبعد أكثر من ثلاثة أعوام ، لا يدري تفسيراً لتصرفه بعد انتهاء الغارة .
فقد كان أول شيء فعله ، أنه توجه إلى المرآة الكبيرة المنتصبة في صدر المنزل ، وقرب وجهه من زجاجها ، ثم حدق بها ..

وهاله ... ما رأى .

رأى أمامه إنساناً لا يمت إليه بصلة . لا يعرفه . رأى وجهاً لغريب يراه لأول مرة . الرعب حول لون وجهه إلى لون أزرق قاتم . والهالات الكبيرة كأنها الأخاديد تحيط بعينيه . ورأى ، شعرة بيضاء في شاربه ، لم تكن هناك قبل الغارة .

حاول أن يتكلم ، فخرجت كلماته كالحشرجة . في حلقه ألم . جفاف .
خفف الماء قليلاً من الألم ، وأزال الجفاف .
سؤاله الأول لوالده كان :
ـ ألا يوجد ملاجئ في المدينة ؟ !
بهدوء أجاب والده :
ـ يوجد ، انها ليست ملاجئ بالمعنى الصحيح ، أقبية بعض المنازل حولت إلى ملاجيء .
ـ دعنا نذهب إلى هناك ، إنها أفضل من البقاء هنا على أية حال .
نظر إليه والده طويلاً ، قبل أن يقول : ـ إذهب أنت إذا شئت ، سأدلك عليها ، أما أنا فسأبقى هنا مع والدتك .
وكاد يفقد أعصابه . كاد يصرخ في والده . ماذا يريد هذا الرجل الذي يعيش الهزيع الأخير من عمره . أيريد أن ينتحر ويقتلنا معه ؟

غارة جديدة جعلته يعدل عن الصراخ .
هذه المرة ، أسرع يمسك بيد والده ، ويجلسه معه على الأرض تحت حجارة الباب .

لم يرتعب كما ارتعب في المرة الأولى . كان رعبه أقل ، وأهدأ . فيه نوع من التسليم بالأمر الواقع والاستسلام له .

هو خائف . خائف جداً . لكنه خوف مع تفكير .
لعن حظه . ولعن الظروف .
فبعد اعوام طويلة ، ظل فيها بعيدا عن القدس ، ألم يخطر بباله بعد هذه الاعوام الطويلة ، أن يزور القدس ، ان يقوم بالزيارة إلا هذه الأيام ؟

هل قطع مئات الاميال ، لكي يجد نفسه وجها لوجه امام الحرب . . . والموت ؟
ما علاقته هو بكل هذا ؟ ليدع الحرب لاصحابها ، ومحترفيها ، وهواتها ، والداعين لها .
لو بقي في بيروت ، لكان شعر بالحرب عن طريق الراديو ، والاناشيد الحماسية فقط . لكان جلس في الصالونات ، او البارات ، يناقشها ، «ويتفلسف» . اما الان ، وبالرغم منه ، فيكاد يصبح احد ضحاياها .
واغرق العرق البارد جسده كله .
وعاد الرعب يجتاحه .
وقرر ان يهرب الى اقرب «ملجأ» . حتى ولو لم يذهب والده ، ويعيش ايام الحرب هناك ، تحت الارض .

فهو لا يريد ان يموت . هو يحب الحياة . يعشقها . يعبدها . امامه آمال عراض ، واحلام كبار لم يحققها بعد .

وود لو يستطيع البكاء . يريد الدموع علها تريحه ، تخفف عنه .
عصاه الدمع . دمعه يتدفق مع العاطفة ، ويجف مع الخوف والهلع .
الاصوات لا زالت تهدر في الخارج . وهو حبيس هنا ، بين جدران اربعة كأرنب مذعور ، لا يستطيع هروبا او حراكا .

هو ضحية . ضحية حظه الملعون . وضحية الاعلام العربي والعالمي الذي هيأ له ان الحرب

بعيدة بعد السماء عن الارض . والا لكان هرب منذ امس او اول امس الى عمان ، ومنها الى اية عاصمة عربية . . . بعيدة عن الحرب .

يا رب . . .

زفر من اعماقه .

هل ينتهي كل شيء ، ويخرج حيا ؟

ام قدرله ان يموت هنا ، بعيدا عن كل الاشياء التي احبها ويحبها في حياته ؟ !

الحياة والموت في هذه اللحظات لا يفصل بينهما سوى خيط رفيع اسمه القدر . ليس امامه الا ان يجلس ، يداري ذعره ، وينتظر .

وانتظر . . .

ومرت الساعات . . .

وهبط الظلام . . .

وللخوف طعم في الظلام . يختلف عنه في النهار .

انه ارهب ، واعمق .

وازدادت الغارات ، والمدافع عنفاً في الليل . لا يكاد صوت الطائرات يختفي حتى يعود . ولا يكاد صوت القنبلة يتلاشى ، حتى يرتفع من جديد .

وخطر له ان يلجأ الى الخمرة ، علها تعيد اليه بعض شجاعته الهاربة .

وملأ كأسه . ووضع الزجاجة امامه . وبدأ يشرب . للخمرة مذاق غريب هذه الليلة . مذاق قريب من المرارة .

وبعد ساعة كاملة من الزمن او اكثر ، كان كأسه لم يزل ملآنا ، وهو الذي اعتاد ان يشرب زجاجة كاملة كل ليلة . لكنه اكتشف بعد مرور هذه الساعة انه قد اعتاد على صوت القنابل ، وان الاعياء والتعب والخوف قد ارهقته وهدته . فجلس كالمخدر . لم يهتم بشيء . حتى الموت لوجاء ، ما عاد يخيفه اويهمه .

طاقته على الخوف . . . قد استنفدت .

لقد استنفد كل ما لديه من الخوف في الساعات الاولى ، اما الآن فهو مذهول ، مشلول ، هادىء . . . ينتظر !

وتوغل الليل . وفوجىء بالنعاس يدب في جفنيه . اي نعاس هذا . هل يستطيع الانسان ، ان ينام على صوت القنابل ورائحة الحرب ؟
نعم يستطيع .
سلطان النوم اذا رافقه التعب ، يصير اقوى واجبر من اي سلطان .

وجاءته امه «ببطانية» وضعتها فوقه ، فجلس لا بالنائم ولا بالصاحي ، حتى بدأت الخيوط الاولى من الفجر تتسلل من زوايا النوافذ المدهونة باللون الازرق ، او المغطاة بالكرتون خوفا من تسلل النور الى الخارج .

سبق الفجر ، هدوء غريب . توقف كل شيء . واستطاع ان يسرق ساعتين من النوم المتعب . واستيقظ على صوت الراديو .
راديو العرب . . . يقول ان النصر قد اقترب .
وراديو اسرائيل . . . يبشر بالهزيمة .
وهو حبيس المنزل لا يعرف الحقيقة .
وعاد القصف حوالي العاشرة صباحا ، واستمر طوال ساعات النهار . لكنه اعتاده الان ، كما يعتاد الانسان كل شيء . لم يعد خائفا . اصبح الان ينتظر النهاية .
شيء غريب بدأ يذيعه «راديو اسرائيل» مع المساء . انه يقول ، ويصر ، كل خمس دقائق ، على ان «جيش الدفاع الاسرائيلي» يتقدم نحو المدينة ، وانه سيحتل القدس ، ويدعو الاهالي لرفع الاعلام البيضاء وعدم المقاومة .
كذاب . . . راديو اسرائيل .
اذاعات العرب تقول انه كذاب . ووالده يقول انه كذاب . واحساسه يقول انه كذاب . فمن المستحيل ان يتم الاحتلال بمثل هذه السرعة ، وهذه السهولة .
لا بد انها نوع من حرب الاعصاب . لكن راديو اسرائيل مصر على اذاعة بلاغه . ويحذر بشدة

من اية مقاومة . ويعلن ان الاحتلال سيتم بين ساعة واخرى .
صحيح ان صوت المدفعية القاذفة من القدس ، قد هدأ وتوقف تقريبا .
وصحيح ان الغارات تشتد .
لكن كل هذا لا يعني شيئا .
ان الاناشيد تملأ الاذاعات العربية ، وكل البلاغات العسكرية بلا استثناء تؤكد قرب انتصار العرب .
وبين النصروالهزيمة ، والبلاغ المهدد ، واناشيد . . . حاول ان ينام .

في باريس . الليلة ، وبعد هذه الاعوام لا يستطيع ان ينسى تلك الليلة الاخيرة .
بعد منتصف الليل استيقظ على صوت يصرخ ، يهيب بالناس في القدس ان يقاوموا ، ان «يقطعوا» المحتلين باسنانهم !
واستيقظت حواسه . خبطت ضربات قلبه كالمطرقة .
اذن هناك احتلال ؟
هناك محتل !
هناك هزيمة !
كل الكلام الذي استمع اليه من الاذاعة في اليومين الاخيرين هو كذب في كذب .
نهض ، ومشى الى حيث يجلس والده بجانب الراديو .
كان الصوت الاجش لا يزال يستحث الناس على مقاومة العدو . . . باسنانهم .
للحظات اعتقد ان والده قد مات . اصابته سكتة قلبية . كان يجلس هناك مشمعا ، متحجر العينين ، جامدا ، لا يتحرك .
انقضت الصدمة على رأسه كالصاعقة .
تلاشى امل الاعوام الطويلة . امل النصر ، والعودة ، والبيت القديم ، واسترداد الكرامة والثأر .
كل هذا انتهى في ساعات .
مرة اخرى ، اشفق على هذا الشيخ . وعلى الآلاف من امثاله . عاشوا على امل كبير ، حلموا به ،

صلوا له ، ابتهلوا . ولكنه مات قبل ان يولد .
لم يبق الا الانتظار. الانتظار الطويل . . . القاتل .
انتظار ماذا ؟ لا احد يعرف .
انتظار المجهول . المخيف . القاتم .
وكالغريق لجأ والده الى الراديو من جديد .
كلام غريب . ومتناقض .

بعض الجبهات ما زال يقاتل . وبعضها صامد . وبعضها ما زال يكذب . . . ويكذب .
. . . والانتظار الطويل . . . القاتل .
الدقيقة بساعة ، والساعة بيوم . واليوم . . . بدهر كامل . . .
لا شيء تفعله ، الا ان تستمع الى صوت القتال . وتنتظر .
مرت في رأسه خيالات كثيرة . كتب قرأها عن الحرب . افلام شاهدها . قصص سمعها .
مذابح رهيبة ارتكبتها اسرائيل في غزة عندما احتلتها . هل تتكرر القصة . هل تذبحهم اسرائيل عندما تحتل القدس ؟
وتحسس عنقه بيده .
واعترته قشعريرة . . .
عرق بارد تصبب فأغرق جسده كله . نوع جديد من الخوف .
الخوف هذه المرة ليس من قنبلة . وانما من الذبح .
رفع رأسه الى اعلى كأنما يستلهم الشجاعة من السماء . فصدمه سقف المنزل العالي ، وشعر ان السماء لم تعد في مكانها .
بعيدة هي السماء . . .
وقريب هو الموت .

وازداد بعد السماء ، واقتراب الموت . وازداد تصبب العرق البارد يغرق جسده . وراديو اسرائيل يقول :

«دخلت الان قواتنا الى مدينة القدس القديمة . الى اورشليم .
بلاغ الى . . . الاهالي» .

كان صوت المذيع الإسرائيلي رتيباً ، بارداً ، حاداً ... كالموت .
طلباته ، كانت محددة وواضحة : الاستسلام ، عدم المقاومة ... رفع الأعلام البيضاء .

وكان يكرر البلاغ مرة ، كل دقائق . في بلاغه ، كان ينعي للأمة العربية أحلامها ، ومجدها ...
بكلمات قليلة وضع الحد الفاصل بين النصر والهزيمة .
إن جيش الدفاع الإسرائيلي ، يدق أبواب القدس .

حلم إسرائيل ... تحقق .
حلم مئات الأعوام ، تحقق في مئات الدقائق .

غداً يرتفع علم إسرائيل الأبيض تتوسطه نجمة داود الزرقاء على أسوار المدينة القديمة .
شيء لا يصدق .
ولكنه الحقيقة .

إنهم هنا على بعد مئات الأمتار من منزله . أي على بعد مئات الأمتار من كنيسة القيامة والمسجد الأقصى .

في حياته لم يحب القدس ، كما أحبها في هذه اللحظات .
تماماً ، كالذي لا يبكي على حبيب ، أو يعرف كم يحب هذا الحبيب إلا ساعة فقدانه .
عزت عليه القدس .

ستذل القدس بعد الاحتلال .

ستدنس !

ولم يتحرك وهو يستمع من بعيد إلى هدير الدبابات .
كان ينتظر هذا الهدير .

ولم يتحرك وهو يستمع إلى صوت اطلاق النار ينهمر كالمطر .
قال في نفسه : بعض المتحمسين المجانين ، يقاومون ، ألم يسمعوا بآذانهم الراديو يعلن نزع الجيوش العربية ، وطائراتها ، ودباباتها ، مجتمعة في ساعات ؟ !

ومع ذلك ، بقي المجانين يقاومون .
انهم البقية الباقية من كرامة العرب المهدورة .
انهم ينتحرون ...
مقاومتهم ... انتحار .
وعاد العرق البارد يتصبب على جسده .
ماذا بعد الاحتلال ؟ !

هل تحدث مذبحة كما حدث في غزة عام ١٩٥٦ ؟ .
وهل قدر لحياته ، بكل ما تحمله هذه الحياة من طموح وامال عراض ، أن تنتهي على رأس حربة جندي يهودي ... منتصر .

انتظار الموت ... أصعب من الموت .
هل يهرب ؟ !
وإلى أين ...

إن جنود إسرائيل يملأون المدينة ، وما يدريه ، فلعلهم يملأون البلاد كلها .
إذا سقطت القدس . سقط كل شيء . واستسلمت البلاد .
أين الجيش ؟ أين المدفعية ؟ أين ... ؟ !

وجاءه الجواب الحاسم ، القاطع ... عناما تلاشى صوت اطلاق الرصاص بعد ساعات ...
واستمع إلى صوت غريب يصله من مكبر صوت على سيارة جوالة يقول :

إن جيش الدفاع الإسرائيلي قد احتل القدس ، ويدعو الأهالي بسرعة والحاح إلى رفع الأعلام البيضاء . وأن يلزموا منازلهم .

وكرر الرجل نداءه بطريقة تبعث على الجنون .
وللمرة الأولى منذ اشتعال الحرب تقدم ليفتح باب المنزل .

ورأى على سطح الجيران علماً أبيض كبيراً يرفرف .
فتقدم خطوة واحدة خارج المنزل ، وإذا بالأعلام البيضاء تملأ أسطحة المنازل ونوافذها . إذا بالمدينة كلها تعلن الاستسلام والهزيمة .

وفرت الدمعة من عينيه ... اجتاحه شعور بالذل والقهر ... والهزيمة .
هذه أمة العرب ، تعلن أنها انكسرت . وشعر بالدموع تتساقط على وجهه . بهدوء كانت تغرق وجهه .

وتراجع إلى المنزل ينادي أمه ، يطلب منها « شرشفاً » أبيض .
وصعد الدرجات إلى سطح المنزل ببطء .
ورفع العلم الأبيض ، ثم نزل إلى المنزل ، وفي أعماقه حزن عميق ... عميق .

° ° °

حدث كل شيء بعد ذلك بسرعة .
تم الاحتلال الكامل بسرعة . ملأ جنود اسرائيل المدينة .

استسلم الناس . في ذهول استسلم الناس . قضوا الأيام الأولى بعد رفع منع التجول وهم يدفنون موتاهم . يرفعون الجثث الكثيرة النتنة الرائحة من الشوارع ويدفنونها .

ويقبعون في المنازل مع غياب الشمس على ضوء الشموع ينتظرون لا شيء ، يتوقعون لا شيء ، فقط ينتظرون شيئاً مجهولاً لا يعرفونه .

هدت الهزيمة قدرتهم حتى على التفكير .
أما هو فقبع ينتظر طريقة تمكنه من عبور النهر ، ومنه إلى عمان ومن عمان إلى بيروت أو إلى أية عاصمة عربية أخرى .

في تلك الفترة عاش الاحتلال ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من ذل وقهر .
حتى الآن ، وهو على بعد آلاف الأميال في باريس ، يتصبب العرق البارد ليغرق جسده كلما فكر في تلك الفترة .

جيش منتصر يمشي في شوارع المدينة منتشياً كأنه يمشي على صدره .
وجيش منهزم مختبئ في المنازل بعد أن هرب أفراده عراة حفاة يطلبون النجاة .
لا يستطيع التحرك من مدينة إلى مدينة ، أو من قرية إلى قرية إلا بإذن خاص من الحاكم العسكري مطبوع باللغة العبرية ، لغة الحاكم المنتصر .

الشعور بأنك قد تسجن ، أو تذبح ، أو تختفي في أية لحظة .
الشعور بأنك لا تعرف ماذا تخبئه لك الدقيقة ... القادمة . الشعور بأنك لا تعرف أي شيء ... سوى الانتظار .

هو لن ينسى تلك الفترة . يكره ذكراها ، لكنه ، مهما فعل لا يستطيع أن ينساها .
وهل ينسى ، عندما سمحت لهم اسرائيل بزيارة القدس الجديدة ، وذهب مع الذاهبين فزار منزلهم القديم ، حيث ولد وترعرع ونشأ ، فشعر وهو يتلمس حجارته بأنه يعانق حبيباً قديماً طال غيابه . وزار مدرسته وجلس إلى مقاعد الدراسة التي عاشت معه طفولته ومطلع شبابه .

وزار ... زار ... زار ...
وتذكر .
وحن . وتلوع . ثم عاد لينام مع مغيب الشمس .

وبعد انقضاء أكثر من شهر ، ذاق فيه كأس الاحتلال حتى الثمالة ... أعلنت اسرائيل السماح لأولئك الذين يودون العودة إلى عمان ... بعبور النهر .

ومع الفجر ... ودع والدته ووالده ، وركب السيارة متوجهاً إلى أريحا .
هناك وقف في صف طويل مع الهاربين من اسرائيل .
وقف ، وحرارة الشمس تلفح وجهه ينتظر الاذن بالعبور .

وبعد ساعات طويلة ، وصله الدور ، فوقع على ورقة بالعبرية ، لم يفهم شيئاً مما تحتويه ، وحمل حقيبة ثيابه ومشى .

وشعر بأن الأمتار القليلة التي تفصله عن الضفة الأخرى تبلغ آلاف الأميال .
وغرقت قدماه في مياه الجسر الذي دكته طائرات اسرائيل .
ظهره كان محنياً .
ذل الأيام التي قضاها تحت نير الاحتلال أحنى ظهره .

وأشفق على والده ووالدته ، اللذين تركهما لرحمة المحتل ... الجديد .
ونظر حوله ، وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً لا علاقة له به .
هذه أم تحمل طفلها ... وتبكي .
وهذا عجوز لا يقوى على عبور النهر .

قوافل من الناس الخائفين المرتعدين تعلقت آمالها بهذه الأمتار القليلة التي تفصلها عن الضفة الأخرى .

ووصل أخيراً إلى الضفة الأخرى ، بعد أن شعر بأنه يكاد لن يصل ... أبداً .
وارتمى في أول سيارة أجرة يلهث يقول للسائق في صوت مبحوح : اسرع ... فندق الاردن ... بعمان .

ولم يتحرك السائق ، بل قال : خمسة دنانير ...
ـ عشرة ... خذ ما تشاء ... فقط تحرك بسرعة .

وتحرك السائق وهو ينظر إليه باهتمام .
هذا أول مستفيد من الهزيمة ، فالاجرة عادة هي ديناران على الأكثر .
ولكنه لن يكون آخر المستفيدين .

آلاف الناس سيجعلون منها تجارة رابحة ، تماماً كما حدث عام ١٩٤٨ .

وفي غرفته بالفندق ... أسرع يخلع ثيابه ، ثم ارتمى على السرير ... لينام .
دائماً عندما يتعرض لمصيبة يغرقها ... بالنوم .

وكانت المرة الأولى التي يعرف فيها طعم النوم منذ اكثر من شهر .
ولم يستيقظ إلا بعد ساعات ...

كان الظلام يلف الغرفة . لا بد وانه قد نام أكثر من عشر ساعات . كانت ساعته تشير إلى العاشرة ليلاً وهو قد وصل إلى الفندق عند الظهر .

وأمسك بسماعة التليفون يطلب بيروت .
كان يريد ابلاغ من يحب في بيروت انه لم يمت في القدس . لم تقتله المعركة . وان كانت قد تركته بقية انسان واشلاء مخلوق .
ثم ارتدى ثيابه ونزل إلى البار . وبدأ يسكر .

ومن يومها وهو يسكر .
سنوات طويلة مرت وهو يسكر .
كل ليلة منذ الليلة الأولى في عمان يغرق نفسه بالسكر حتى يكاد يصاب بالعمى ... وينام .

وقرأ ، وسمع ، عن العمل الفدائي .
وتبرع ... للعمل الفدائي .
لكنه لم يتحمس . لم يشعر بشيء . لم يهتز .

وكلما شعر وتحمس واهتز ... سكر .
وحتى ليلة أمس ظل يسكر حتى لم يعد يعي اسم فندقه .

لكن الوضع تغير اليوم .
خطف الطائرات كان أكبر من سكره .
هزه الخبر ، كما هز العالم .

واليوم هزه نبأ نسف الطائرات كما هز العالم .
والركاب ؟ !
عاد بذهنه إلى الركاب ، وأسرع يقرأ الجريدة .

بعضهم ، الأطفال والنساء نقلوا إلى فندق الأردن ، تمهيداً لنقلهم إلى بلادهم .
أما البقية فصيرهم مجهول .

ورمى بالجريدة جانباً ، ثم نهض ليرتدي ثيابه .
لم يكن بالفعل يريد أن يرتدي ثيابه ، فهو لا يعرف أين يذهب ، وإلى أين يتجه .

للمرة الأولى منذ قدومه إلى باريس يشعر بأنه صائع .
ضائع حتى في تفكيره .

هل يوافق ، مع نفسه ، على نسف الطائرات ، أم لا يوافق ؟
ومصير الركاب ؟

إن الأثر الذي تركه خطف الطائرات ، سيختفي مع الضجة التي سيثيرها اختفاء الركاب .
وقضى وقتاً طويلاً وهو يرتدي ثيابه .

أطول بكثير من الوقت الذي يقضيه عادة .
ربع ساعة كامل قضاه واقفاً أمام المرآة وهو يحاول أن يضع ربطة العنق في مكانها .

أربع مرات غير لون .. الجوارب .

لكنه وجد نفسه أخيراً وقد ارتدى ثيابه كلها ، وكانت الساعة لم تزل قبل العاشرة بدقائق .

بتثاقل نزل إلى الشارع . ومشى فيه على غير هدى .

حتى الجلوس في أي مقهى من مقاهي « الشانزليزيه » أصبح الآن يكرهه بعد أن كان طوال الأسابيع الماضية هوايته الأولى ... والمفضلة .

ووقف أمام بائعة صحف في الشارع يحاول ابتياع صحيفة غير « الهيرالد تريبيون » التي يقرأها كل يوم .

وفوجئ بوجود صحف عربية . واكتشف من حديثه مع البائعة أن هذه الصحف تصل كل يوم ، وانه لم يكن يعرف عنها ، لأنه لم يتوقف من قبل أمام بائعة صحف !

واشتراها كلها ...

وانتهى رفضه للجلوس في مقهى . بل أسرع إلى أول مقهى يجده . ليلتهم الصحف بعينيه .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يقرأ فيها الصحف العربية منذ زمن طويل . أو على الأصح كانت هذه هي المرة الأولى التي يقرأ فيها صحيفة عربية منذ رحلته بالقطار إلى لوزان .

كل الصحف التي قرأها كانت تتحدث عن قصة خطف الطائرات ... وابعادها .

واتفقت الصحف كلها ، المعارضة منها للخطوة ، والمؤيدة ، على أن من حق الثورة الفلسطينية أن تتخذ الخطوات التي تراها مناسبة لاستعادة أرضها وحقها بما في ذلك خطف الطائرات ، وان كانت كلها تطالب بأن لا يمس الركاب بأذى ، وتؤيد بالتالي استبدال الرهائن بالفدائيين المعتقلين في سجون أوروبا .

وانتقل ليقرأ الأخبار الصغيرة ، المحلية ، التي كاد ينساها .

واكتشف بأن كل شيء ما يزال كما تركه في العالم العربي ، وخصوصاً في لبنان .

وكأن هذه الأمة فقدت القدرة على التغير .

وأعادته الصحف العربية إلى الجو الذي هرب منه ، فلم يهرب هذه المرة ، بل اعتبر العودة ، مؤقتة ، لفترة محددة من الزمن هي فترة ... قراءة الصحف .

وتناول طعام الغذاء في المقهى ، بعد أن قرأ كل سطر في الصحف ، حتى الاعلانات . ثم شاهد فيلماً سينمائياً ، وعاد إلى الفندق لينام .

* * *

اعترت حياته في باريس فترة هدوء . استراحة اكتفى فيها بمتابعة ذيول حوادث خطف الطائرات .

المفاوضات لاطلاق سراح الرهائن !
الحملة العالمية التي بدأت تظهر في الصحف على العمل الفدائي !
أخبار مبهمة عن اختلاف بين الفدائيين والحكومة في عمان ! !

كانت هذه الأخبار وغيرها تملأ الصحف وتذاع باستمرار من الاذاعة والتلفزيون .
ولا حديث للناس القلائل الذين قابلهم إلا حديث عمان ، وما يجري في عمان .
مرة واحدة قابل جورجينا . بعد أن تهرب من لقائها طويلاً ، وكانت النتيجة أن دار الحديث طوال السهرة عن عمان . والطائرات ، والفدائيين !

حتى سكره أصبح هادئاً ، كالهدوء الذي سيطر على حياته .
وموظفو الاستقبال في الفندق استغربوا عودته المبكرة لعدة أيام متوالية . لوحده بدون رفيقه .

الهدوء الذي أصابه ، يشبه الهدوء الذي انتابه في عمان بعد عبوره النهر .
انه أشبه بالذهول . بالشلل .
يكاد الإنسان لا يتحرك إلا إذا أصابته شظية قنبلة .

في عمان كانت الأحداث التي عاشها أكبر منه ، أكبر من أن تحتملها أعصابه .
وفي باريس ، كانت الأحداث التي يقرأ عنها أكبر منه ، وأكبر من أن تتحملها أعصابه .

في عمان ، كان الناس يستقبلونه عندما يعرفون انه كان ... « هناك » في الضفة المحتلة ، يستقبلونه بسؤال واحد : ماذا حدث ؟

وكان جوابه بسيطاً ، مختصراً : لا أعرف ! !
واليوم ، عندما يسأله صديق أجنبي : ماذا سيحدث ؟ ! ! فجوابه أيضاً بسيط مختصر : لا أعرف .

أحياناً يشعر بالضيق لأن الناس يصرون على طرح الأسئلة . يكاد أحياناً ينكر انه من هناك ، من البلد الذي يشغل الناس بأخباره .

هو لا يعرف ، ولا يريد أن يعرف .
يقرأ الصحف ، كغيره . لأن الخبر مثير وكبير ، لدرجة لا يستطيع معها أن يهمل التفكير فيه .
أما ، ماذا سيحدث ؟ ! !
فلا هو ولا أي انسان في العالم العربي يستطيع الإجابة على هذا السؤال ... ويكاد يقول لا أحد في العالم كله يعرف الجواب .

ظن الناس لفترة أن الجواب يكمن في الثورة التي اشتعلت واستقطبت اهتمام العالم كله .
ولكنه يقرأ اليوم أن الثورة لا تتفق على كثير من القضايا . آخرها وليس أولها قضية خطف الطائرات .

الفريق الخاطف يدافع عن وجهة نظره ، بأنها جهة نظر حق ، وأن العالم لا يفهم إلا لغة واحدة هي لغة القوة . والدليل هو أن العالم لم يبدأ بمفاوضة الفدائيين على مصير المعتقلين في أوروبا إلا عندما خطفت الطائرات وأخذ ركابها كرهائن .

والفريق الآخر يرفض هذا المنطق ويعتبره سلاحاً ذا حدين ، ويعتبر الحد الآخر للسلاح هو استقطاب العالم ضدنا .

حتى بعض الدول العربية ، التي كانت تقف من العمل الفدائي موقف المدافع والنصير أصبحت تتهمه علناً بالتطرف ، وباعطاء القضية الفلسطينية أبعاداً ليست في مصلحتها .

وبعد أن كانت الثورة محط آمال العرب جميعاً ، بدأت تصبح محط جدلهم .
وبعد أن كان انتقادها ضرباً من الكفر ، ها هو اليوم ، يكاد يصبح ... ضرورة ! !

وبالغت الصحف الأجنبية في الكتابة عن الرهائن . وصورت الأطفال في فندق الأردن بعمان ، أو في فنادق قبرص ، وكأنهم خارجون من جهنم .

وتعليقات الصحف والاذاعات انصبت على التساؤل عن مصير بقية الركاب .
واستنفرت دول العالم كلها لتتدخل ، وتسأل ، وتطلب ، وتفاوض .
وبعدهذا كله ، يأتي من يسأله : ماذا سيحدث ؟ .

منذ أن فقد ايمانه بكل شيء عام ١٩٦٧ ، لم يعد يهمه ماذا سيحدث في العالم العربي . أصبح يهمه فقط ماذا سيحدث له ، هو شخصياً .

اهتمامه بالقضايا العامة . وقضية فلسطين خاصة ، أصبح محصوراً بعلاقة هذه القضايا بأعماله ، وأمواله ، وأرباحه .

إذا اشتعلت حرب جديدة ، ماذا سيحدث لأعماله وكيف يتصرف ؟ .
وإذا لم تشتعل ، ماذا سيحدث ؟ .

صحيح انه ، هو والمئات ، قد هرب جميع ما يملك من أموال ، وأودعها مطمئنة في بنوك سويسرا ، ولكن هذا لا يكفي ، فلديه من الأعمال المعلقة ما يجعله يتساءل أحياناً : عما سيحدث؟

ما سوى ذلك ، فلتذهب القضية ، وكل شيء إلى الجحيم .
أحياناً ، أحياناً قليلة يتحمس ، يناقش ، ينفعل ، كما حدث مع اليهودي راؤول ، أو مع جورجينا ، أو صبيحة خطف الطائرات . ولكنه يعود ليهدأ ، ويذهل ، ويشل ، كما حدث في عمان ، وكما يحدث اليوم .

لذلك ، لم يتأثر كثيراً عندما قرأ بعد أيام أن معركة ضارية قد بدأت بين قوات الجيش والفدائيين في عمان . وأن هناك أخباراً تقول بأن عدد القتلى قد وصل إلى المئات .

طغت أخبار القتال في الأردن على كل خبر آخر ... حتى أخبار ركاب الطائرات المخطوفة أصبحت تنشر كجزء من أخبار المعركة الدائرة في عمان .

واتفقت جميع الأخبار على أن ما يجري في عمان هو مذبحة ... مجزرة .
وكان هو ، يقرأ هذه الأخبار ، ويكاد لا يصدقها ! !

يريد أن يهملها كما أهمل غيرها ، فلا يستطيع .

انها أكبر من اهماله . وأكبر من نسيانه .
انها تحرك « الاسان » فيه . الانسان المجرد . فهو لا يستطيع أن لا يتأثر وهو يقرأ ويستمع ويشاهد على التلفزيون صوراً لمجزرة حقيقية . حتى المواطن « الباريسي » العادي ، لم يستطع أن يقف متفرجاً ، بلا انفعال ، على ما يحدث .

ساهد الناس ، يقفون بذهول يطالعون الصحف ، يهزون رؤوسهم ولا يصدقون .
مراسل التلفزيون الفرنسي ، العائد من عمان ، كان يبكي وهو يصف المجازر .
قال : منذ عام زرت عمان ، لأحدها بلد الالفة والمحبة . وعدت إليها قبل أيام لأجدها تغرق بالدماء .

تحدث عن القنابل والدموع ... والدم . عن الجثث الملقاة في الشوارع لا تجد من يدفنها .
عن الناس الهاربين من الموت ... إلى الموت .
عن الرعب والذعر والخوف . عن المدينة التي تعيش مع الموت . تنام وتصحو مع الموت .

الصور التي نقلها تركت المدينة الكبيرة كلها في حالة ذهول .
وكان يقرأ هذه الأخبار . ويستمع إليها ، ويشاهدها ، ويتألم . ولكن من بعيد . يحزن ... ولكن كمتفرج . يكاد يبكي ، ولكن دون ارتباط شخصي . كأن هؤلاء الناس الذين يقتلون ويذبحون ليسوا أهله ، وليسوا من وطنه . كأنهم تماماً كأهل فيتنام أو لاوس ... أو روديسيا . كأن صور المشوهين المحترقين بنيران المدافع لا ينتمون إليه . يبكي عليهم « كانسان » ، ولا يبكي عليهم كعربي أولاً ... وكفلسطيني ثانياً .

صحيح أنه فقد خلال أيام المعركة القدرة على الانطلاق والضحك والسهر حتى الفجر . ولكنه مع ذلك كان مستمراً في حياته اليومية . لم يفكر للحظة من اللحظات أن يترك باريس . أن يعود إلى العالم العربي . أن يتحرك . يتصرف . يرسل برقية يتبرع .

من بعيد كان يراقب ... ويقرأ ويستمع .

والمجزرة تشتد هولاً يوماً بعد يوم .
والرعب يسيطر ويتكاثر ... ساعة بعد ساعة .

وملوك العرب رؤساء العرب يجتمعون في القاهرة في محاولة لوقف المذبحة .
يشاهد صورهم يتداولون ، يجتمعون ، يناقشون .
على وجوههم كان يقرأ هول المأساة .

وبلا نتيجة .

المذبحة تستمر . الرعب يستمر . عدد الضحايا ارتفع من المئات إلى الألوف .
خلال نومه أصبح يشاهد هؤلاء « الناس » يذبحون .
يستيقظ مذعوراً . أكثر من مرة ، والعرق يتصبب منه . ويعود لينام . ويحلم من جديد .
ويرتعد من جديد ... ثم ينام من جديد .

ويستيقظ في الصباح ، متعباً ، مهدوداً .
وينزل إلى الشارع يجر قدميه جراً . ينظر إلى الناس فلا يراهم ، بل يرى من خلالهم .

يقرأ عناوين الصحف ... فلا يفهمها . في رأسه شيء أشبه بالضباب يمنعه من أن يفكر .
هذا الذي يحدث ليس حقيقة . انه فيلم سينمائي . سينتهي . وسينساه . لا ... ليس حقيقة
هذا الذي يحدث . انه من صنع خيال كاتب مريض .

حتى الخمرة لم تعد تؤثر فيه . كانت تزيد الضباب المسيطر على تفكيره كثافة .
يجلس لساعات يشرب الكأس تلو الأخرى . أمامه صورة واضحة لمذبحة ، تقف الصورة
أمامه كاعلان . لا يتحرك . لا يضيء ويطفأ « كالنيون » . صورة واضحة لا تتحرك . صورة

كبيرة مبللة بالدم . مغطاة بالدخان ، ممزقة بالرصاص .

ينظر إليها ، لا يستطيع أن يحيد بنظره عنها . لا يتحرك . والصورة لا تتحرك . ولا شيء في
داخله يتحرك .

فقد القدرة حتى على الألم . فالصورة تهز الجماد ، ولا تهزه .
غريب هذا الشعور المسيطر عليه . غريب هذا الذهول الطاغي على كل حواسه .
كم مرة حاول أن يزيل هذا الذهول وذلك الضياع .

كم مرة حاول ان يمزق القناع الذي يشد على وجهه وقلبه فيكاد يخنقه ... ولكن عبثاً .
احساسه تبلد . مات .
القناع الذي على وجهه ينطق بهذا الموت .
حتى في المرات القليلة التي حاول فيها بعض أصدقائه أن يناقشوه عن أحداث عمان . كان يتحدث معهم بهدوء وبرود ، وكأنه يتحدث عن موضوع بسيط سطحي ، بعيد عن مشاعره كل البعد .
الصوت الذي كان ينطلق من شفتيه يخيل إليه أحياناً انه لم يكن صوته .
الحديث الخارج من شفتيه ... لم يكن حديثه .

انسان غريب هذا الذي يتحدث . انسان غريب يسكن فيه ، ولا علاقة له به .
كمال الذي يعرفه ..

كمال الذي ولد في القدس . وعاش في بيروت . وتاه في الصحراء . وهرب إلى باريس ، ليس هو كمال الذي يجلس الآن في مقهى من مقاهي الرصيف وعلى وجهه قناع من رصاص ، لا يفتح فمه الا ليقلب كأساً جديدة .

كمال الذي خاف وارتعد ، وبكى في حرب حزيران . ليس هو كمال الذي لم يعد يعرف الخوف ولا البكاء ... ولا حتى الشعور .

كمال الذي هرب من جورجينا لأن أمها يهودية . والذي تعارك مع راؤول لأنه ذهب ليعيش في اسرائيل ، والذي « اصطاد » الناس ليناقشهم في قضية خطف الطائرات . والذي ، والذي ... والذي . ليس هو كمال الذي يتفرج على مذبحة أهله كمن يتفرج على مباراة كرة قدم .

كمال الذي بكى كالطفل على حجارة منزله القديم في القدس ، ومرغ وجهه بتراب حديقة المنزل الصغيرة . ليس هو كمال الذي يتفرج اليوم على منازل بأكملها تهدم على رؤوس

ساكنيها . وكلهم من أهله ، فيشيح بوجهه عن شاشة التلفزيون كي لا يكمل مشاهدة ... الصورة .

كمال الهارب من الصحراء . ومن ذكرياته ... هرب بعيداً حتى أصبح لا يستطيع العودة ، لو شاء العودة ! !

أين كمال الذي نفر الدمع من عينيه وهو يرفع العلم الأبيض ، علم الهزيمة على منزل والده ؟ . اليوم لا ينفر الدمع من عينيه أمام صورة الطفل المشوه المذبوح التي شاهدها أمس . هل مات كمال ؟ ! !

سأل نفسه وهو يهيم على وجهه في أزقة باريس الضيقة ذات ليلة .
وأجاب : نعم ... مات كمال ! !
حزن على كمال . أشفق على كمال ، وهو يصل إلى هذه النتيجة .

لم يبك على كمال .
منذ زمن بعيد ، توقف عن البكاء .
دمعه ، جف مع فلسطين .
بكى آخر دمعة في القدس ، وتوقف .
لم يبك بعدها ، فلا شيء في نظره يستأهل البكاء .

ولم يبكي . وعلى من . ولمن ؟
مرة واحدة . واحدة فقط ، كاد يبكي . شعر أنه بحاجة إلى البكاء . وذلك عندما قرأ نبأ من عمان ، عن عملية القتل الجماعي التي حدثت في أحد المستشفيات ، وتم القتل عن طريق قتل المرضى « بالبلطات » ! !

تصور الحارة في مخيلته ، و ... كاد يبكي .
لكنه لم يبك . أغرق دمعه في سهرة بملهى كبير .
وكان يتابع أخبار المحاولات لانهاء المذبحة ، ببعض الاهتمام ، على الأقل لتريحه هو شخصياً

من عناء الصورة الكبيرة المبللة بالدمع والمحترقة بالدخان ، والتي تمثل أمامه كلما جلس لوحده .

ولم يشعر بفرح كبير ، بل شعر بنوع من الراحة . الراحة التي تعقب التعب الكبير ، وهو يقرأ أن « الصلحة » بين الفريقين المتقاتلين قد تمت أخيراً في القاهرة .

ونام ليلتها على صورة القبلة بين الفريق الذابح والفريق المذبوح .
ولم يعرف ليلتها ، لماذا ابتسم للمرة الأولى منذ أيام ! !

• • •

وكما توقع تماماً ، فقد أقنع نفسه أن أحداث الأيام الماضية لم تكن أكثر من فيلم سينمائي ، حضره مرغماً وتركه متأثراً .

وعاد إلى استئناف حياته السابقة .
ليل . وخمر . ونساء .
حتى خبر الافراج عن رهائن الطائرات ، مر به مروراً عابراً ، ولم يقرأ تفاصيله . فهو جزء من الفيلم الذي انتهى .

وبعد يومين من صورة « القبلة » بين الذابح والمذبوح ، أصرت صديقة له جديدة ، على مشاهدة استعراض ملهى « الليدو » . وحاول عبثاً أن يقنعها بالذهاب إلى أي مكان آخر ، فقد شاهد الاستعراض في أول أسبوع له في باريس . لكنها أصرت ، كان جمالها الباهر من النوع الذي يسمح لها بالاصرار ، ويضطره إلى ... القبول .
وجلس في الصالة الكبيرة يتعذب ، ويكاد يختنق .

ينظر إلى ساعته كل دقيقة ، فيزداد اختناقه عندما يرى العقارب لا تتحرك ، وعندما يفكر ان أمامه أكثر من ساعتين في هذا العذاب . وأدار ظهره للعرض ، وبدأ يتسلي بمراقبة الناس .

خليط عجيب مس السياح من معظم أنحاء العالم . أكثريتهم من « الأميركان » الذين جاءوا

يودعون الدنيا بالقاء نظرة أخيرة على باريس ... وليدو باريس .

يجلسون كالأصنام يبحلقون باعجاب كبير ، يكادون من خوفهم أن تفوتهم رقصة ... لا يتنفسون .

وصديقته أيضاً ، بالرغم من أنها من باريس ، تجلس ولا تتنفس ، ولا تهتم له أو به ، بل تريد أن تأكل العرض بعينيها وجسدها معاً .

ولم يصدق عندما استمع إلى التصفيق الكبير أن العرض قد انتهى .
فأمسك بذراع صديقته يجرها جراً ، إلى الخارج .
ووقف أمام باب الملهى يملأ رئتيه بالهواء ... ويكاد ، من فرحه لانتهاء « الكابوس » ، يطير .
يفكر أين يأخذ الرفيقة الحلوة الباهرة الجمال .
ويفكر بها إلى جانبه آخر الليل . تزهر ليلته . وتملأها عطراً
ولاحظ أن العملاق الأسود ، بائع « الهيرالد تريبيون » يجلس على الأرض ، وبجانبه اعداد الجريدة . فنظر إليه . وانتظر أن ينهض الرجل ليعطيه الجريدة ، كما يفعل كل ليلة منذ أشهر .

لكن الرجل لم يتحرك .
بل نظر إليه بهدوء ، وكأنه لا يراه .
ومد يده إلى جيبه يخرج « الفرنك » ثمن الجريدة . ثم مشى نحوه وناوله اياه . أخذ الرجل « الفرنك » بهدوء أيضاً ، ولكنه لم يناوله الجريدة . فانحنى ليلتقطها من الأرض حيث كانت ...

وشلت يده .
ولم يلتقطها . ولم يتحرك ، عقد الذهول عقله ولسانه وجسده معاً .
فقد قرأ العنوان الكبير ، على ثمانية أعمدة في الصفحة الأولى :
« وفاة عبد الناصر بالسكتة القلبية » .
لم يصدق .
مستحيل ؟ ! !

بالأمس ، أمس فقط شاهد صورته وهو يتفجر حيوية وصحة ونشاطاً .
أول أمس ، أول أمس فقط أنهى المذابح في الأردن

وعندما استطاع بعد لحظات خالها دهراً كاملاً ، أن يلتقط الجريدة ، لاحظ أن الزنجي الأسود ينظر إليه ، وكأنه يقرأ وقع الخبر على وجهه .

وعندما فرد الجريدة أمام عينيه ليقرأ التفاصيل ، وقف بجانبه وخلفه عشرات الناس ، وخصوصاً السياح « الاميركان » العجائز الخارجين من الملهى يقرأون ، ويستغربون ... ويصرخون .

ورفيقته تنظر إليه من بعيد ، كأنها تسأله متى يعود إليها . ليذهبا معاً ويغرقا في ... الليل .
ولم يعد إلى رفيقته .
مشى محني الظهر إلى المقهى المجاور على بعد خطوات ... وارتمى على أول مقعد ... يقرأ ...
ولم يقرأ طويلاً ...
بل انفجر بالبكاء ...
بكى كالأطفال . شهق كالأطفال . ارتفع صوت بكائه فلفت انتباه جميع الجالسين .
أغرقت دموعه الجريدة .
حاول أن يتوقف ، ففشل .

منذ أن سقطت القدس لم يبك .
ومنذ طفولته ، لم يبك بهذه الطريقة .
دمعه المتجمد منذ سنين هطل كالمطر دفعة واحدة .

ذاب القناع كله دفعة واحدة ...
سقط القناع الجامد الميت مع دموعه ...

عاد كمال « القناع » ، ليصبح فجأة كمال الإنسان .
لم يكن يبكي عبد الناصر فقط ...
كان يبكي القدس ...
كان يبكي والدته العجوز التي تركها في القدس ...
كان يبكي والده الحزين في القدس ...
كان يبكي فلسطين .
وشهداء فلسطين . وأطفال فلسطين الذين ماتوا في المذابح . وثورة فلسطين ... المذبوحة .
... وكان يبكي ... كمال .
كمال التائه الضائع في باريس .
كمال الذي مات مع فلسطين .

باريس — ١٩٧٠

مطابع الشروق ـ بيروت
ص . ب . : ٨٠٦٤ ـ ت ٣١٥٨٥٩

نبيل خوري

